لانغستون هيوز

حياة لا تخلو من ضحك

مكتبة

ترجمة: تيم الكردي
تقديم: مايا أنجلو

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

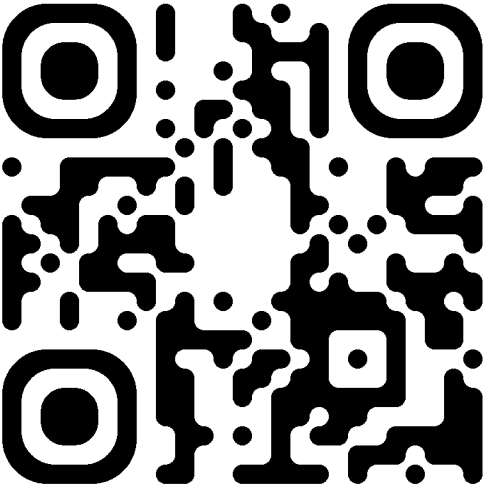

telegram @soramnqraa

حياة لا تخلو من ضحك

الكتاب: حياة لا تخلو من ضحك

المؤلف: لانغستون هيوز

ترجمة: تيم الكردي

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 296

الترقيم الدولي: 978-1-998800-15-5

الطبعة الأولى: 2023

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

29 10 2024

حياة لا تخلو من ضحك

لانغستون هيوز

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقديم

مايا آنجلو

ترجمة

تيم الكردي

إهداء المؤلف

إلى جيه. إي. وآمي سبينغارن

إهداء المترجم

إلى هالة وجمال... لما لا تتسع له الكلمات

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة

إنه لأمر خطير أن تصدّقوا تصريحًا جَدّيًا إن لم يكن المصرّح يتمتع بحسّ الفكاهة. في الواقع، إن استدعى المتحدّث إلى الأذهان الصورة الكئيبة للجبين المُسنَد إلى كفّ، وقَوام جسد أحنَته ويلات العالم؛ فإنني سأبذل قصارى جهدي لأستبدل البيئة المحبطة بأجواء أكثر إشراقًا، حيث يضحك الناس الجدّيون فعلًا، يكتكتون، يقهقهون، ويكركرون في محاولاتهم للبقاء في هذا العالم القديم اللئيم و إحداث فَرق فيه ربما.

عرف لانغستون هيوز أن الحياة التي تُعاش في شوارع واسعة تصطفّ على جانبيها الأشجار؛ لا بدّ أن تُعاش بروح الدّعابة؛ فما بالكم بحياة الناس الكثيرين الذين يعيشون حياتهم متمسّكين بشكل متزعزع بالحافة الصخرية للفقر والرفض. عرف هيوز أنه إذا كان الناس الذين يسيرون في طرق الامتيازات الفسيحة يبتسمون بودّ؛ فإن الناس في شوارع التمييز الممزقة بحاجة إلى أن يضحكوا من أعماقهم من أجل النجاة.

أرنا بونتيمبس، صديق هيوز العظيم والمعاصر، قال إن هذه الرواية الأولى، حياة لا تخلو من ضحك، التي كُتبت عام 1930، كانت قد تأخرت كثيرًا. فسّر التأخير بقوله إن الشاعر الجوّال أخذ إجازة للعودة إلى جامعة لينكولن في بنسلفانيا. لحسن حظّ عشاق هيوز فقد عاد إلى المخطوط حينما ترك جامعة لينكولن. من المثير للاهتمام قراءة هذا الكتاب في العقد الأخير من القرن العشرين، واكتشاف أن مقدّمته المنطقية ضرورية بشدة بشكل مؤلم، وجاءت في وقتها. فالصعوبات التي واجهتها شخصيات هيوز ضمن محيطه منذ ستين عامًا حاضرة بقوة اليوم للأسف. العزيمة والمثابرة اللذان اعتمدوا عليهما للتغلّب على الظروف

ما زالا مستمرَّين معنا بسعادة إلى اليوم. والضحك الذي وظّفوه لوضع حدّ للحرمان؛ كان وما زال، وسيظلّ ملاذًا يوفّر للمحتاجين العون والملجأ في وقت العاصفة.

كما أشار لانغستون هيوز في شعره ونثره، فقد ظلّ الجهل والعنصرية يُمارَسان في كل عقد من التاريخ الأميركي وعلى مدار كل مراحله. خلق جيس ب. سمبل الغاضب والعميق، الذي ساعدنا في السخرية من الظالم، وبالتالي إضعاف سلطة الظلم. حينما نظر إلينا المجتمع الأكبر كمواطنين من الدرجة الثانية لا يستحقون إلا معاملة من الدرجة الثالثة، منحنا هيوز امرأة قوية، عنيفة، ومبتهجة فسَرَت الأمر:

أنا أطبخ،

وأعمل في النهار أيضًا!

ألبرتا كيه. جونسون،

مدام بالنسبة إليك.

دُوّن هذا الكتاب حين كان على المبشّرين أن يكونوا شعراء، وكان الشعراء مبشّرين، لأنهم كانوا في حاجة إلى أن يكونوا متاحين لجميع الناس في كل وقت. ولم تقلّ الحاجة إليهم اليوم. جاءت هذه الطبعة الجديدة في الوقت الملائم.

د. مايا آنجلو

28 مارس 1994

توطئة

نهضة هارلم -كما تُعرف الآن- وصلت إلى ذروتها في عام 1930، وهو العام الذي ظهرت فيه (حياة لا تخلو من ضحك) لأول مرة. كان لانغستون هيوز، الذي كانت تخفق القلوب لشِعره منذ عام 1921، قد عرّف بنفسه بوضوح على أنه كاتب يجب متابعته. عاجلًا أم آجلًا، شعر العديد من القرّاء، وقال بعضهم في الحقيقة: إنّ المؤلّف الشاب لمجموعتَي (البلوز السئم) و(ثياب أنيقة لليهودي) الشعريّتَين سيكتب رواية، ولا بدّ من قراءتها حينما يفعل ذلك.

تأخّرت الرواية في الواقع، لأن الشاعر الجوّال وقع في غواية العودة إلى الجامعة. وإلا لنُشرت باكرًا منذ عام 1927. لكن 1930 كان عامًا مبشّرًا لرواية كهذه، على الرغم من أنّ سوق البورصة قد انهار قبلها بأشهر وبدأ الرعب ينتشر. لم يكن الأمل قد هُدم تمامًا. النوستالجيا -إلى حدّ ما- اشتدّت في جيلٍ كان قد بدأ يغضّ الطرف عن الكوارث التي تلوح في الأفق.

كان هيوز قد ترك أثرًا طفيفًا بين المثقّفين السّود قبلها بأربع سنوات، عندما نشر مقالًا في مجلة The Nation بعنوان «الفنان الزنجي والجبل العنصري». ضمّن المقال كلامًا اعتبره العديد من المثقفين والفنانين السود نوعًا من المانفيستو:

نحن فنّانو نيغرو الأصغر سنًا، نبدع سعيًا إلى التعبير عن سواعدنا الفردية ذات البشرة الداكنة من دون خوف أو خجل. إن سُرّ البيض بذلك فهذا يُسعدنا. إن لم يسرّهم ذلك فلا يهمّ. نحن نعلم أننا جميلون. وقبيحون أيضًا. طبل توم-توم يبكي وطبل توم-توم يضحك. إن سُرّ الملوّنون بذلك،

فهذا يُسعدنا. إن لم يسرّهم ذلك، فإنّ استياءهم لا يهمّ أيضًا. نبني معابدنا للغد، قوية قدر ما نعرف، ونقف على قمة الجبل أحرارًا في أنفسنا.

أصبح الشعراء زعماء، وكانت منظمات المعارضة وأصدقاء السود يتابعونهم كما لو كانوا مشدوهين. وقرّر زعماء حركات الحقوق المدنية المناضلون فجأة إضفاء لمسة من السّحر. توقفوا قليلًا وبدؤوا بكتابة الروايات والقصائد بأنفسهم. دبليو. إي. بي. دو بويز، جيمس ويلدون جونسون، ووالتر وايت، جميعهم التقطوا تلك الإشارة، لكن كان من السهل إدراك أن النبرة الجديدة المميزة كانت تصدر عن الكتّاب الأصغر سنًا، على الرغم من عدم وجود ميل - كما صار ملحوظًا في الستينيات- إلى التقليل من مكانة الكتّاب الأكبر سنًا.

كانت عيون كثيرة تراقب الشاعر الشاب عندما قبِل منحة دراسية من راع له، واختار جامعة لينكولن في بنسلفانيا لتكون جامعته. كان قد خاض تجربةً كطالب مستجدّ في جامعة كولومبيا قبلها بسنوات، ورحل عنها لشعوره بالبؤس، كما يستذكر في الجزء الأول من سيرته الذاتية. ربما لم تكن جامعة كولومبيا مستعدّة لاحتضان لانغستون هيوز في ذلك الوقت. لكن جامعة لينكولن أشعرته بالراحة. فسرعان ما شعر بأنه في منزله بعدما عاصر ثورغود مارشال، الذي كان صديقًا للعديد من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، وأحد مُعجَبي كاب كالواي. انضم إلى الأخوية، وكتب كلمات إحدى أغانيها، درس بما يكفي ليحقّق المتطلبات، وأجرى مسحًا لتحديد إن كان الرجال السود في جامعة لينكولن يودّون أن يعلّمهم بعضُ المعلّمين السود أم لا، وهذا ما لم يرغبوا فيه وقتذاك. بدا هذا الاستقصاء الجامعيّ غير دقيق إلى حدّ ما في ظلّ تلك الظروف. أثار الاستطلاع غضب الحرم الجامعيّ كما كان متوقعًا، لكن يبدو أن الهزّات الناتجة منه وصلت إلى نقاط أخرى في مجال تعليم السّود.

كانت النتيجة الآنية بالنسبة إلى هيوز، على أيّ حال، هي تأجيل الرواية التي عرفَ، وعرفَ قرّاؤه، أنه كان عليه كتابتها. لكنه بدأ بالعمل عليها في سنته الأخيرة من الدراسة الجامعية. كان يذهب في عطلات نهاية الأسبوع وفترات الراحة إلى هارلم في نيويورك. عرض على البعض منّا أجزاءً من المخطوط في أثناء العمل عليه. أنا نفسي لم يساورني الشكّ قَطّ في أنّ طابع شعره البسيط وغير المتكلّف سيستمرّ في روايته، وكُنت أشعر بخيبة أمل في عام 1930. ولا أشعر بخيبة أمل حيال ذلك الآن، بعدها بنحو أربعين عامًا، حينما أُعيد طباعة روايته الأولى مرة أخرى؛ أصبح هيوز بالنسبة إلى الكثيرين رمزًا للنهضة السوداء مع إصدار كتابه النثري الأول. أصبحت النهضة السوداء في العشرينيات رمزًا لإيقاظ وعي السّود في كل مكان بحلول العام 1969.

يمكن إرجاع تاريخ نهضة هارلم بدقة أكبر إلى عام 1917، وهو العام الذي غُرست فيه بعض بذورها. وبينما كان كلود مكاي وجان تومر يكتبان ويضعان القصائد والقصص التي ستنقل هذا المزاج في عامي 1922 و1923 على التوالي، جاء ماركوس غرافي إلى الولايات المتحدة وأيقظ الاعتزاز بالسّواد والقناعة بأنّ الأسودَ على قدرٍ من الجمال والنشاط غير مسبوقين. وكان الشعر أول من التقط هذا النبض، وظهر اسما لانغستون هيوز وكونتي كولين كنجمين مفاجئين في مطلع الفجر الرمادي.

أما بالنسبة إلى مجال العروض و بسبب طبيعتها؛ فقد سارع بعض الكتّاب المسرحيّين والمنتجين الأميركيين العريقين إلى اكتشاف الحماسة الأولية للصحوة في هارلم، والاستفادة من اندفاعتها كما كانت. لم يبدؤوها ولم يخلقوها أو يوجّهوها، لكنهم نشروها وتربّحوا منها بشكل مذهل في بعض الأحيان، من خلال قدرتهم على الوصول إلى وسائل الإعلام بالفعل على نطاق أوسع، كان في إمكانهم مدّ التأثير الأسود إلى

برودواي، وأصبح الناس في أنحاء البلاد يعون شيئًا فشيئًا ما يحدث في هارلم بطريقة أو بأخرى.

كانت فترة النهضة وقتذاك، تقريبًا في عشرينيات القرن العشرين. شهدت بداياتها نقاطًا بارزة، فعلاوةً على كُتب مكاي أو تومبر، المسيرات وخطب ماركوس غرافي الحماسية؛ يمكن إضافة حفل رولاند هايز الأول في قاعة كارنيغي وافتتاح عرض موسيقي يُعرف الآن باسم Shuffle Along جرجرة الخطى بالقرب من منطقة المسرح في نيويورك؛ إلى تلك المحطات المميزة. من الممكن تأليف الكتب عن كل هذه الأحداث. على أي حال، بدأ النجوم يتساقطون على هارلم وبرودواي.

بدأ توثيق تلك الحقبة بإصدار عدد خاص من The Survey Graphic، التي كان يحرّرها آلان لوك، ونُشر في مارس 1925، وحين بدأت مجلة Opportunity, A Journal of Negro Life، التي كان يحرّرها تشارلز إس. جونسون لصالح الرابطة الحضرية الوطنية؛ تقدّم الجوائز للكتّاب السّود وتشجّعهم في العام نفسه. يُمكن اعتبار ذلك اتصالًا أو انقطاعًا، حيث قد يُقال إن الفترة التي تلَت تلك الحقبة قد أنهت التمييز العنصري إلى حدّ ما بالنسبة إلى الكتّاب والفنّانين والمؤدّين السّود في الحياة الإبداعية للأمّة فيما يتعلق بوسائل التعبير الراسخة.

من غير المفاجئ أن تلك كانت الحقبة التي لاقت فيها موسيقى الجاز القبول، ووصل فيها جيلي رول مورتون، دبليو. سي. هاندي، وديوك إلينغتون إلى نيويورك. كان الإيقاع ثابتًا. اهتزت هارلم. غنت بيسي سميث وإثيل وترز في أماكن مظلمة تحت الأرض، أمكنَ للمرء فيها شراء (الجن) في سنوات حظر الكحوليات تلك. خلال فترة بعد الظهر وكذلك منتصف الليل، ابتدع الأطفال في جادة لينوكس والجادة السابعة رقصات مِشية الجَمل، القاع الأسود، والشارلستون. أن تكون شابًا وشاعرًا في تلك

الأيام هو أقرب ما يكون إلى حالة مثالية من السعادة، وبحلول وقت كتابته (حياة لا تخلو من ضحك) كان لانغستون هيوز يجول بين ناسه كأمير سعيد قد جاء زمانه.

أرنا بونتيمبس

ناشفيل

21 مايو 1969

عاصفة

وقفت الخالة هاغر ويليامز عند مدخل منزلها ونظرت إلى الشمس. كانت السماء في غرب البلاد بلون أصفر كبريتيّ، والشمس أشبه بكرة حمراء تغيب خلف الأشجار وأسطح المنازل، لتترك الغيوم تُغرق بقيةَ السماء بلون رماديّ.

قالت الخالة هاغر بصوتٍ عالٍ: «هناك عاصفة قادمة!».

ركضت فرخة عبر الفناء الخلفي للمنزل لتدخل إلى حفرة مربعة الشكل في صندوق بيانو غير مطليّ استُخدم كقنّ للدّجاج. قاقت دجاجةٌ عجوز لتجمع فراخها، قبل أن تدخل مع الكتاكيت الصغيرة إلى صندوق صغير بجانب الصندوق الكبير. كان الهواء ساكنًا للغاية. لم تتحرك ورقة على شجرة التفاح الخضراء، ولم يهتز أي برعم من زهور «مجد الصباح» على السياج الخلفيّ. كان الهواء ساكنًا جدًا وأصفر. شعور خانق ومغمّ جعل صبيًا صغيرًا يقف في المدخل بالقرب من جدّته، ممسكًا مئزرَها بيديه السمراوين.

قالت الخالة هاغر: «هناك عاصفة قادمة بالتأكيد».

«آمل أن تعود أمي إلى المنزل قبل أن تُمطر»، قال الطفل الأسمر وهو يمسك بمئزر المرأة العجوز. «آمل أن تعود إلى المنزل».

فأجابته الخالة هاغر: «آمل ذلك أيضًا، إلا أنني أخشى أنها لن تصل قبل فوات الأوان».

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفجأة بدأت قطرات كبيرة تهطل بكثرة في الفناء الخلفي، مطلقةً سحبًا صغيرة من الغبار حيثما ترتطم بالأرض. وطقطقت بعنف على السطح كسلسلة من ضربات المطرقة لبضع لحظات، قبل أن تتوقف فجأة.

قالت الخالة هاغر: «ادخل يا صغيري».

أغلقت الباب، فيما بدأت شجرة التفاح الخضراء تتمايل مع الريح لتسقط تفاحة صغيرة صلبة وتتدحرج إلى أسفل صندوق البيانو الذي كان يؤوي الدّجاج. كان الظلام مخيمًا تقريبًا داخل المطبخ. بينما أشعلت الخالة هاغر مصباح زيت، تسلّق الطفل كرسيًا ونظر عبر النافذة المربعة إلى الفناء. كانت أوراق وأزهار كرمات «مجد الصباح» على السياج الخلفيّ تنحني مع اشتداد الرياح. وعبر زقاق البيت الكبير كان الباب الشبكيّ الخلفي للسيدة كينيدي يطرق جيئة وذهابًا، ورأى ساندي دلو قمامتها ينقلب فجأة ويتدحرج إلى الفناء، ناثرًا قشور البطاطس على الدرج الأبيض.

قالت هاغر وهي ترفع فتيل المصباح وتشعل الموقد: «ستكون عاصفة رهيبة بالتأكيد». ثم نظرت عبر النافذة فرأت سحابة سوداء تلتفّ مثل شريط في السماء الغربية، لتصرخ العجوز بصوتٍ عالٍ يملؤه الرعب: «إنه إعصار! سيكون إعصارًا! لنذهب إلى منزل السيدة كارتر بسرعة يا ساندي، فليس لدينا قبوٌ هنا. تعال يا صغير، هيا بنا! هيا يا صغيري!... هيا يا صغيري!».

نفخت على المصباح لتطفئه على عَجل، وهي تمسك يدَ الطفل؛ واندفعا مسرعَين عبر المنزل الصغير إلى مقدمته. كان الظلام دامسًا في الغرفتين الداخليتين، لكن ظهر عبر نوافذ الردهة ما يشبه نورًا بلون أخضر مشوب بالرماديّ سرعان ما انقلب إلى سواد.

«نجّنا يا ربنا يسوع!».

فتحت الخالة هاغر الباب الأمامي، لكن قبل أن تتمكن هي أو الطفل من التحرك، هزّ العالمَ صوتٌ هدير عظيم مفاجئ، ورافقه صوت انفصال أخشابٍ عن بعضها، صوت مصمّ للآذان، رأيا الشرفة الأمامية ترتفع في الهواء وتطير، قبل أن تختفي عن الأنظار. فيما عصفت الرياح السوداء بقوة هائلة صمّت الآذان.

اهتزّ المنزل الصغير للحظة وتمايل وصدر عنه صوت صرير وكأنه على وشك السقوط.

صرخت الخالة هاغر، بينما كانت تكافح بكل قوتها لإغلاق الباب الذي ثبّتته الرياح: «ساعدْني في إغلاق هذا الباب، ساعدْني في إغلاقه، يا ربي!». حين نجحتْ أخيرًا، نزلت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط، بينما كان حفيدها الصغير يرتجف مثل ورقة شجر في حضنها، وهي تغمغم: «يا لها من عاصفة!... أوه، يا ربي!... أوه، يا صغيري، يا لها من عاصفة!».

وصلتْ إلى مسامعهما طقطقة الأخشاب وأغصان الأشجار المتدحرجة التي رمتها الرياح على الأرض. شدّت ذراعيها حول الصّبي، قبل أن تتذكّر: «يا يسوع! أتساءل أين أمّك؟ أعتقد أنها مضت إلى المنزل قبل أن تبدأ هذه العاصفة!»، ثم ازداد توتّرها: «ارحم ابنتي أنجي! أوه، يا رب، ترفّق بوالدة هذا الصغير! ترفّق بكل بناتي! ابنتي هاريت، وابنتي تيمبي، وابنتي أنجي، ربما كلهنّ يواجهنَ العاصفة الآن! أوه، يا رب!».

شقت الظلمةَ صاعقةُ بَرقٍ جافّة، وبدأ الصبي ينتحب. ثم هطل المطر. لم تستطع العجوز رؤية الطفل الباكي الذي تحتويه، ولم يستطع الصبي سماع صوت جدّته المتهدج وقد بدأت تصلّي، بينما المطر يتساقط عبر الظلام الحبريّ. ظلّت الرياح تهدر على سطح المنزل وتطرق النوافذ لفترة طويلة، حتى صمَت الاثنان في النهاية، كاتمَين بكاءهما. وحده صوت

ارتطام الماء عَمَّ جوَّ المساء، إلى جانب الشعور بأنّ شيئًا فظيعًا يحدث، أو قد حدث بالفعل.

حين توقّف المطر، سطعَ القمر صافيًا ومشرقًا وتلاشت السّحب التي عمّها الاضطراب. برقَت النجوم بهدوء فوق الخراب الذي خلّفته العاصفة. خرج الناس من منازلهم وبدؤوا يتفحصون الأضرار التي أحدَثها الإعصار الدائري الذي جاء مع غروب الشمس. قاد الرجال ببطء عرباتهم التي تجرّها الأحصنة أو الدّواب أو السيارات عبر الشوارع المليئة بالأنقاض. انطلقت سيارة الإطفاء مدويةً بصافرتها، مثل صوت سيارة الإسعاف التي كانت تقلّ الجرحى، والتي أمكنَ سماع صوتها من مسافات بعيدة.

ارتدت الخالة هاغر السوداء وحفيدها الأسمر حذائين مطّاطيين ووقفا في الفناء الأمامي الغارق بالمياه ينظران إلى المنزل الذي يعيشان فيه وقد أصبح بلا شرفة. المصطبة، الدرج، الأعمدة، والسقف، كلها ذهبت أدراج الرياح. لم يبق أيّ أثر للشرفة، وانفتح الباب الأمامي على الفناء مباشرةً. كان مشهدًا بشعًا ومضحكًا في آن معًا. ضحكت هاغر.

«قام الإعصار بعمل جيد. يبدو منزلي وكأنه لم يكن فيه شرفة على الإطلاق».

مدام دي كارتر التي تسكن المنزل المجاور عبَرت العشب قادمةً، وفي جعبتها ثرثرة كثيرة لتعبّر من خلالها عن تعاطفها مع جارتها.

«لكن اشكري الربّ أننا بقينا على قيد الحياة! كان من الممكن أن تسوء الأمور أكثر أيتها الأخت ويليامز! كان من الممكن أن تصبح الأمور أكثر كارثية! في الحقيقة لم أفقد سوى موقد وحوضَي غسيل كانا في الفناء الخلفي. لا أهمية لانكسار بضعة أشجار. نحن أحياء، ألسنا كذلك؟ ونحن أهمّ بكثير من الأشجار في كل الظروف!» لمعت أسنانها الذهبية في ضوء القمر.

«بالفعل»، وافقتها هاغر الرأي بشدة. «دعينا نتفقد الحيّ يا أخت، ونرى ما الذي دمّره الرّب وما الذي حماه هذا المساء. يعطينا الكثير من نور القمر بعد العاصفة حتى يتسنّى لنا نحن المساكين رؤية الدرس الذي لقّنه لهذا العالم الآثم».

قطعت المسنّتان صاحبتا البشرة الملوّنة طريقهما على الرصيف الرطب، حيث تناثرت الأغصان وفروع الأشجار المكسورة. تَبعهما الصبيّ الأسمر الصغير، وقد اتسعت عيناه لرؤية عربات الأطفال وأغطية النوافذ والألواح الخشبية وأغصان الأشجار متناثرة في الطريق. خرج الناس في أعداد كبيرة من منازلهم، وقف بعضهم على الشّرفات، وحمل آخرون الفوانيس، وهم يجمعون من الشوارع الأغراض الصالحة للاستخدام، فيما فرك آخرون أيديهم في ذهول.

بالقرب من الزاوية اجتمع حشد صغير بهدوء.

قال أحدهم: «ماتت السيدة غافيت».

«ساعدْنا يا رب!» قالت الخالة هاغر ومدام دي كارتر في وقت واحد.

أضاف شابّ أبيض متوتر من هول الخبر: «مات السيد والسيدة غافيت. نعيش إلى جوارهما، طار منزلهما من مكانه! كاد يرتطم بمنزلنا ويخترق جداره الجانبي».

«رحمتك يا رب!» قالت المرأتان، إلّا أن ساندي ابتعد عن جدّته واخترق الحشد. اجتاز الزاوية ليتسنى له رؤية المنزل المقلوب لعائلة غافيت سيئة الحظ.

لطالما قالت الخالة هاغر عن عائلة غافيت إنهم أناس بِيضٌ طيّبون، والآن مسكنهم الكبير يرقد على جانبه وكأنه منزل دمى، وأثاثه محطّم ومتناثر على العشب الرطب بلا مبالاة، وها قد توفّيا. رأى ساندي بيانو مقلوبًا على ظهره فوق العشب. كانت مفاتيحه البيضاء بلونها العاجيّ

تلمع في ضوء القمر كأسنان في وجهٍ باسم، جعلَ هذا المشهد الغريب جسد ساندي الصغير يرتعش، لذا سارع عائدًا إلى الحشد بحثًا عن جدّته. وبينما كان يجتاز الزاوية سمع امرأةً تبكي بشكل هيستيري داخل المنزل الواسع هناك.

لم تعد جدّته واقفة حيث تركها، إلا أنه وجد مدام دي كارتر وأمسك يدَها. كانت وسط مجموعة من النساء البيض والملوّنات المتحمّسات. كانت سيدة عجوز ضعيفة تقول بنبرة قاطعة إنها لم ترَ إعصارًا كهذا طوال حياتها، وقد عاشت في كانساس هنا لمدة ثلاثة وسبعين عامًا. مدام دي كارتر، بثرثرة متوترة، شرعت تحدّثهم كيف أدركت قدوم الإعصار واندفعت إلى القبو لحظةَ رأت لون السماء يصبح أخضرَ، ولم تخرج حتى توقّف المطر، وقد كانت مذعورة للغاية. كانت مستمتعة إلى حدّ يثير العجب وهي تحكي لهم عن مخاوفها بينما استمر ساندي في شدّ يدها.

سألها: «أين جدتي؟»، إلا أن مدام دي كارتر لم تتوقف عن الحديث للإجابة على سؤاله.

«ماذا تريد يا بني؟» أخيرًا سألته إحدى النساء البيض، وقد انحنت إليه عندما بدا وكأنه على وشك البكاء. «الخالة هاغر؟... حسنًا، إنها في الداخل تساعدهم في تهدئة ابنة أخت السيدة غافيت المسكينة. كما تعلم، يكون حضور جدّتك مفيدًا عندما يمرض الناس أو يحزنون. اذهب واجلس على الدّرج كطفل مهذّب وانتظرها حتى تخرج». ترك ساندي النساء وذهب ليجلس في الظلام على درج المنزل الكبير عند الزاوية حيث تعيش ابنة أخت السيدة غافيت المتوفاة. كان هناك بعض الناس على الشرفة، لكنهم سرعان ما عبروا الباب الشبكي ليدخلوا إلى المنزل، أو مضوا في طريقهم إلى الشارع.

ألقى ضوء القمر بظلال غريبة على العتبات الرطبة حيث جلس ساندي، وقد كان الظلام سائدًا تحت الأشجار على الرغم من ضوء القمر، فقد تم بناء المنزل القديم في ساحة بعيدة عن الشارع مليئة بأشجار البلّوط والقيقب، واستطاع ساندي رؤية الضوء المنعكس من نافذة الطابق العلويّ على أوراق الأغصان القريبة الرطبة. سمع صراخ فتاة أيضًا، من الأعلى حيث كان الضوء مشتعلًا، وهو يعلم أن الخالة هاغر تضع قطع قماش باردة على رأسها، أو تفرك يديها، أو تُخرج الناس من الغرفة، وتتحدّث إليها بلطف لتصبح في حال أفضل عمّا قريب.

كل سكان الحيّ، سواء من البيض أم من الملونين، كانوا يستنجدون بجدته عند حدوث طارئ ما. قالوا إنها ممرّضة جيدة، وأحبّ المرضى وجودَها بجانبهم. كانت الخالة هاغر تحضر دومًا عندما تُطلب، وتحضر معها أيضًا القليل من الحساء الذي صنعته أو الجيلي. يدفعون لها أجرًا لقاء ذلك في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى لا يدفعون. لكن ساندي لم يضطر قطّ إلى الجلوس خارجًا في الظلام ينتظرها. أحنى ظهره الصغير على الدرجة العلوية ووضع مرفقيه على الشرفة خلفه. صار الوقت متأخرًا، وبدأ الناس يختفون تمامًا من الشوارع.

هناك في الظلمة؛ بدأ الفتى الصغير يفكّر في والدته التي تعمل في الجانب الآخر من المدينة لدى سيدة بيضاء ثرية تدعى السيدة ج. ج. رايس. وفجأة راودته أفكار مخيفة، تخيّل أنها خرجت من المنزل بمجرد هبوب العاصفة! كانت والدته تعود دائمًا إلى المنزل قبل حلول الظلام تقريبًا، لكنها لم تكن هناك الليلة عندما هبّت العاصفة، وكان ينبغي أن تكون في المنزل! هالته تلك الفكرة. كان ينبغي أن تكون هناك! لكنها ربما علقت في العاصفة وعصفت بها وهي تعبر شارع ماين! ربما عصفت الرياح السوداء العاتية التي قلبت منزل عائلة غافيت وطيّرت شرفة جدّته

في الهواء بأنجي! فكّر ساندي، ربما خطف الإعصار والدته. كان بحاجة إليها! أين كانت؟ هل أصابها مكروه؟ أين هي الآن؟

بدأت الدموع تنهمر على خديه، إلا أن الفتى الصغير سرعان ما كبح البكاء الذي شعر بحاجة إليه. قرّر أنه لن يبكي ويحدث جلبة وحده على الدرج الغريب لمنزل أولئك البيض. لن يبكي كرضيع كبير في الظلام. لذا مسح عينيه، أسندَ كعبيه على الرصيف الإسمنتي، واستلقى على الدرجة العلوية، وشيئًا فشيئًا، استمرّت شهقاته إلى أن غفا.

«استيقظ يا بنيّ!» هزّه شخص ما. «ستهلك لنومك على دَرج رطب كهذا. سنذهب إلى المنزل الآن. لا تريد مني أن أحمل رجلًا كبيرًا مثلك، أليس كذلك يا فتى؟... استيقظ يا ساندي!» انحنت والدته لرفع جسده الطويل الصغير عن الدرج العريض. حملته على صدرها الكبير الناعم تاركةً رأسه يستقر على أحد كتفيها بينما تتدلى قدماه، بالحذاء المطاطيّ الموحل، على فستانها.

سألها الصبي بصوتٍ نعس وهو يشدّ ذراعيه حول رقبتها. «أين كنتِ يا أمي؟ كنتُ في انتظارك».

«أوه، عدتُ إلى المنزل منذ وقت طويل، وقلقتُ بشدة عليك وعلى أمّي، حتى علمت من مدام دي كارتر أنكما هنا ترعيان المريضة. لجأتُ إلى منزل خالتك تيمبي عندما رأيت العاصفة قادمة».

غمغم ساندي بصوتٍ نعس: «كنت أخشى أن يعصف بك الإعصار. لنذهب إلى المنزل يا أمي. أنا سعيد لأن الإعصار لم يعصف بك».

كانت الخالة هاغر تتحدث إلى رجل أبيض شاحب اللون وامرأتين نحيلتين بيضاوين، واقفين عند باب الرواق المضاء على الشرفة. كانت تقول: «دعوا السيدة أغنس تنام فحسب، ستكون بخير، وسأعود في الصباح لأطمئن عليها.. تصبحون على خير جميعًا».

انضمت العجوز الملوّنة إلى ابنتها ومَضتا في طريقهما إلى المنزل عبر الشوارع المليئة بالحطام وبرك المياه الموحلة التي انعكس القمر عليها.

قالت والدة ساندي لطفلها الذي تحمله: «أنت ثقيل فعلًا يا فتى»، لكنه لم يردّ.

قالت هاغر: «أنا سعيدة لأنك جئتِ إليّ يا أنجي. أتساءل إن كانت أختك بخير هناك في النادي الريفي.. وقلقتُ عليكِ بشدّة من دون أن أعرف ماذا أفعل، خشيتُ أن تعلَقي في ذلك الإعصار، فقد كان مروعًا فعلًا!».

ردّت أنجي: «كنت في منزل تيمبي! وكنت على وشك أن أفقد عقلي، لكنني سلّمتُ أمري إلى الله. هذا كل ما في الأمر». مَشَتا بصمت قليلًا قبل أن تسأل والدتَها بلهجة متردّدة: «هل وصلتني أيّ رسائل اليوم يا أمي؟».

أجابتها المرأة العجوز باقتضاب: «لم يصل شيء! وقد مرّ ساعي البريد».

عمّ الصمت مجددًا لبضعة دقائق وهما تمشيان، قبل أن تقطعه الشابّة بشكواها، وهي تنقل الطفل إلى ذراعها اليمنى: «مرّت ثلاثة أسابيع من دون أن يكتب لي سطرًا، أظنّ أن جيمبوي كان ليعلمنا بمكانه، أليس كذلك يا أمي؟».

«هاه! لا تشغلي بالك بهذا! رحل من قبل من دون أن يكتب إليك، أليس كذلك؟ تقلقين بشأن رسالة من زوجك عديم النفع؛ ومنزلي منتصب هناك من دون شرفة!.. ألم تري ما فعله الشيطان بالأرض هذا المساء يا ابنتي؟.. ثم أول شيء تسألينني عنه هو ساعي البريد!.. يا ربي! يا ربي!.. أنت وجيمبوي ذاك!».

رفعت الخالة هاغر جسدها الثقيل وهي تتفادى البِرك وجذوع الأشجار المتساقطة، لكنها وجدت بين أنفاسها اللاهثة فسحة للتعبير عن استيائها، لذا كفّت أنجي عن الكلام بشأن قلقها حول رسائل زوجها، واستأنفتا حديثهما عن الإعصار بدلًا من ذلك. «أنا ممتنة يا أمي، لأن العاصفة لم تدمّر المنزل بأكمله وأنتِ فيه، هذا أكثر ما يهمّ! كنت قلقة فعلًا!.. وعندما وصلتُ إلى المنزل لم يكن هناك أحد منكما! وقد خرجتما للاهتمام بتلك المرأة البيضاء.. لكن مؤسف ما حدث للسيدة غافيت المسكينة والعجوز غافيت، أليس كذلك؟».

قالت الخالة هاغر: «بالطبع! إنه أمر مؤسف بالتأكيد. كانا شخصين أبيضين طيّبين للغاية! وابنة أختها المتزوجة تلقّت الخبر بصعوبة، يا لها من صغيرة مسكينة. بقيتُ وزوجَها نحو ساعتين هناك نحاول إخراجها من حالتها الهستيرية. كانت ترتجف كنار المصباح».

دخلتا إلى الفناء، «انتبهي على هذا الطفل يا أنجي، حاذري أن تتعثري بلوح أو غصن شجرة وتقعي أرضًا معه».

قال ساندي: «أنزليني، أنا مستيقظ».

بدا المنزل القديم غريبًا من دون شرفة. استطاع في ضوء القمر رؤية المسامير الطويلة التي كانت تثبّت سقف الشرفة إلى ألواح التلبيس. تسلّقت جدّته عتبةَ الباب ببطء، وحملته والدته إلى مستوى الأرضية، بينما أشعلت الخالة هاغر مصباح الزيت الكبير على طاولة الردهة. ثم ذهبوا إلى غرفتَي النوم حيث خلع الفتى ملابسه، أدّى صلاته، وصعد إلى المرتبة المرتفعة المصنوعة من الريش حيث كان ينام مع أنجي. دخلت الخالة هاغر إلى الغرفة المجاورة، لكنها لم تكفّ عن الذهاب والمجيء إلى مدخل الغرفة للتحدّث مع ابنتها حول العاصفة.

كرّرت قولها: «كنا أنا وساندي على وشك الخروج إلى منزل السيدة كارتر، لكن كان الرب معنا! أوقفنا! سبّحوا باسمه! لم يتأذّ أحد منّا، إلا أنني لا أعرف شيئًا عن هاربيت في النادي. لكنكما بخير. وتقولين إن تيمبي بخير أيضًا. وأدعو الرب ألا يمسّ هاربيت سوء في النادي الريفي حيث تعمل. ربما لم تمرّ العاصفة من هناك».

ثم تحدّثتا عن الأشخاص البيض حيث تعمل أنجي، وعن ازدهار أحوال الأخت الكبرى تيمبي، قبل أن يسمع ساندي جدّته تصعد إلى السرير، وبعد بضع دقائق من صرير النوابض تحتها؛ بدأت تشخر. أغلقت أنجي الباب الواصل بين غرفتيهما، وبدأت ببطء تفكّ رباط حذائها المبلل.

همست الأم: «ساندي، لم يصلنا أي خبر من والدك منذ رحيله. أعلم أنه يذهب بعيدًا ويظلّ على هذه الحال ولا يكتب إلينا، لكنني قلقة بالتأكيد. آمل ألّا يمرّ الإعصار في أي مكان قريب منه، أينما كان، وآمل ألّا يمسّه سوء، سأصلي من أجله يا ساندي. سأسأل الله أن يتولى جيمبوي بعنايته، الربّ يعلَمُ كم أريده أن يعود! أنا أحبّه، كلانا نحبّه، أليس كذلك يا صغيري؟ ونريده أن يعود!».

ركعت على ركبتيها بجانب السرير مرتديةً ثوب النوم، وأبقت رأسها منحنيًا لفترة طويلة. قبل أن تنهض وتجد ساندي قد غرق في النوم.

محادثة

كانت شمس النهار قد سطعت في مدينة سانتون منذ وقت طويل.

صاحت الخالة هاغر: «انهض من سريرك يا فتى! باستر ينتظرك في الفناء لتلعب معه وما زلتَ نائمًا!».

ردّ ساندي: «أخبريه أن يقصّ ضفائر شعره»، لكن جدّته لم يكن مزاجها ملائمًا للمزاح.

«كفاك حديثًا عن شَعر ذلك الصغير وارتَدِ ملابسك. الساعة التاسعة وأنت لم تستيقظ بعد! عار عليك!» صرخت من المطبخ، حيث سمع ساندي صوت طقطقة النار ورائحة القهوة تغلي.

أبعد الملاءة بقدميه العاريتين وتدحرج مرات عدّة فوق الغطاء الريشي الناعم، كان هناك متّسعٌ من المساحة بعد أن استيقظت والدته باكرًا وذهبت لتعمل في منزل السيد ج. ج. رايس.

صاح ساندي وهو يرتدي سرواله ويركض حافي القدمين نحو الباب: «أخبري باس أنني قادم.

صرخت هاغر لتوقفه في طريقه إلى الخارج: «تعال إلى هنا يا سيد وارتدِ حذائك»، قبل أن تكمل:

«ستصبح قدماك بطول المسطرة ومسطّحتين كالفطائر المحلّاة لكثرة ما تجري حافي القدمين، واغسل وجهك أيضًا يا سيد. ليس لدى باستر خيار سوى انتظارك. ولا تنس أن تتناول فطورك».

غمر ضوء الشمس الهواء بالدفء، فيما بدت المئات من أزهار مجد الصباح الأرجوانية والبيضاء تضحك على السياج الخلفيّ. كانت الأرض والسماء نقيّتين وطاهرتين بعد الأمطار الليلية الغزيرة، وانتصبت براعم الذرة الغضّة في الحديقة، فيما التفّت كروم البازلاء حول أعوادها الملتوية. حمل الهواء مزيجًا من روائح الأرض الرطبة وغبار الطلع الذهبي في النسيم الذي ينفثه بلا مبالاة في الهواء النقيّ.

جلس باستر تحت شجرة تفاح خضراء وأمامه كومة من الطين الأسود من ممشى الحديقة.

قال: «أهلًا يا ساندي، سأصنع دحلًا وأتركها في الشمس لتجف».

وافقه ساندي، وبدأا يكوران الطين في راحات أيديهما، لكن بدلًا من وضعها في الشمس حتى تجفّ، ألقيا بها على الجزء الخلفي من المنزل، حيث التصقت به لتظهر مسطّحة، ثم شرعا يتراشقان بها.

كان رفيق ساندي في اللعب طفلًا زنجيًا صغيرًا ببشرة عاجية اللون وشعر ذهبيّ أملس، وقد صفّفته له والدته في ضفائر. كانت عيناه زرقاوين مثل أعين الدُّمى ولم يكن يشبه الفتيان الملوّنين في شيء؛ لكنه كان ملوّنًا. فيما كان لون بشرة ساندي نفسه أسمرَ مثل قطعة من الخبز المحمّص، مع عينين بنّيتين داكنتين وشعر أجعد بلون الرّمل، ولم يكن شعره ينعُم إلا بعد استخدام الكثير من الفازلين والماء. لهذا كان الناس ينادونه بـ (ابن أنجي ذي الشّعر الرمليّ)، قبل أن يكتفوا بمناداته باسم ساندي فحسب.[1]

قالت الأخت لوري: «لقد ورث شكله من والده، باستثناء لون بشرته الفاتح. لكنه بالتأكيد سيكون شابًا وسيمًا جدًا عندما يكبر!».

(1) تعني كلمة Sandy في اللغة الإنجليزية الرمليّ.

ردّت عليها الخالة هاغر: «آمل ذلك، إلّا أنني أفضّل أن يكون قبيحًا على أن يصبح مثل جيمبوي عديم النفع الذي يأتي شهرًا ويغيب لستّة أشهر، ولا يعمل إلا حين يكون مزاجه ملائمًا لذلك. لولا أنجي، لا أعرف كيف كنّا سنؤمّن قوْتَنا، لأن والد ساندي لا يفعل شيئًا لمساعدته».

علِم كل الملونين في سانتون أن هاغر لم تكن تحبّ جيمبوي روجرز، الرجل الوسيم طويل القامة الذي تزوّجته ابنتها الثانية.

كانت تقول سرًا: «في المقام الأول لا أحب اسمه، مَن سمع عن زنجيّ يُدعى جيمبوي؟ ثم إني لم أرَ قطّ رجلًا زنجيًا فاتح البشرة يقول إن النساء صاحبات البشرة الداكنة لسنَ جميلات، وبشرة أنجي داكنة!».

كان لدى الخالة هاغر اعتراضات أخرى، على الرغم من أنها لم تكن تحبّ التحدث عن الناس بالسوء. لكن كان أكثر ما يشغل ذهنها على الأرجح مسألة أصله، فلم يكن هناك أحدٌ يعرف من هما والِدَا جيمبوي.

«انتبهْ إلى المنزل يا ساندي بينما أغيب للاطمئنان على حال ابنة أخت السيدة غافيت. والعبوا خارج المنزل. لا تُدخل الأطفال إليه، وتجعلوا المكان فوضويًا».

بحدود الساعة الحادية عشرة ، وضعت الخالة هاغر شبكة شَعر على رأسها ولبست مئزرًا أبيضَ نظيفًا، وقالت وهي تدير ظهرها العريض:

«تعال، اربطها لي يا صغيري».

قبل أن تضيف وهي تتوارى خلف المنزل وتمشي بفخر: «وحاذرْ أن تؤذي نفسك بالمسامير الصدئة والألواح الخشبية المتعفّنة من بقايا العاصفة. سأعود بعد قليل».

سرعان ما انضمت إلى الطفلين تحت شجرة التفاح، فتاة صغيرة بشرتها بلون الفحم تعيش في المنزل المجاور، وهي ويلي ماي جونسون، وأصبحت الكرات الطينية بين يديها أقراصًا طينية مدوّرة ومحضّرة وموضوعة بعناية

في الشمس على الصندوق الصغير حيث تعيش الدجاجات الصغيرة. أخذت ويلي ماي دور الأم، وساندي دور الأب، أما باستر فقد كان الطفل في لعبة «بيت بيوت» التي بدؤوا يلعبونها معًا.

سمع الثلاثة صوت صافرة رجل البريد، فمضوا بسرعة إلى الرصيف لملاقاته. سلّم الساعي ساندي رسالةً: «ضعْها في المنزل». لكن الأطفال بدلًا من ذلك جلسوا على عتبة الباب، وأقدامهم تتدلى حيث كانت الشرفة، وبدؤوا بتفحّص الظّرف.

قال باستر: «أراهن أن هذه صورة لنكولن».

عارضته ويلي ماي: «لا. ليست كذلك، إنها صورة روزفلت!».

فتدخّل ساندي: «إنها صورة واشنطن، ولا تلمسا رسالة أمي بأيديكما الملوثة بالوحل. قد تكون الرسالة من أبي، وهي تريدها أن تظلّ نظيفة».

«هذه الرسالة من جيمبوي»، قالت الخالة هاغر عند عودتها رفقة صديقتها القديمة، الأخت وايتساید، التي كانت تجول قبل أن تلتقيها عند الزاوية وهي تحمل الخضراوات الطازجة التي تزرعها بنفسها لتبيعها.

تابعت هاغر: «أعرف خطّه، وعليها ختم بريديّ، ك.. ا.. ن.. كانساس سيتي! هذه هي! يحبّ الزنوج كانساس سيتي! إذًا هو هناك. حسنًا، ستسعد والدتك بها. لو علمت بوصولها لتركت عملها وجاءت إلى المنزل على الفور.. اجلسي يا وايتساید، سنأكل بعد قليل، من الأفضل أن تشاركينا الطعام وترتاحي قليلًا، أعلم أنك كنت تمشين طوال الصباح!».

«هذا صحيح»، أكدّت الأخت العجوز كلام الخالة هاغر، راميةً سلّة الخسّ والبازلاء على الأرض قبل أن تسحب كرسيًّا وتجلس إلى طاولة المطبخ. «لم أبع الكثير، يبدو أن الناس غير مقبلين على الشراء بعد العاصفة والرياح التي هبّت ليلة البارحة، لكن الرب سيرزقني! لستُ قلقة».

وافقتها هاغر: «هذا صحيح، كدتُ أنا نفسي أطير بدلًا من الشرفة، لولا أنّ يسوع كان معنا.. ساندي! أسرع واغسلْ يديك يا سيد. أما أنتما الاثنان فاذهبا إلى المنزل، فوالدتاكما تبحثان عنكما.. هذه النار خامدة جدًا!».

كشفت هاغر قِدْرًا كان يغلي فوق الموقد طوال الصباح، وسكبت وعاء كبيرًا من اللوبياء ولحم الخنزير المملّح. كان هناك بعض خبز البسكويت المتبقي من الإفطار. وُضع صحنٌ من البصل الأخضر وإبريق من عصير الليمون على المنضدة البيضاء المغطاة بقماش مشمّع. انحنت الرؤوس بشكل تلقائيّ. قالت هاغر: «يا رب، اجعلنا من الشاكرين لهذا الطعام، بيسوع المسيح ربّنا، آمين» قبل أن تشرع المرأتان العجوزان والطفل في تناول الطعام.

«هذا ابن إلفيرا، أليس كذلك؟ ذلك الصبي ذو الشعر الأشقر الذي كان يلعب مع ساندي». كان فم الأخت وايتساید مليئًا بالبصل واللوبياء وهي تطرح السؤال.

ردّت هاغر وهي ترمق ضيفتها بنظرة عبر الطاولة: «إنه طفلها! لكنه ليس ابن إيدي!»، ثم أخفضت صوتها، وظلّت تتظاهر طوال الوقت بأن آذان ساندي أصغر من أن تسمعها. «يقولون إنها كانت حبلى به قبل أن تتزوج إيدي، وبالنظر إلى سواد بشرة إيدي فأنا أعرف وأنتِ تعرفين أنه ليس هناك شَعر أشقر في عائلته!».

همست الأخت العجوز مع تكشيرة علَت وجهها: «كنت أعلم. إنه أمر مضحك بالتأكيد. هو ابن رجل أبيض!».

أكّدت هاغر: «بالتأكيد إنه كذلك! طالما عرفت ذلك.. تناولي بعض اللحم يا وايتساید. ساعدي نفسك! ليس لدينا الكثير، بل هذه فحسب، لكن تفضّلي.. نعم يا سيدتي، باستر ابن رجل أبيض.. كُفّ عَن مَدّ يدك

من أجل الخبز يا ساندي. أين لباقتك يا سيدي؟ كما قلتُ يحاول الأبناء أحيانًا.. أعطني البصل».

«صحيح، الأبناء يُتعبونك، لكنني أشعر بوحدة شديدة بعد رحيل جميع أولادي».

لاكَت الأخت وايتسايد الطعامَ بحيوية مستخدمةً أسنانها القليلة الجيدة، وشربت جرعة طويلة من العصير وتلمّظت. «أولادي وأحفادي في شيكاغو وسانت لويس وويتشيا، ولم يبقَ لديّ ابن أو ابنة في المنزل.. ناوليني الخبز، شكرًا.. أحيانًا أشعر بالأسى والأسف على حالي، فقد أصبحتُ أرملة مسكينة. لديّ حديقتي ودجاجاتي، لكن كلّ أولادي كبروا وتزوّجوا.. أين ابنتك هاربيت الآن يا هاغر؟ هل تزوّجت أيضًا؟ لم أرها مؤخرًا».

سحبت هاغر جلد اللحم بأسنانها؛ ثم أجابتها: «لا، إنها صغيرة جدًا على الزواج! إنها في السادسة عشر من عمرها فحسب، لكنها ذهبت لتعمل كنادلة في نادي مقاطعة سانتون الريفي. ذهبت إلى الريف منذ ثلاثة أسابيع بعدما أُغلقت المدارس، لكنها تأتي إلى المدينة كل يوم خميس، النادي على بعد ستة أميال تقريبًا من هنا، لذا تنام العاملات هناك ليلًا. سعيدة كونها هناك يا أخت. هاربيت فتاة طيبة بالطبع، لكنها تحبّ أن تكون لعوبًا، ترغب في أن تتسكع في الشوارع بحثًا عن الحفلات والرّقص، وعلى الرغم من أنني أكره قول هذا الكلام، إلّا أنه لم يعد في استطاعتي فعل الكثير معها».

«لكنها مغنّية يا هاغر! كما سمعتُ أنها فتاة ذكية أيضًا. يقولون إنها تجاري البِيض في دراستها، والمدرسة الثانوية التي ترتادها ليست هيّنة.. ترك كل أبنائي المدرسة قبل أن يصلوا إلى التعليم الثانوي، كما أنهم فضّلوا عليها الذهاب إلى كانساس سيتي سعيًا وراء الحياة المرِحة».

«الربّ أعلَمُ بمدى صعوبة ذلك، تَرْكُ الأولادِ الملوّنين في المدرسة مهمّة شاقّة أيتها الأخت وايتساید. الزنوج لا يساعدونهم، والبِيض لا يكترثون إن تابعوا دراستهم أو لا. وعندما يصلون إلى سنّ السادسة عشرة والسابعة عشرة، فإنهم يريدون هذا، ويريدون ذاك، وتكثر احتياجاتهم، وحينما لا تستطيعين أن تُحضري لهم ما يرغبون؛ يتركون المدرسة ليعملوا.. تقول هاريت إنها لن تتابع دراستها الخريف القادم. يؤلمني ذلك بحق، لكنها أوضحت أنها لن تعود إلى المدرسة. قالت إن الدراسة والكتب لن يفيدوها في شيء عندما تعمل في مطابخ البِيض بعد التخرج».

«حقًا يا هاغر؟ ذلك مؤسف جدًا! سأتحدث إلى تلك الفتاة. سأجعل القسّ بيري يتحدث إليها أيضًا.. لقد كافحْتِ لتربية بناتك، وعلينا نحن المسيحيّين في الكنيسة مساعدتكِ جميعًا! سألتقي القسّ بيري لأرى إن كان في استطاعته إقناعها أن تبقى في المدرسة». مدّت السيدة العجوز يدها إلى البصل. «لكن لم تُرَبِّ أيّ أبناء، أليس كذلك يا هاغر؟».

«لا.. توفّي ابنايَ قبل أن يبلغا العاشرة من العمر. لكن هؤلاء البنات الثلاث، تيمبي، وأنجي، وهاريت، هنّ كل ما لديّ. وَلَدَيّ هذا الحفيد، ساندي.. أبعِدْ يديك عن اللحم يا سيّد! تناولتَ كفايتك!».

«يا ربي، أنت محظوظة! ربّيتُ سبعة أحفاد إلى جانب أولادي الثمانية. وليسوا شاكرين لي. لا يا سيدتي! مضوا في طريقهم وفعلوا ما يستمتعون به وتزوّجوا ولم يشكروني قَطّ! بعضهم لا يكتب إليّ حتى.. ينتظرون موتي على ما أعتقد، حتى يتشاجروا على منزلي الصغير وحديقتي». دفعت الزائرة العجوز كرسيّها إلى الخلف. «هاه! كان العشاء لذيذًا جدًا!.. ينتظرون موتي».

«آه آه! .. هذا حالهم أيتها الأخت وايتسايد. لا يكترث الأولاد، لكنني أعتقد أننا نحن الكبار في السنّ لا نستطيع الاعتراض كثيرًا، عليهم أن يمضوا في طريقهم، إنها سنّة الحياة. الآن ابنتي تيمبي متزوجة وتعيش حياة رائعة، لديها منزل جميل، وزوجها موظّف بريد في الخدمة المدنية ويجني مبلغًا وفيرًا. أصبح محيطهما الاجتماعي لا يضمّ سوى علية القوم من الملوّنين، مثل الطبيب ميتشل والسيدة آدا والز والسيدة سي. فرانسيس سميث. لا تأتي تيمبي لزيارتي كثيرًا بالطبع لأنني ما زلتُ أجني رزقي من عمل يديّ في حوض الغسيل. إلّا أنّ أنجي لجأت إلى منزلهما خلال العاصفة ليلة البارحة وأخبرتني أنّ تيمبي اشترت بيانو جديد مؤخرًا، وأن منزلها يبدو جميلًا.. وأنا سعيدة فعلًا من أجل تلك الصغيرة».

«بالطبع، بالطبع أعرف أن هذه مشاعرك أيتها الأخت ويليامز، فأنت أمّ طيّبة وأعلم أنك سعيدة. لكنني سمعتُ من القسّ بيري أن تيمبي انسحبت من كنيستنا وانضمّت إلى الكنيسة الأسقفية!».

«هذا صحيح! لقد فعلت ذلك، آخر مرة رأيتُ فيها تيمبي أخبرتني أنها لم تعد تطيق الكنيسة المعمدانية، قالت إن الكثير من الزنوج الوضيعين ينتمون إليها، لذا قرّرت الانضمام إلى كنيسة الأب هيل، حيث يذهب علية القوم، فقلت لها إنني لستُ معجبة بالانضمام إلى كنيسة بعيدة عن الله ولا يهمّها سوى انضمام أرقى السود إليها، ومليئة بالمظاهر والأزياء التي لا يستطيع المسيحيّ الصالح تحمّل تكاليفها، لكنها لم تسمع نصيحتي وانضمّت. إنها كنيسة على الطراز الحديث، هذا هو السبب، لذا لم أقل المزيد. أصبحت تيمبي في الخامسة والثلاثين من عمرها الآن، إنها أكبر بناتي، وأعتقد أنها تعرف ماتريد».

«نعم، أعتقد ذلك.. لكن لا توجد كنيسة مثل الكنيسة المعمدانية، الحمد لله! أليس كذلك يا أخت؟ إن لم تتعمّدي في تلك المياه وتغرقي

إلى نصفك فيها؛ فلن تجدي الخلاص. لا تعي تيمبي ذلك مثلنا، لا يا سيدتي، إنها لا تعي ذلك!».

لم يكن هناك حلوى أو فاكهة، وظلّت الأطباق المتّسخة مهملة على الطاولة لوقت طويل، فحديث العجوزين عن أولادهما أنساهما أمرَ الأطباق. زحفَ الذباب الصغير فوق خبز البسكويت واندفع فوق وعاء البازلاء، فيما كانت نار الحطب تخبو في الموقد، وخرج ساندي ليلعب في ضوء الشمس.

قالت الأخت وايتسايد: «ابنتي ماغي تزوجت رجلًا يسعى إلى أن يصبح محاميًا كبيرًا في سانت لويس. إنه يعمل في مجال السياسة هناك، كما حصلت ماغي على وظيفة جيدة أيضًا، يسمونها الخدمات الاجتماعية، لكنها لا تتواصل معي، ولا ترسل ملّيمًا. إلّا أن أبنائي يهتمون لأمري، أحيانًا في فترة عيد الميلاد هناك لوسيوس الذي يعمل في السّكك الحديدية، إضافة إلى أندرو الذي يركب الخيول، وجون الذي يسكن في أوماها، يرسلون إليّ بعض النقود بين الحين والآخر، جميعهم يكترثون لأمري، إلا تشارلي الذي لا يهتم بوالدته على الإطلاق، هو لا يرسل إليّ شيئًا».

قالت هاغر: «حسنًا، أنتِ محظوظة بالتأكيد؛ فلا نقود تدخل إلى هذا المنزل، لا في عيد الميلاد ولا في أيّ وقت آخر، إلا ما نجنيه أنا وأنجي. جيمبوي عديم النفع، وما تجنيه هاريت تنفقه على الملابس والحفلات ومساحيق التجميل. بالطبع آخذ منها بعض النقود كل أسبوع، لكنني أردّها لها لتشتري مستلزمات المدرسة. ولم آخذ منها ملّيمًا خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة عندما كانت تعمل في النادي. قالت إنها تدّخر أموالها بنفسها. تجاوزت السادسة عشرة من عمرها الآن، لذا أدعها تفعل ذلك.. يا لها من مسكينة! إنها بحاجة إلى أن تبدو جميلة». رقّ صوت هاغر وبدت ملامح وجهها الداكن العجوز شبه خجِلة ولطيفة وباسمة.

«كما تعلمين، اشتريت لها ساعة ذهبية الشهر الماضي كمفاجأة في عيد ميلادها، ساعة من النوع الذي يُعلّق بدبوس صغير على خصرك. الرب أعلم، لم أكن أستطيع تحمّل تكلفتها، دفعت ثمنها مما جمعتُه من نقود عملي لثلاثة أسابيع في الغسيل، لكنني كنتُ أعلم أنها ترغب في ساعة. وهذه الغرفة الأمامية؛ أخرجتُ سريري منها العام الماضي، واشتريت تلك السجّادة الجديدة من متجر لبيع الأشياء المستعملة وتلك الستائر المخرّمة لأوفّر لها مكانًا جميلًا لتقضي فيه وقتًا ممتعًا مع أصدقائها، لكن ذهبت تلك الفتاة رفقة مجموعة من الشباب الصغار الجامحين يا أخت وايتسايد! هذا يقلقني! فالشبّان يشتمون، والفتيات يثملن، وبعضهم يعيش في قاع المدينة. حاولت إبعادها عن تلك الثلّة، لكن يبدو أنني لم أستطع فعل ذلك. لهذا أنا سعيدة أنها تقضي الصيف في الريف وتأتي إلى هنا مرة واحدة فقط أسبوعيًا، وتظل في المنزل معي. قالت لي إن المكان أبعد بكثير من أن تأتي ليلًا إلى المدينة، لذا فهي تأخذ قسطًا من الراحة الآن، وتذهب إلى الفراش في وقت مبكر، وهواء الريف المنعش حولها. آمل أن تكفّ عن التسكّع عندما تعود إلى هنا في الخريف، إنها فتاة طيبة، لا تكذب عليّ بشأن الأماكن التي تذهب إليها أو شيء من هذا القبيل، لكنها تتّسم بالجموح، هذا كل ما في الأمر، إنها جامحة».

«هل هي مسيحية يا أخت ويليامز؟».

«لا، ليست كذلك. يؤسفني أن أقول ذلك عن إحدى بناتي، لكنها ليست كذلك. جلست على مقعد النادبين[1] مرة تلو الأخرى، وحضرت صلوات صباحات الأحد وأمسيات الصلاة الجماعية، لكنها لم تهتدِ أبدًا. أصلّي من أجلها».

---

(1) The Mourner's Bench: مقعد يوجد في مقدمة الكنائس المعمدانية يجلس عليه من يعتبرون أنفسهم خطاة منتظرين أن تحلّ الروح القدس فيهم وتهديهم إلى التوبة.

«حسنًا، عندما تسلّم نفسها إلى يسوع سترى النور! هكذا حالها يا أخت ويليامز، فهي لم تشعر به بعد، اجعليها تذهب إلى الكنيسة عندما تعود، أعتقد أنك سمعت عن اجتماع الإحياء[1] الضخم المقرّر انطلاقه هذا العام، أليس كذلك؟».

«لا، لم أسمع عنه بعد».

«ستُنصب خيمة كبيرة للملوّنين حيث سيبشّر فأس الرب، القس براسويل! نعم يا سيدتي! سيبدأ في الثامن عشر من أغسطس في غابات وودز بالقرب من طرف المدينة».

صرخت هاغر: «إنها أنباء مبشّرة. هناك الكثير من الخُطاة الذين يحتاجون إلى إنقاذ، سآخذ ساندي وأجعله يجد دربه إلى الرب، وإن عاد ذلك الوضيع جيمبوي سأجعله يذهب أيضًا ويهتدي إلى يسوع. أنا وابنتي أنجي مؤمنتان!.. ساندي، أحضرْ لنا بعض الماء للشّرب». طرقت الخالة هاغر بمفاصل أصابعها على النافذة لينتبه إليها الصبي الذي يلعب في الخارج! «وكُفَّ عن التعارك مع تلك الفتاة».

قام ساندي منتصرًا عن جسد ويلي ماي الأسود الصغير الملقى أرضًا، فأخذت تصرخ مستلقية فوق الطريق المرصوف بالحجارة بالقرب من البوابة الخلفية. صرخ ساندي وهو يركض باتجاه المضخة: «هي التي بدأت». فتحت الفتاة فمها لتردّ، لكن جاءت في تلك اللحظة عربة متهالكة تقعقع عبر الزقاق تجرّها بغلة بيضاء ويقودها شيخ داكن البشرة ورماديّ الرأس.

---

(1) Revival meeting: هو اجتماع يتضمن مجموعة خدمات الكنيسة، الهدف منها تجديد الحماسة الدينية لدى جماعة من المسيحيين أو كنيسة أو مجتمع ما، إضافة إلى ضم معتنقين جدد للدين ودعوة الخطاة إلى التوبة.

قال الشيخ الأسود: «مرحبًا يا هاغر!»، وهو يشد اللجام على البغلة التي بدأت على الفور بأكل أطراف الذرة من فوق السياج الخلفي. «هل تعتنين بنفسك جيدًا؟».

صرخت هاغر: «أجل، إلى حد ما»، فيما خرجَت هي والأخت وايتساید معًا من المطبخ واتجهتا إلى سائق العربة، «كيف حالك أيها الأخ لوغان؟».

قال الشيخ العاشق: «حسنًا، الأخت وايتساید هنا أيضًا!»، وهو يجلس باستقامة على مقعد عربته وابتسامته العريضة تبرز صفًا من الأسنان عاجية اللون. «أنا في أحسن حال بالنسبة إلى أرمل مسكين لا يوجد من يحضّر له الخبز. أنا في أحسن حال. هيه! هيه! ألا يشعر أحدٌ منكم بالأسف عليّ؟ كيف أثّرت العاصفة عليكِ يا هاغر؟ هل اقتلعَت شرفتك من مكانها؟ هذا سيئ جدًا! وقد كانت أضرارها على بعض البِيض أكبر بكثير، لديّ عمل يكفيني للأسابيع القادمة، فعليّ تنظيف الكثير من الحدائق وإزالة المخلّفات، ولديّ هذه البغلة، كيف حال بناتك أيتها الأخت ويليامز؟».

«إنهنّ بخير، شكرًا لك. ما زالت أنجي تعمل لدى السيدة رايس، وهارييت في نادي ريفيّ».

قال الأخ لوغان: «حقًا؟ رأيتها في المدينة ليلة ما قبل البارحة في شارع بيرل حوالي العاشرة مساءً».

«لا، لم ترَ هارييت ليلةَ ما قبل البارحة» شكّكت هاغر في ما قاله الشيخ بشدّة. «لا تأتي هارييت إلى المدينة سوى بعد ظهر يوم الخميس، أي غدًا».

قال الرجل وقد شعر بالألم من التشكيك فيما قاله: «لستُ أعمى البصر أيتها الأخت. رأيت هارييت ويليامز في شارع بيرل مع مودل سموثرز وشابين بحدود الساعة العاشرة ليلة ما قبل البارحة! وكانوا في طريقهم

إلى ويترز بول، لأنني سألت مودل إلى أين هم ذاهبون، وهي أخبرتني ذلك. ثم قلتُ لهاربيت: (أتعلم والدتك أنك خارج المنزل في هذا الوقت المتأخر؟) فضحكت وأجابتني: (أوه، لا بأس في هذا!).. لذا لا تقولي إنني لم أرَ هاربيت يا هاغر».

صرخت الخالة هاغر، وقد فتحت فمها تمامًا: «ليكن الربّ في عوننا! رأيتَ ابنتي في المدينة ولم تعد إلى المنزل! أظنها ظلّت طوال الليل في منزل مودل، حذّرتها من التسكّع مع تلك الفتاة التي تنتمي إلى قاع المدينة. هي التي جعلتها تكذب عليّ، فتقول لي إنها لا تأتي إلى المدينة ليلًا. حيث تسكن مودل لا يشبه المنزل في شيء، فالرجال يذهبون إلى هناك، ويبيعون الكحول، ويلعبون القمار ويتشاجرون.. أأنت متأكّد أيها الأخ لوغان أنّ ابنتي كانت في المدينة ولم تعد إلى المنزل؟».

«أنا متأكد!» قال لوغان، مفرقعًا سوطه الطويل على ظهر البغلة البيضاء. "غيتياب[1]! أيتها العفريتة العجوز!» وانطلق بالعربة.

قالت الأخت وايتسايد لهاغر: «آخ!»، فيما سارت العجوزان اللتان أرهقهما العمل باتجاه المنزل. «هذا ما يفعلونه بك!» جمعت البائعة أغراضها. «من الأفضل أن أمضي، لأنه ما زال لديّ هذه الخضراوات لأبيعها، ولن تصمد حتى المساء.. هذا ما يفعله الأولاد بك أيتها الأخت ويليامز! أعرف ذلك! هذا ما يفعلونه بك!».

(1) تعبير صوتي غير لفظي، حيث كان العجوز لوغان يحفز البغلة على المضيّ قدماً.

رسالة جيمبوي

كانساس سيتي، ميزوري

13 يونيو 1912

العزيزة أنجليكا

لم أكتب إليك منذ رحلت عن المنزل، لكنك تعرفين كيف هو الحال، لم يكن العمل جيدًا هنا، أنا بصحبة عمّال مسؤولين عن قسم من السكّة الحديدية، وهم من الملوّنين واليونانيين، وقد آذيت ظهري بطريقة أو بأخرى وأنا أمدّ عوارض السكك الحديدية ليونيون باسيفيك، لذا سأصل إلى المنزل يوم السبت، سأبذل قصارى جهدي لأحاول إنهاء أموري هنا. أرسل محبتي إلى زوجتي الحبيبة، وقبّلي ابني ساندي نيابة عنّي. أتوق لرؤيتكما..

بمودة كالعادة ودائمًا إلى يوم الحساب

جيمبوي روجرز

عندما سمعت هاغر الرسالة تمتمت: «آذى ظهره إذًا؟ آها! ثم يكتب إلى يوم الحساب! هناك خطب دائمًا مع ذلك الزنجي! سيعود إلى هنا الآن، ليستلقي من دون أن يفعل شيئًا لبقية الصيف، محوّلًا منزلي إلى مسرح بغنائه هو وهاريت لمقطوعات الراغتايم[1]، ويزعجنا بغيتاره ذاك كل ليلة! من العجيب أنني لم أجنّ بسببه هو وهاريت. إلّا أنّ هاريت تعمل لجَني رِزقها. ليست عاطلة عن العمل..آه! .. أنجي، كنتِ حمقاء بالتأكيد عندما تزوّجتِ ذلك الصّبي، وما زلتِ حمقاء!.. سأذهب إلى منزل الأخت جونسون المجاور!».

خرجت الخالة هاغر من الخلف وعبرت الفناء، حيث جلس توم وسارة جونسون، جَدّا ويلي ماي، في الجوار، على مقعد مقابل لجدار الكوخ الجانبي غير المطليّ، بينما كانا يدخنان بهدوء عند الغسق باستخدام غليون مصنوع من كوز ذرة.

أما ساندي فنظر إلى الجزء الخلفي من الرسالة التي كانت تحملها والدته، وهو يقف على طاولة المطبخ ملتهمًا بسرعة قطعة كبيرة من فطيرة الليمون الطازجة التي أحضرتها والدته من منزل السيدة جي. جي. رايس. أمرته أنجي بأن يترك قطعتين من لحم الضأن المقليّ على البارد حتى يوم الغد، ولولا ذلك لتناولهما ساندي أيضًا.

قال الصبي وقد تلوّنت شفتاه بالأبيض: «أتمنى لو أحضرتِ جزءًا أكبر من الفطيرة»، لكن أنجي التي كانت قد وصلت لتوّها من العمل؛ لم تُعِر انتباهًا إلى ملاحظات ابنها المادحة لمهاراتها في الطبخ.

---

(1) نوع موسيقي سابق للجاز نشأ داخل المجتمعات الأمريكية من أصول أفريقية في أواخر القرن التاسع عشر، وجمع بين عناصر من الموسيقى الأوروبية البيضاء والموسيقى الأمريكية السوداء، وقد كان النمط السائد في المشهد الموسيقي الأمريكي منذ حوالي 1899 وحتى 1917. (المترجم).

قالت بدلًا من ذلك: «أمّي لا تحب جيمبوي، أليس كذلك؟»، ثم جلست والرسالة المفتوحة ما تزال في يدها، ورقة بيضاء واحدة كُتب فيها بالقلم الرصاص أحرف كبيرة غريبة. وضعتها على الطاولة، وأراحت وجهها الداكن على يديها، وشرعت في قراءتها مرة أخرى.

كانت تعرف زوجها جيدًا بالطبع، وهو لم يكتب إليها من قبل. كان هذا كل شيء في الوقت الحالي. يعمل طوال النهار تحت أشعة الشمس الحارة مع ثلّة من اليونانيين، كان رجلًا منهكًا تمامًا في الليل، كما كان يعيش في مقطورة، حيث لا يوجد مكان ليكتب رسالة أساسًا. كان طفلًا كبيرًا، هكذا كان جيمبوي، خُلق ليلعب. لكنه حين يعمل؛ كان يحاول التفوّق على الجميع. استطاعت أنجي تخيّل شكله، طويل وقوي البنية، ساقاه متباعدتان، عضلاته تنتفخ فيما يرفع المطرقة الكبيرة فوق رأسه، ليطرق الفولاذ. لا عجب في أنه آذى ظهره، وهو يحاول مدّ عوارض في اليوم أكثر من أي شخص آخر يعمل في السكك الحديدية. هكذا كانت طبيعة جيمبوي. لكنها كانت مسرورة نوعًا ما بأذيته، بما أن ذلك سيعيده إلى المنزل.

«ألستَ سعيدًا لأنه قادم يا ساندي؟».

ردّ الطفل وهو يبتلع آخر قضمة من الفطيرة: «بالطبع، آمل أن يحضر لي البندقية التي وعدني أن يشتريها لي في عيد الفصح الماضي».

مسح الصبي يديه الدبقتين بمنشفة الصحون، واندفع إلى الفناء الخلفي، وهو ينادي: «ويلي ماي! ويلي ماي!».

ردّت عليه جدّته: «ابقَ مكانك هناك! خلدت ويلي ماي إلى السرير يا سيد، ونحن الكبار جالسون هنا ونرغب في بعض السَّكينة». عرف من نبرة صوت هاغر أنها لا تريد وجوده في فناء عائلة جونسون، لذا عاد إلى المنزل، ونظر إلى والدته ليجدها تقرأ رسالتها مجدّدًا، قبل أن يستلقي

على أرضية المطبخ، وهو يسمعها تقرأ: «بمودّة كالعادة ودائمًا إلى يوم الحساب، جيمبوي روجرز».

أحبّها بحق، كانت أنجي واثقة من ذلك، ولم يكن كثير الترحال بسبب امرأة أخرى. تزوّجا منذ ثمانية أعوام. لا، بل تسعة، لأن ساندي كان في التاسعة من عمره، وكان على وشك أن يُولد عندما عقدا الزفاف، وقد غادر جيمبوي بعد أسبوع من زواجهما ليذهب إلى أوماها، حيث عمل طوال الشتاء. عندما عاد كان ساندي قد وُلد وبدأ يمتصّ حلمة أمه. كان ذلك في فصل الربيع حيث اشتروا بيانو للمنزل، إلا أن الرجل الذي باعه إياه بالتقسيط جاء واستعاده مجددًا. ظلّ زوجها طوال الصيف في المنزل وعملَ قليلًا، لكنه أمضى معظم وقته في صيد السمك، لعب البلياردو، تعليم هاريت الرقص النقري، والتشاجر مع الخالة هاغر. قبل أن يذهب في الشتاء إلى جفرسون سيتي ويحصل على وظيفة في الكابيتول.

كان جيمبوي دائم الترحال، إلّا أن الخالة هاغر كانت مخطئة بشأن عدم عمله مطلقًا. كان كل ما في الأمر أنه لا يستطيع البقاء في مكان واحد دائمًا. قال إنه وُلِدَ منطلقًا، وتابع انطلاقته منذ ذلك الحين. إضافة إلى ذلك لم تكن سانتون لتوفّر أي فرصة لشاب ملوّن سوى حفر قنوات الصرف الصحي لقاء بضعة سنتات في الساعة، أو ربما كحَمّال في متجر مقابل سبعة دولارات في الأسبوع. لم يتمكن الرجال الملوّنون من العمل في وظائف عديدة في سانتون، بل كان الغرباء يأتون إليها ليشغلوا كل الوظائف البسيطة المتاحة. فلا عجب في أنه لم يبقَ في المدينة. ألمْ يظلّ والد أنجي في سانتون لأربعين عامًا؟ وألمْ يُتَوَفَّ والخالة هاغر مستمرة في غسيل الملابس لتساعد في استمرار العائلة؟

لم يكن هناك عمل بأجر جيد للرجال الزنوج، لذا لم تلمْ أنجي جيمبوي لرحيله المستمر بحثًا عن شيء أفضل. بل كانت لتذهب معه لولا والدتها. إلّا أنه -في حال ذهبت- لن يبقى أحد مع هاغر سوى هاريت، وقد كانت هاريت أصغر بناتها الثلاث وأكثرهنّ جموحًا، ومنذ وفاة الوالد في عائلة ويليامز قبل عشر سنوات؛ كانت هاغر تغسل الملابس كل يوم، تزوّجت تيمبي وبدأت أنجي نفسها تعمل، فلم يكن هناك مَن يعتني جيدًا بالأخت الصغرى وهي تكبر. لم تتلقَّ هاريت أيّ تربية، على الرغم من أنها اتّسمت بالذكاء ودخلت المدرسة الثانوية، فكانت طفلة بحاجة إلى رعاية، لكنها كانت تجيد الغناء! يا ربي! والرقص أيضًا! كان ذلك سببًا آخر لعدم إعجاب الخالة هاغر بجيمبوي. فعازف الشيطان القادم من الجحيم -كما سمّته- علّم هاريت الرقص النَقْري! لكن عندما أمسك غيتاره ذا الأنغام الرقيقة وعزف الترانيم المسيحية الروحية القديمة على أوتاره العذبة؛ نسيت هاغر معاداتها له، فغنّت وتمايلت مع البقية. وعندما يحضر جيمبوي إلى المنزل، لم يكن أحد ليشعر بالوحدة أو الكآبة.

قالت أنجي لنفسها: «سأكون في قمة السعادة حينما يأتي! لكن إن ذهب مرة أخرى سأشعر وكأنني أحتضر في هذه المدينة القديمة الميتة. لم أخرج منها قَطّ على أي حال». تحدّثت بصوتٍ عالٍ إلى مصباح الزيت الخافت الذي كانت يتطاير منه الدخان فوق الطاولة فيما الصبي نائم على الأرضية: «سأذهب معه في المرة القادمة، سأفعل ذلك بالتأكيد!». ثم عندما أدركت أن جيمبوي لم يخبرها قَطّ عن موعد مغادرته في كلّ مرّة، أو ما هي وجهته؛ عدلت عن كلامها. «سألحق به بمجرد أن يكتب إليّ». لأنه غالبًا ما كان يكتب إليها بعد أسبوعين أو ثلاثة من رحيله. «سألحق به بالطبع إنْ رحل مجددًا، سأترك ساندي هنا وأرسل النقود إلى أمي. حتى تستطيع هاريت الاستقرار والاعتناء بأمّها والكَفّ عن التسكع في الشوارع كثيرًا.. نعم، هذا ما سأفعله في المرة القادمة!».

كان الرحيل هذا فكرةً جديدة، وبدأت الشابّة داكنة البشرة ذات البنيان القوي التي جلست إلى الطاولة تحلم بالمدن التي لم ترها من قبل والتي سيصحبها جيمبوي إليها. حسنًا، لقد ذهب شمالًا وصولًا إلى كندا وجنوبًا وصولًا إلى نيو أورلينز، وكان الذهاب إلى شيكاغو أو دنفر في أيّ وقت أمرًا لا يُذكر بالنسبة إليه! كان رجلًا دائم السفر، أما هي، أنجي، كانت وديعة جدًا وهادئة، لذلك السبب لم تخرج من ديارها. لم تذهب إلى أيّ مكان قَطّ، ولم تردّ قَطّ على من يوبّخها أو يتحدّث عنها، ولم تجبْ بوقاحة في وجه البيض عند انفعالهم حتى. وقالت كل نساء المدينة الملوّنات إن العمل لدى السيدة جي. جي. رايس لم يكن بالأمر الهيّن، إلّا أنها تعمل لديها منذ خمس سنوات، متقبّلةً كل شيء من دون تذمّر! رحل معظم شباب سانتون من فتياتٍ وشبّان، حالما استطاعوا متّجهين إلى العالم الخارجيّ، ولكنها كانت هنا، أنجيليكا ويليامز، في الثامنة والعشرين من عمرها، ولم تذهب إلى كانساس سيتي حتى!

قالت لنفسها: «أريد أن أسافر، أريد الذهاب إلى أماكن عديدة أيضًا».

لكن كان ذلك ما جعل جيمبوي يتزوجها، لأنها لم تكن رحّالة. قال إنه اكتفى من ذلك النوع من النساء قبل أن يصل إلى سانتون. كانت سانت لويس مليئة بهنّ، وشيكاغو تعجّ بهن. كانت أنجي أول فتاة لطيفة قابلَها تعيش في ديارها، لذا تزوّجها.. لم يكن هناك سوى قلة من النساء ذوات البشرة الداكنة اللواتي لديهنّ زوجٌ شابّ، فاتح البشرة، قويّ، وسيم، زوج بمعنى الكلمة، مثل جيمبوي، وطفل أسمر صغير مثل ساندي.

فكّرت أنجي: «أنا محظوظة للغاية، حتى لو لم يكن هنا». وانهمرت على وجهها الأسمر المدوّر دمعتا كبرياء أحمق من عينيها اللامعتين. نزلتا على الرسالة، بخطوطها الزرقاء والأحرف التي كُتبت بقلم رصاص، فبدأت بعض الكلمات تتحول إلى بقع أرجوانية لأن قلم الرصاص كان من النوع

الذي لا يُمحى خطّه. سرعان ما بحثت عن منديل لتمسح دموعها، عندما جعلها صوت ما تجفل.

«يا أنجي!» صرخت الخالة هاغر عبر الباب. «اذهبي إلى السرير يا صغيرتي! هيا! تجلسين حتى هذا الوقت المتأخر، تاركةً المصباح مشتعلًا ليجذب كل الحشرات الليلية والزاحفة إلى المنزل!». خرجت المرأة العجوز من الظلمة «يا ربي! كنت سأتعثر بهذا الفتى النائم في منتصف الأرضية! ولم تخلعي قبّعتك منذ عدتِ إلى المنزل! هل جننتِ؟ تجلسين هنا في الليل مرتديةً قبّعتك، وتاركةً هذا الطفل يمرض لنومه على الأرضية الباردة بعد موعد نومه بوقت طويل!».

طوت أنجي رسالتها بخجل ونهضت. كان صحيحًا أنها ما تزال ترتدي قبعتها والسترة اللتين ترتديهما للذهاب إلى منزل السيدة رايس. وكان صحيحًا أيضًا أن الغرفة بأكملها امتلأت بالفَراشات ناعمة الأجنحة التي رفرفرت قبالة زجاج المصباح الساخن، وعلى أرضية المطبخ كان هناك فتى أشبه بنسخة صغيرة من جيمبوي، سمراء اللون، ولطيفة إلى أقصى حد، ممدّدًا على الأرض في طريق الجدّة، غارقًا في النوم!.

قالت أنجي برقّة وهي تنحني لتحمله: «إنه طفلي! إنه طفلي، طفلي أنا وجيمبوي!».

عصر يوم خميس

استيقظت هاغر عند الشروق. كانت تغسل كل خميس ملابس عائلة راينهارت، تكويها في الجمعة، وترسلها إليهم يوم السبت جميلة وناصعة البياض، لتتقاضى خمسة وسبعين سنتًا. كانت هاغر عادةً ما تغسل ستّ مرات أسبوعيًا خلال الشتاء، لكن رحل كل زبائنها خلال الصيف، ولم يبقَ سوى عائلة راينهارت، الذين لم يتمكنوا من السفر بسبب جَدّة عاجزة لا تستطيع الذهاب معهم، فظلّوا في سانتون.

بعد ظهر الأربعاء نادوا ساندي -الذي كان بصحبة صبيّ يُدعى جيمي لاين- إلى بابهم الخلفي ليعطوه ملابسهم المتسخة. أمسك كل طفل بمقبض حاملَين بينهما سلّة من الخيزران ليمشيا بها عبر سبعة أحياء إلى مطبخ الخالة هاغر. يتقاضى جيمي لاين عن كل رحلة كهذه خمسة سنتات، على الرغم من أن الأخت لاين أخبرت هاغر مرارًا أن ليس عليها أن تعطيه شيئًا، فقد أرادت أن يتعلّم واجباته المسيحية ويساعد كبار السن. إلّا أن جيمي لم يَمِلْ إلى أن يكون مسيحيًا. بل على العكس، كان صبيًا شقيًا للغاية في سنّ الثالثة عشر، وكثيرًا ما كان يدفع ساندي إلى الضّلال. فكانا يركضان أحيانًا وهما يحملان السلة من دون سبب على الإطلاق، ثم يتعثران فتتناثر الملابس على الرصيف، فتُعرض فساتين السيدة راينهارت الصيفية وسراويلها الداخلية بسخاء على الجمهور، وأيضًا ملابس السيد راينهارت الداخلية الكبيرة جدًا. وفي أحيان أخرى، عندما تسنح الفرصة، كان الصّبيّان يتوقّفان لتبادل النعوت غير المهذبة مع أطفال بيض صغار يدعونهما بالـ«زنوج». أو -مرة أخرى- قد يهملان عملهما ليلعبا الدّحل، أو يقضيا ربع ساعة يلعبان فيها البيسبول في قطعة

أرض خالية؛ أو يضايقا أيّ فتاة ملوّنة عابرة تمشي بحذر وشعرها مصفّف في ضفائر مشدودة ومزيّنة، بينما تُترك سلة الملابس مهملة في الشارع بلا رقيب. لكن عندما تصل الملابس بسلام إلى مطبخ الخالة هاغر، كان جيمي يشتري الحلوى «بالنيكل» الذي حصل عليه ويتشاركها مع ساندي قبل أن يعود إلى المنزل.

بعد نقعها طوال الليل، تُفرك الملابس برغوة الصابون في الصباح؛ وكانت القطع الملوّنة تُنشر على الحبل في فترة ما بعد الظهر بينما تُغلى القطع البيضاء بشدّة في دست قصديريّ كبير فوق موقد المطبخ.

قالت هاغر لحفيدها الذي جلس على الدرج يأكل شطيرة من الخبز وزبدة التفاح: «لديهم الكثير من الملابس المتسخة هذا الأسبوع، تأخرت كثيرًا في نشر الملابس لتجفّ، ولم أتوقف عن العمل لأذهب وأطمئن على المرضى، وأنا أفعل كل شيء هنا بنفسي! يبدو أن تلك السيدة العجوز راينهارت تغيّر كل قطعة ترتديها من فستانها إلى قميصها الداخلي ثلاث مرات يوميًا في هذا الطقس الدافئ، وترسلها إليّ لأغسلها!» سمعا الباب الشبكي في مقدمة المنزل ينفتح ويُغلق بعنف «من الجيد أنهم يستعينون بي لأغسلها لهم!.. انظر من عند الباب يا ساندي».

كانت هاريت، وقد عادت إلى المنزل من النادي الريفي بعد الظهر، بدت رائعة وهيفاء وجميلة بزيها الأسود ذي الياقة البيضاء، ووجهها الأسمر الناعم ورقبتها التي زينتها بالبودرة تلمع كاللؤلؤ، وشعرها المجعّد يلمع بمَرهم عطريّ. فاحت منها رائحة جذّابة وفوّاحة عندما قفز عليها ساندي ككلب يحيّي صديقه المفضل. قبّلته هاريت وتركته متدليًا من ذراعها بينما عبرا غرفة النوم إلى المطبخ. كانت تحمل بيد واحدة حقيبة سفر صغيرة مصنوعة من الكرتون المقوى وقبّعة من القش.

«مرحبًا يا أمي».

حرّكت هاغر الملابس المغلية بعصاها المستديرة مُطلقةً رذاذًا كثيفًا، فيما تصاعد البخار مشكلًا سحبًا صابونية. ردّت والدتها بنبرة لا تشير إلى استقبالها ابنتها المذنبة بسرور: «كنت في انتظارك يا مدام! أريد معرفة الحقيقة. هل كنتِ في المدينة ليلة الاثنين أم لا؟».

أسندت هاريت حقيبتها إلى الجدار وأجابت بلا مبالاة: «يبدو أنك تعرفين الحقيقة. كيف عرفتِ ذلك؟.. خذ هذه يا ساندي واخرج إلى الفناء وتناولْها، فيها بذرة». أعطت ابن اختها ثمرة برقوق كانت قد أحضرتها في جيبها. «كنتُ في المدينة، لكن لم يتسنّ لي الوقت للعودة إلى المنزل. كان عليّ الذهاب إلى منزل مودل لأنها تخيط لي فستانًا».

«إلى بيت مودل! وإلى ويترز بول، إضافة إلى التسكّع في أنحاء شارع بيرل بعد الساعة العاشرة! لم أكن لأكترث لو أخبرتني بذلك مسبقًا، لكنك قلتِ إنك لن ترجعي إلى المدينة قبل عصر اليوم الخميس، وقد كنتُ أصدق أكاذيبك».

«ليست أكاذيبَ! لم أرجع إلى المدينة من قبل».

«من جاء بك إلى هنا ليلًا أساسًا، فلم يكن هناك قطارات تعمل؟».

«أوه، جئت مع الطبّاخ وبعض الفتيان يا أمي، هو من جاء بي! استأجروا سيارة لحضور حفلة. ما فائدة مجيئي إلى المنزل، إن كنتِ وأنجي تخلدان إلى النوم قبل حلول الظلام كالدجاجات؟».

«حسنًا يا سيدتي! أنجي عاقلة، تحافظ على صحتها وقوتها!».

ردّت هاريت بلا تأثر وهي تهزّ كتفيها: «من أجل ماذا؟ لتقضي بقية حياتها في مطبخ السيدة رايس؟».

«لماذا أحضرتِ حقيبتك إلى المنزل؟».

«سأستقيل من العمل يوم السبت. أخبرتهم ذلك بالفعل».

صاحت والدتها: «تستقيلين! لماذا؟ يا ربي، ما إن أتفادى مصيبة، حتى تواجهني أخرى!».

ردّت هاريت غاضبةً: «لماذا؟ هناك الكثير من علامات الاستفهام لنطرحها! كل ذلك العمل لقاء خمسة دولارات أسبوعيًا وبعض البقشيش الذي يمنحك إياه أولئك البخيلون. إضافة إلى إهانة الرجال البيض لك بطلبهم أن تنامي معهم. انظري إلى أظافر يدي، كلها انكسرت من تنظيف أرضية قاعة الطعام تلك». أبرزت يديها النحيلتين الداكنتين. «تخديم الطاولات وتنظيف الفضيات، إضافة إلى غسيل وكيّ شراشف المائدة، من ثم تنظيف الأرضية، إنها أمور جيدة كثيرة! ولا يوجد سوى ثلاث نادلات. ذلك النادل ينتمي إلى النوع المعتاد من البيض. لا يكترث بشأن الجهد الهائل الذي نبذله نحن الفتيات. حسنًا، لقد سئمت من نادي مقاطعة سانتون الريفي الجديد والفاخر، أخبرت الجميع بذلك!» هزّت كتفيها مرة أخرى.

«ماذا ستفعلين الآن؟».

«قالت لي مودل إنني أستطيع العمل معها».

«مودل؟.. أين؟» بدأت المرأة العجوز تعصر الملابس لتجفّ، ثم تكدّسها في حوض كبير.

«سأعمل كعاملة تنظيف في فندق بانكس مقابل أجر جيد للغاية».

توقفت هاغر مرة أخرى واستدارت بحزم نحو ابنتها. «لن تعملي في أيّ فندق. أتسمعينني! إنها غارقة في الخطيئة، هذا هو حال الفنادق، لن أدع أحدًا من أولادي يعمل في أحدها. لو كنتِ صبيًا لما سمحتُ لك بالذهاب، ناهيك عن أنك فتاة! لا يعمل في الفنادق سوى المومسات».

«مودل ليست مومسًا» ضاقت عينا هاريت.

«لا أعلم إن كانت كذلك أو لا، لكنني أريدك أن تكفّي عن التسكع معها. قلت لك هذا من قبل، ووالدتها ليست قويمة أيضًا، فقد ربّت أولادها في الخطيئة. انظري إلى حال سامي، في مدرسة إصلاحية قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره بسبب لعبه القمار. أما ابنتها الكبرى إيسي فقد ذهبت إلى كانساس سيتي مع ذلك الشيطان الخلاسيّ الذي لم تتزوجه. ومودل تتسكع في الشوارع ليلًا نهارًا، وأنت تحاولين مجاراتها!.. رحمتك يا رب!.. خذي، انشري هذه الملابس!».

أشارت والدتها إلى الحوض الموجود على الطاولة المليء بملابس داخلية بيضاء مبلّلة ومتشابكة. حملت هارييت الحوض بكلتا يديها. كان الحوض ثقيلًا، وارتجفت هارييت من الغضب وهي ترفعه إلى كتفيها.

«يمكنك أن تزجريني إن أردتِ يا أمي، لكن لا تتحدثي عن أصدقائي، لا أكترث كيفما كانوا! ستفعل مودل أي شيء من أجلي، وشقيقها طفل طيب، سواءً كان في مدرسة إصلاحية أو لا. لا يجب أن يضعوه هناك لمجرد أنه يلعب القمار. ما هذا؟ أنا أحبه وأحب السيدة سموثرز أيضًا، إنها لا توبخ الناس دومًا لأنهم يرغبون في قضاء وقت ممتع ومرح ويحاولون البحث عن السعادة».

تسابقت الدموع الحارة على خدّيها، لتخلّف وراءها خطوطًا رطبة في البودرة الوردية، وقد سمع ساندي -الذي كان يلعب الدحل مع باستر تحت شجرة التفاح- شهقاتها وهي تنفض الملابس وتعلّقها على الحبل في الفناء.

نادته الخالة هاغر بصوتٍ عالٍ من باب المطبخ: «ساندي، تعال إلى هنا وأحضر لي بعض الماء واقطع لي مزيدًا من الحطب». كان وجهها الأسمر مبلّلًا بالعرق، ويبدو مُجهدًا وقلقًا. «عليّ إخراج بقية هذه الملابس الليلة، هذه الفتاة هارييت تغضبني حتى الموت! ساعدني يا عزيزي ساندي».

تناولوا طعام العشاء في صمت، لأن محاولات هاغر في التحدث إلى ابنتها الشابة كانت عقيمة تمامًا. لكن حالما قالت المرأة العجوز: «ذلك الوضيع جيمبوي قادم إلى المنزل السبت»، أشرق وجه هاريت.

أجابت: «يا للروعة، أنا مسرورة بذلك»، قبل أن تقبض وجهها مجددًا. بدأ ساندي في ركل الطاولة بانزعاج.

«لأجل المسيح!» عبست الفتاة، وتوقف الطفل متألمًا من أن خالته المفضّلة صرخت في وجهه بضيق بسبب أمر تافه كهذا.

«الرب أعلم، أتمنى أن تحاولي أن تكوني مثل شقيقتيك أنجي وتيمبي أكثر»، بدأت هاغر حديثها وهي تغسل الأطباق، بينما وقفت هاريت بالقرب من الموقد والمنشفة في يدها منتظرةً الأطباق لتجفّفها. «ها أنا أمامك، امرأة عجوز، وأنتِ تنهكين روحي! بعد كل ما فعلته لأربّيك، أنت لا تنصتين إليّ عندما أتحدث حتى». كان الموضوع القديم نفسه، من دون أي اختلاف. «هناك أنجي، ليس هناك ابنة أفضل منها لو لم تكن مجنونة بجيمبوي. وتيمبي تزوجت وتعيش حياة كريمة، وتحظى بالاحترام في كل مكان، أما أنت فتفعلين ما يحلو لك من دون حساب!».

«تيمبي؟» تساءلت هاريت بلهجة ساخرة، منزعجةً من هذه المقارنة. «إنها محترمة جدًا إلى حد أنك لا تستطيعين لمسها بعمود طوله عشرة أقدام، هكذا هي تيمبي!.. ليست لديّ مشكلة بأن تطلبي منّي الاقتداء بأنجي، فهي تجهد نفسها إلى أقصى حد في عملها لدى السيدة رايس، لكن لا تحدّثيني عن تيمبي، فكل ما فعلَته هو الزواج من موظف بريد لديه بعض الأملاك، لذا توقّفت عن رؤية عائلتها تمامًا. حينما يرتقي الزنوج في هذا العالم، يتصرفون مثل البيض، فلا يكترثون لأمرك، تنتمي تيمبي إلى تلك النوعية من الزنوج، فقد ارتقت مكانتها في العالم الآن!».

«أغلقي فمك، ولا تتحدثي عن شقيقتك بهذه الطريقة! أنا لا أطلب منها الوجود دائمًا في المنزل، فلمَ قد أفعل ذلك إن كانت راضية في منزلها؟».

«لا، أنت لا تطلبين منها ذلك يا أمي، لكنك تتحدثين على الدوام عن كونها محترمة جدًا.. حسنًا، لا أريد أن أكون محترمة إذا كان الأمر يتطلّب مني أن أكون متكبرة ومتغطرسة مثل تيمبي.. هي ملوّنة وأنا ملوّنة ولم أرها منذ عيد الفصح.. لكن بالنسبة إليها لا يتعلق الأمر بكوننا سود، بل بكوننا فقراء، وهذا حالنا، أنت وأنجي وأنا، فنحن نعمل لدى البيض ونغسل ملابسهم ونذهب إلى أبوابهم الخلفية لنتلقى البقشيش والإهانات. سئمت ذلك يا ماما! أريد أن أحظى بوقت ممتع من حين إلى آخر».

قالت هاغر: «كل ما يهمك أن تحظي بوقت ممتع، وهذا ليس صائبًا، وليس مسيحيًا بالتأكيد! والرب يسجّل ما تفعلينه!». أمسكت العجوز المقلاة الحديدية الثقيلة وشرعت في تنظيفها من الداخل والخارج.

«تجعلكم الكنيسة، أنتم العجائز الزنوج، تتصرفون كجماعة جيش الخلاص»، ردّت الفتاة وهي تضع السكاكين والأشواك المجفّفة على الطاولة. «تخافون حتى من الضحك أيام الأحد، تخافون من أن تنظر فتاة إلى فتى أو العكس، أو أن يذهب الناس إلى الحفلات. يسوعكم العجوز أبيض على ما أظن، هذا هو السبب! إنه أبيض وقاسٍ ولا يحبّ الزنوج!».

شهقت هاغر بينما تابعت هارييت حديثها بانفعال متجاهلةً ألمَ والدتها: «انظري إلى تيمبي، المسيحية الأرفع مكانةً في العائلة، انضمت إلى الكنيسة الأسقفية، وهي مقدسة جدًا إلى حدّ يمنعها من زيارة والدتها حتى. يبدو أن كل الناس الذين يبحثون عن الوقت الممتع أشرار، وكل العجائز أشباه العمّ توم؛ الزنوج العجائز الخسيسون، المضجرون، والمتجهمون، يملؤون الكنائس. لو كان الأمر في يدي، فلن أنضم إلى أيّ كنيسة أبدًا».

قالت المرأة العجوز متوسّلة وهي تقف في منتصف المطبخ وذراعاها مرفوعتان: «ارحمْ هذه الفتاة يا رب! ساعدها ونجّها من نار جهنم! وحوّل قلبها نحوك يا يسوع! ارحم ابنتي يا الله».

تغضّن جبين هاربيت في عبوس راسخ، وبدأت برفع الأطباق ومسح الطاولة وإفراغ الماء برشّه عبر باب المطبخ قبل أن تدخل إلى غرفة النوم التي تتقاسمها مع والدتها، وتبدأ في خلع ملابسها. فرأى ساندي تحت ملابسها الداخلية البيضاء الرقيقة، الجلد الأسود لجسدها الغضّ والمتناسق.

سألتها هاغر بحدّة: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

فردّت الفتاة: «سأخرج».

«ستخرجين إلى أين؟».

«إلى حفل شواء في ويلو غروف يا أمي! سيأتي الشبّان في سيارة ليقلّوني عند الساعة السابعة».

«أيّ شبّان؟».

«شقيق مودل وبعض الرفاق».

«لن تخطي خطوة خارج المنزل!».

تأرجحت قطعتا مكواة الشعر في مدخنة المصباح المضاء فوق الخزانة، تابعت هاربيت استعدادها، كانت تسوّي غرّة شعرها فوق جبينها، ورائحة زيت الشعر اللاذعة تغزو أنف ساندي.

تابعت والدتها: «تظلين حتى بعد منتصف الليل في المدينة يوم الاثنين، والربّ أعلم كم تسهرين كل ليلة في الريف، ثم تأتين إلى المنزل لتهربي مجدّدًا!.. لن تخرجي!».

ارتدت هاريت زوجًا من الجوارب الحريرية الحمراء الزاهية واللامعة، يصلان إلى حدّ ردفيها.

قالت هاغر بصوت متهدّج: «تركتِ الغناء في جوقة الكنيسة، وتقولين إنك لن تعودي إلى المدرسة، ولن تحتفظي بوظيفتك! ماذا ستفعلين الآن إذًا؟ قال والدك منذ سنوات عديدة، قبل وفاته، إنك أجمل بكثير من أن تحققي أيّ شيء، لكنني لم أصدّقه، كانت كلماته الأخيرة قبل أن يموت: (انتبهي إلى هاريت)، كنتِ طفلته المفضّلة.. انظري إلى حالك الآن! تتسكعين في الشوارع مرتدية جواربَ حريرية حمراء! تخيّلي أن يعود والدك ويراك».

وضعت هاريت البودرة على وجهها ورقبتها، لتضفي لونًا ورديًا على سوادها، رشت بودرة بيضاء تحت إبطيها، وفركت أذنيها بعطر أخرجته من زجاجة رفيعة، قبل أن تلبس ثوبًا أزرقَ فيه الكثير من الكشكشة. انتهت حافة الفستان عند منتصف المسافة بين كاحليها وركبتيها، وبدت لطيفة وناعمة ومرتّبة، مثل دمية سوداء من البورسلين في متجر فيينا للألعاب.

تابعت والدتها الشجار: «لا شكّ في أنّ مودل هي من خاطت لك هذا الفستان، فهو قصير وفاحش للغاية! فستان لا ترتديه سوى فتاة سيئة الخلق، لمَ ترتدينه على أيّ حال؟ فقد قلتُ لك إنك لن تخرجي، أعني ما قلته تمامًا. بلغتِ السادسة عشرة من عمرك في أبريل الماضي، وتذهبين إلى حفلات الشواء في ويلر غروف! يا للوقاحة! حين كنت في سنّك لم أسهر بعد الثامنة مساءً، باستثناء أيام الأحد حين أذهب إلى الكنيسة، كان ذلك كل شيء، الرب أعلم أين ستذهبون أيها الشبّان، وأنا أصلي وأبذل قصارى جهدي لأحافظ على سقف يُؤويك».

انطلق بوق سيارة حادّ، وقفت سيارة حمراء كبيرة عند الرصيف، مليئة بالفتيات السمراوات اللواتي يرتدين ملابسَ زاهية من دون معاطف، وبالشبّان السود ذوي الشعر الأملس في قمصان حريرية خضراء وصفراء. ضغط أحدهم على البوق مرة ثانية مُطلِقًا صوتًا عاليًا وصاخبًا! فصمّ آذان سامعيه.

قالت هاغر بلهجة آمرة: «ساندي، اخرج وقلْ لأولئك الشباب أن يرحلوا، لأن هاريت لن تذهب إلى مكان».

إلّا أن ساندي لم يتحرك، لأن خالته الشابة الهيفاء أمسكته بقوة من ياقته، بينما كانت تبحث بشكل محموم عن وشاح في درج الخزانة. أخرجت وشاحًا طويلًا بألوان اللهب له شراشيب حريرية ساطعة الألوان، قبل أن تطلق سراح الصبي الصغير.

صرخت هاغر: «لن تخطي إلى أي مكان هذه الليلة! ألم تسمعي ما قلته؟».

«أوه! حقًا؟» ردّت هاريت ببرود ونبرة قاطعة كالسكّين. «أنت من قلتِ إنني لن أذهب، لكنني سأذهب!».

ثم تغيّر شيء في الغرفة فجأة، فسقط الغضب مثل الخمار عن وجه هاغر، كاشفًا عن عينين عجوزين وعاجزتين مليئتين بالخوف والألم.

تمتمت المرأة العجوز: «عزيزتي هاريت، أريدك أن تكوني في أفضل حال». كان وقع الكلمات خفيضًا ومثيرًا للشفقة، وقد اختفت النبرة الآمرة تمامًا وهي تواجه ابنتها زاخرة بالحياة تمامًا بفستانها الأزرق المكشكش والجوارب الحريرية الحمراء. «أريدك أن تكبري بطريقة لائقة فحسب يا صغيرتي، لا أريدك أن تذهبي إلى ويلر غروف مع أولئك الشبّان. هذا ليس مكانًا مناسبًا لك في الليل، وأنت تعرفين ذلك، أنت طفلة أمّك المدللة،

أريدك أن تكوني في أفضل حال يا عزيزتي، وأن تتبعي تعاليم يسوع، هذا كل ما في الأمر».

تناهى إلى مسامع الجميع جهير قهقهات الشبّان الجالسين في السيارة عبر الفناء، بينما كانت هاغر قد بدأت في وضع يدها الخجلة الرادعة على كتف ابنتها، إلّا أن هارييت تراجعت إلى الخلف.

صرخت: «أيتها العجوز الحمقاء! دعيني أذهب! يا لك من عجوز مسيحية حمقاء!».

اندفعت عبر الباب وعبرت الرصيف إلى السيارة المنتظرة، حيث استقبلتها أذرع الشبّان بلهفة. انطلقت العربة الكبيرة بسرعة عبر الشارع فيما كان صوت المحرك يخفت شيئًا فشيئًا، لتتحول السيارة إلى مجرد ضوء خلفيّ أحمر في غسق يوم صيفي. وكان ساندي واقفًا بجانب جدّته يراقب الضوء حتى اختفى.

غيتار

طوّقيني بذراعيك يا حبيبتي،
كما الدائرة التي ترسم الشمس!
حبيبتي، طوّقيني بذراعيك
كما الدائرة التي ترسم الشمس
وأخبري حبيبك الوسيم
ما الدرب الذي تودّين أن تسلكيه إلى الحب!

كان جيمبوي في المنزل، استطاع كل سكان الحيّ سماع صوته الرخيم المنخفض يُحيي مقطوعات البلوز. ذهب مع أنجي إلى الفِراش باكرًا يوم السبت. و قالت الخالة هاغر في أمسية الأحد: «ضع ذلك الغيتار جانبًا، إلا إن كنت تنوي أن تعزف الترانيم. ولا أريد أن تعزف الكثير منها، فهي تزعج الجيران البِيض».

لكن حدث ذلك يوم اثنين، فيما لم تكن الشمس قد توارت في خط الأفق قبل أن تصدح الموسيقى في أرجاء الزقاق، فوق الأسوار الخلفية وعلى نوافذ المطبخ حيث تغسل السيدات البيض اللطيفات الأطباق التي تناولوا فيها طعام العشاء.

هل رأيتِ درّاقًا قَطّ
ينمو فوق كروم البطيخ؟
هل رأيتِ درّاقًا قَطّ
ينمو فوق كروم البطيخ؟

هل رأيت امرأة قَطّ

لا أستطيع أن أستميل قلبها؟

مستريحًا بتكاسل لوقت طويل فوق عتبة باب المطبخ، مُسندًا ظهره إلى عضادة الباب، وقدماه في الفناء، بدأت أصابعه تنقر أوتار غيتاره العذب، ويده اليسرى التي تسند رقبة الغيتار ممسكةً بظهر سكّين جيب قديم، مُحرّكًا السكّين إلى الأعلى والأسفل، ليطلق تلك الأنغام والآهات الغريبة من الأوتار المهتزة:

أوه، هجرتُ والدتي

وأقوى على هجرانك بالتأكيد.

لقد هجرتُ والدتي

وأقوى على هجرانك بالتأكيد،

فأنا سأهجر أيّ امرأة

تجحف في حقّي كما تفعلين بي.

جيمبوي، تذكّر كل الفتيات السمراوات في ناتشيز، شريفبورت، ودالاس؛ تذكّر النساء الكريوليات[1] في باتون روج عاصمة ولاية لويزيانا:

أوه، تلتفّين وتتمايلين،

لكن هذا لا يؤثّر فيّ،

تلتفّين وتتمايلين،

لكن هذا لا يؤثّر فيّ،

لأنني أستطيع الالتفاف والتمايل

كقرد يدور حول شجرة جوز هند!

(1) نسبة إلى شعوب الكريول. (المترجم).

قبل أن تنضمّ إليه هاربيت التي كانت تقف تحت شجرة التفاح الناضج في الفناء الخلفي:

أراك الآن تصدّين عنّي،

لذا فقد حان الوقت لأقول: مع السلامة!

يا ربي، أراك الآن تصدّين عنّي،

لذا فقد حان الوقت لأقول: مع السلامة!

فقلبي مفتوح على مصراعيه للحبّ،

أما أنتِ، فيمكنك الرحيل إلى كانساس سيتي!

بدأتْ ترقص وهي تقول: «أوه، لا تتوقف عن العزف أيها الجميل جيمبوي!».

قبل أن تنفجر هاغر من حيث كانت تجلس على حافة السدّة التي تغطي البئر صارخةً: «توقفي يا مدام! كفاكِ تبخترًا! الغناء وحده سيئ بما يكفي، لا داع لتحويل الفناء إلى منصّة عرض». إلّا أن هاربيت تابعت، وكانت بيديها تقطف كرزًا خياليًا من النجوم، وردفاها يتحدّثان لغة أرضية خاصة بهما.

قال جيمبوي: «لك ذلك»، متوقفًا فجأة قبل أن يبدأ ينقر بإصبعه على آلته الموسيقية مُصدرًا لحنًا مختلفًا. «تؤدين مثل النساء اللواتي يؤدّين على خشبة المسرح. ستنتزعين من آدا ووكر مكانتها إن استمريتِ».

صرخ توم جونسون ممتدحًا عبر الفناء: «واو!.. أنت تجيدين الغناء فعلًا!». أما سارة التي كانت تجلس إلى جانبه على المقعد خلف كوخهما، أضافت: «إنها تذكّرني بأيام المزرعة الخوالي يا عزيزي! إنها تذكّرني بتلك الأيام فعلًا!».

ردّت هاغر بهدوء من مكانها قرب مضخة الماء: «آه آه! إنهما يتجهان صوب الشيطان مباشرةً، هذا ما يفعلانه. كلاكما، أنت وهاربيت، تغنيان هذا الكلام وترقصان أمام هذين الطفلين»، مُشيرةً إلى ساندي وويلي ماي، اللذان جلسا على الأرض مسندَين ظهريهما إلى قنّ الدجاج. «هذا مخزي!».

قالت ويلي ماي: «يعجبني ما يفعلانه».

ليوافقها الصبي الصغير: «أنا أيضًا».

ردّت المرأة العجوز على الطفلين وهي تسند ظهرها إلى المضخة لتستمع إلى المزيد: «هذا طبيعي، فلا أحد منكم قد اهتدى بعد».

ارتفع صوت الموسيقى أجشًّا وجامحًا:

أتقلّب في الحيرة متسائلةً أين ذهب محبوبي؟

رهنَ ساعتي الذهبية الجديدة، وتركني وحيدة.

كان صوت هاربيت حزينًا تحت سماء الليل. علّمها جميبوي تلك الأغنية، إلّا أن صبيًا صاحب بشرة سمراء بلون الطين كان يعتّل الأمتعة في فندق كلينتون لبضعة أشهر، في طريقه من هيوستن إلى أوماها، جعلها تدرك معناها تمامًا. كان حبًا طفوليًا ربما، إلّا أنها تألّمت لرحيله من دون أن يقول شيئًا. وقد ردّد الغيتار بين أيدي جيمبوي صدى ذلك الألم القديم بضربات أشدّ من الألم الأصليّ نفسه.

اقتربت خطى من الفناء الأمامي.

«يا ربّاه، يمكنني سماع صوتيكما على بعد حيّين!» قالت أنجي وهي تدخل إلى المنزل عائدة من عملها، وهي تحمل حزمة طعام تحت ذراعها اليسرى. «مرحبًا! كيف حالك يا عزيزي؟ مرحبًا يا أمي! أعطني قبلة يا ساندي.. يا رباه، أشعر بالحرّ والتعب والإنهاك. انهمكت في العمل طوال هذا الوقت!.. خذْ يا ساندي، ادخل وتناول بعض هذه الأشياء اللذيذة

التي يأكلها البِيض على العشاء». عبرتْ فوق ساقيّ زوجها الممدودتين إلى المطبخ. «أحضرتُ لك قطعة لحم خنزير باردة ورائعة من منزل السيدة رايس يا عزيزي».

قال الرجل: «حسنًا، سألحق بك خلال دقيقة»، لكنه تابع عزف أغنية (محبوبي)، وتابعت هارييت الغناء، ونُسي الطعام على الطاولة حتى مرّ وقت طويل وخرجت أنجي وجلست في النسيم البارد، بعد أن سئمت انتظار جيمبوي أن يلحق بها.

لفترات متقطعة على مدى تسع سنوات، منذ تزوّجَ أنجي، غنّى جيمبوي وهارييت معًا في الأمسيات. حينما بدأا كانت هارييت طفلة صغيرة مضفورة الشّعر، وكلما حطّ صهرها الرحال في سانتون، كان يسلّي نفسه بتعليمها الأغاني الجنوبية القديمة، أغاني الراغتايم الشعبية، إضافة إلى مئات المقاطع المتنوعة من أغاني البلوز التي كان يستمع إليها في كبرى مدن الجنوب القذرة. وسرعان ما تعلّمت الطفلة، بصوتها العذب القوي (كان الملوّنون يسمونه alto) وإحساسها العرقي بالإيقاع، أن تؤدي الأغاني ببراعة جيمبوي نفسها. كما علّمها خطوات الـ parse me la، وبعض خطوات الرقص الأخرى التي كان يؤدّيها الملوّنون في الجنوب، وكانا أحيانًا يؤدّيان الرقص النّقري معًا. كان الأمر ممتعًا وبريئًا إلى أقصى حد، إلّا إذا توقّف المرء برهة ليفكّر، كما كان البِيض يفعلون، فبعض جُمل مقطوعات البلوز، لم يكن لها معنى مزدوجًا، بل كانت ثلاثية المعاني، وبعض خطوات الرقص كانت تتطلب حركات محدّدة بالردفين. لكن لم يلوّث جيمبوي أو هارييت عقليهما بالتفكير. كان الأمر بالنسبة إليهما مجرّد موسيقى وحركات مفيدة، وقد أحبّا ذلك فعلًا.

سأل جيمبوي: «هل تعرفين هذه الأغنية يا أنجي؟»، ناطقًا اسم زوجته بأدب مفاجئ لأنه نسيّ تناول الطعام الذي أحضرته له، وفي الواقع لم

ينظر إليها تقريبًا منذ عاد إلى المنزل. فنظر إليها في الظّلمة حيث جلست ملقيةً نفسها فوق كرسيّ مطبخ في الفناء، منعزلةً عن الآخرين، وقد أدارت ظهرها إلى الذّرة النامية في الحديقة. مرّر أصابعه بنعومة كالنسيم الخفيف على أوتار غيتاره، مُحاكيًا حفيف الريح عبر أوراق الذرة الطويلة. حطّ مستطيلٌ من الضوء على الفناء مُبرزًا جانبًا من بشرته الصفراء الموشّحة بالبرتقاليّ فوق الزرّ المفكوك لقميص العمل الأزرق الذي كان يرتديه.

قال: «هيا، غنّي معنا يا أنجي».

ردّت أنجي وفي حلقها غصّة: «لا أعرفها»، وعيناها تنظران إلى خيال جسده الطويل، مفتول العضلات، والمشدود. أحبّت جيمبوي كثيرًا، كانت تلك مشكلتها! كانت تدرك أنه ليس هناك ما يجمع بينه وبين شقيقتها الصغرى سوى حبّهما للموسيقى، لكن كان في استطاعته أن يضع الغيتار جانبًا ويترك هاربيت في الفناء قليلًا ليتناول شريحة لحم الخنزير الباردة اللذيذة التي أحضرتها له. لم تره طوال اليوم، فحينما مضت إلى عملها صباحًا كان ما يزال في الفراش، والآن وقع في أَسر موسيقى البلوز.

وفي الظلمة المرصّعة بالنجوم أضحت الألحان المغنّاة على الغيتار تشبه همهمة حزينة، تشبه نسيمًا في بستان نخيل؛ أضحت أنينًا خفيضًا، يشبه الريح في غابة من أشجار السنديان المربوطة بضفائر طويلة من الطحالب المعلّقة. دوى صوت زوج أنجي الأشقر الوسيم على عتبة الباب عاليًا وبعيدًا، وكأنه وحيد، يبكي مع غيتاره فحسب، ليس مع زوجته، ليفهم آلامه؛ كان بكاءً غريبًا، بكاءً عبثيًا في ليلة صيف:

لديّ بغل أركبه.
لديّ بغل أركبه.
في مكان ما من الجنوب
لديّ بغل أركبه.

ثم طرح سؤالًا كما لو أنه فتاة مشتاقة تُركت وحيدة:

تقول إنك متوجّه شمالًا

تقول إنك متوجّه شمالًا

ماذا عن.. محبوبتك؟

تقول إنك متوجّه شمالًا

ثم تنهّد في يأس إيقاعيّ:

أوه، لا تتركني هنا.

لا تتركني هنا يا عزيزي.

يا إلهي، لقد عدت!

قلت إنك لن تتركني هنا.

واستمرّت شكوى الأغنية، مقاطع رجاليّة ومقاطع نسائية، إلى نسيم المساء في مقاطع شعرية سمعها جيمبوي من عمّال معسكر الحطّابين في أركنساس؛ كانت بعض المقاطع الشعرية يائسة وقذرة كالطرقات المضجرة التي كانوا يغنون عليها؛ فيما ابتكر المغنّي بعض المقاطع الأخرى المتناثرة هنا وهناك بتلقائية:

أوه، رتّبتُ مهدي،

لقد رتّبتُ مهدي.

في قاع قبر مهجور

رتّبتُ مهدي.

انتهت بلحنٍ حزين وغريب.

قالت هاغر: «هذا لائق فعلًا. أتمنى الآن أن تعزفوا شيئًا من المقطوعات التي أحبّها، مثل عندما يسير القدّيسون في موكب، أو (دياري

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليست في هذا العالم) أو أيّ مقطوعة مسيحية من المقطوعات التي تُرنّم في الكنيسة».

قالت هاربيت: «لم يحلّ الأحد بعد».

قال توم جونسون العجوز: «غنّوا كاسي جونز، إنها أغنيتي المفضلة».

لذا رنّت على الفور أغنية «سائق القطار الخالد مع فتاة أخرى في أرض الميعاد» في الظلمة المرصّعة بالنجوم، بينما انضمّ الجميع إلى الجوقة.

صرخ الرجل العجوز: «اعزفْها يا فتى. لا أحد يضاهيك في العزف».

وتذكر جيمبوي حين كان طفلًا في ممفيس مقولة دبليو. سي. هاندي له: «عليك أن تكسب رزقك من العزف يا بنيّ». لكنه لم يتبع نصيحته، فقد كان هناك الكثير من الأشياء ليراها، والكثير من الأماكن ليزورها، والعديد من الوظائف الأخرى.

«ما الأغنية التي تحبّينها يا أنجي؟» سألها، متذكرًا وجودَها مرة أخرى.

كانت مسرورة ومضطربة، وشعرت ببعض الذهول لسؤاله إياها: «أوه، لا يهمّ، أيّ أغنية تحبّها، كلّها جميلة».

فقال: «حسنًا، إذًا استمعي إلى هذه»:

ها أنا في سجن قديم قذر.

ولا يوجد من يدفع كفالتي.

وحيد وحزين ومقيّد بالأغلال...

كلّ صديق عرفته أدار ظهره لي.

«هذا حقيقي!» صاح توم جونسون في تعاطف كبير. «فعندما كنت في سجن مقاطعة تورنر..».

«أغلق فمك!» قاطعته سارة، لاكزةً زوجها في أضلاعه.

تتابعت الأغاني، البلوز، الصيحات، الأناشيد، الأغاني القديمة: بون بون بادي، المعروفة باسم قطرة الشوكولاتة؛ لفّيني بشالك الأحمر الكبير؛ تحت شجرة التفاح الهرمة؛ ديك رومي في التبن.

كسر جيمبوي وهاريت سكون الليلة الصيفية في المدينة الصغيرة حتى قاطعتهما الخالة هاغر:

«من الأفضل أن تتوقفوا يا أولاد، لأنني أريد أن أخلد إلى النوم. لستُ معتادة على البقاء مستيقظة إلى وقت متأخر. اعزف شيئًا لطيفًا ولائقًا يا بنيّ، ثم كفى».

ولكي يضايق المرأة العجوز، بدأ جيمبوي يهتز ويئنّ مثل شيخ في الكنيسة المقدّسة، وهو يربت على قدميه مع عزف جنائزيّ وحِداديّ يشبه ألحان الترانيم مع نغمة راقصة:

أخبريني أيتها الأخت،

أخبرني أيها الأخ،

هل سمعتم آخر الأخبار؟

ثم تابع بجدّية وكأنه على وشك إعلان مجيء يوم الحساب:

امرأة في جورجيا

أوقعت رجلين في حيرة من أمرهما.

أنّ الغيتار. كم كان ذلك رهيبًا! كم كان حزينًا!

طَرقَ أحدهما الباب الأماميّ.

طرقَ آخر الخلفي..

حزن، حزن.. حزن، حزن! هذا ما حكَته الموسيقى.

والآن تلك المرأة في جورجيا

متّشحةً بالسواد تقف على عتبة بابها.

أوه، اعزف ذلك اللحن المأتميّ يا ولد! بينما يضحك الغيتار ترنيمة جنائزيّة.

وبيسر يأتي النّعش

في عربتين بإطارات مطّاطية!

وتليها الكلمة ممتدّة، كما تُقال في الكنائس:

آمين...!

ومع الانزلاقات السريعة، الآهات، والصيحات، صدحت الآلة الموسيقية في جنون وثنيّ فجأة، وبدأت هاربيت ترقص في خطوات سريعة، وذراعاها يرفرفان كجناحَي حمامة مقطوعة الرأس، وأوتار الغيتار تنتحب في نشوة، فيما يتمايل العازف بسرور على موسيقاه السريعة، كان فمه السعيد يصيح: «أسرَعْ يا فتاة! أسرَعْ يا هاري!».

لكن أنجي نهضت.

قالت وهي ترفع كرسيها وتتجه إلى المنزل: «أتمنى لو تدخل وتتناول لحم الخنزير الذي أحضرته لك. وأنت يا ساندي! انهض من تحت تلك الشجرة واذهب إلى الفِراش». تحدّثت بقسوة إلى الصبي الصغير الذي حملته الأغاني إلى عالم الأحلام. قبل أن تتوجّه إلى زوجها قائلةً: «جيمبوي، أتمنى أن تدخل إلى المنزل».

توقّف الرجل عن العزف، لتهتز الأوتار عميقًا مثل صدى تردّد في كل أنحاء العالم. ثم أسند غيتاره إلى جانب المنزل ورفع بذراعيه المشعرين أنجي بجسدها الأسمر الممتلئ الصغير إلى الأعلى بينما كان يقبّلها وهي تتلوى مثل طفل عنيد، ليحتكّ صدرها الناعم بجسده المشدود من خلال قميصه الأزرق الخشن.

قال ضاحكًا: «ألا تحبّين أغانيّ القديمة يا عزيزتي؟ لا تريدين سماعي أغنّيها، حسنًا، لا بأس، لكنني أحبك على كل حال، وأحبّ لَحمك، وأحب قبلاتك، وأحب كل ما تمنحيني إياه. لندخل ونأكل». وحملها إلى المطبخ، حيث جلس على ركبتيه وهو يأكل الطعام الذي أحضرته له بإخلاص من مائدة عشاء السيدة جي. جي. رايس.

في الخارج، ذهبت ويلي ماي راكضةً عبر الظلام إلى منزلها. وضخّت هاريت ماءً باردًا لوالدتها، ثم ساعدتها في النهوض من موضعها المنخفض، بمساعدة ساندي من الخلف، الذي دفع الخالة هاغر من ظهرها السّمين بقوة مستخدمًا كلتا يديه. ثم دخل ثلاثتهم إلى المنزل، وفي أثناء مرورهم بالمطبخ، لمحوا أنجي جالسة في حضن جيمبوي وقد طوّقت عنقه بذراعيها المشدودتين الداكنتين.

قالت هاريت لأختها: «يبدو أنك تتشبثين بصخر الدهور. لكن احذري من أن تفلتيه أيتها العجوز الشريرة!».

لكن عند منتصف الليل، حينما بدأت البومة التي تعشش في شجرة بالقرب من الزاوية تنعق؛ كانوا جميعًا قد غطّوا في النوم، أنجي وجيمبوي في غرفة، هاريت وهاغر في الغرفة الأخرى، فيما نام ساندي على الأرضية عند رِجل سرير جدّته. دوت صافرة بعيدة، على خطّ السكة الحديدية، صافرة وحيدة وطويلة.

عمل

ارتفعت أزهار عبّاد الشمس في فناء ويلي ماي الخلفي أعلى من رأس توم جونسون، وكانت نباتات الخطمية المزهرة في أركان السياج بالارتفاع نفسه تقريبًا، فيما انسدلت أزهار الكبوسين[1] الذهبية والبرتقالية الموشّحة بالأحمر في جميع أنحاء منزل مدام دي كارتر. تفتحت أزهار القرنفل، القرنفل الملتحي، والزنبق المرقّط التي زرعتها الخالة هاغر، بينما كان التفاح فوق شجرتها الوحيدة على وشك أن ينضج. زهت الحدائق المتجاورة للجيران الثلاثة بالزهور. وظلّت الجدّة تكرّر لساندي كل ساعة: «احذرْ تلك الكلاب!»، فقد حلّت الأيام بحرارتها التي تدفع الحيوانات الأليفة إلى الجنون. تحرّك النحل متثاقلًا بالعسل الذي يكتنزه، وتطاير الذباب الأخضر في الهواء، بينما ارتشفت الفراشات السوداء التي يغزوها الأصفر الرحيقَ من الورود المعرّشة.. وظهر البطيخ في الأسواق.

كان الفرسان الأفريقيون الملكيّون وسيّدات صولجان الملك سليمان يتحضرون لتمرين عرض انعتاق سبتمبر، «عرض لجميع الأمم»، مثّلت أنجي السويد فيه، لم يكن الاحتفال سيبدأ قبل شهر أو أكثر، إلا أن البروفة الأولى كانت ستُجرى ليلتها.

نادت والدته: «ساندي»، وهي تهزه باكرًا فيما كان مستلقيًا على فراشه المصنوع من القش عند رِجل سرير الخالة هاغر، «اسمع! أريدك أن تذهب معي هذه الليلة إلى منزل السيدة رايس، وتساعدني في غسيل

---

(1) يتميز هذا النبات بأزهار ذات ألوان مبهرجة، وغالباً ما تكون زاهية اللون ومستديرة، كما تتسم أوراقها بشكل يشبه الدرع، وتتموضع سويقاتها في المنتصف.

الأطباق لأستطيع العودة إلى المنزل باكرًا، كي أغتسل وأتأنق للذهاب إلى قاعة الحفل. أتسمعني؟».

ردّ ساندي: «حاضر يا سيدتي»، فيما أبقى عينيه مغمضتين في مواجهة دفق النور الساطع الداخل عبر النافذة. لكن بعد نصف ساعة، عندما ركله جيمبوي قائلًا: «يا فتى! أتريد الذهاب لصيد السمك؟» نهضَ على الفور، وارتدى سرواله؛ ليخرجا معًا إلى الحديقة وينقّبا عن الديدان في الأرض. نادرًا ما أخذه والده إلى أيّ مكان. عَشِق ساندي جيمبوي، إلّا أن جيمبوي على الرغم من طبعه الودود والمتساهل؛ لم يكن يزعج نفسه باصطحاب ابنه ذي العشر سنوات في رحلات الصيد.

كانت هاريت قد ذهبت إلى عملها، وهاغر قد أمضت وقتًا طويلًا تعمل في الأحواض تحت شجرة التفاح حينما خرج الذّكران من باب المطبخ. همهمت المرأة العجوز: «لن تعمل هذا الصباح، أليس كذلك؟»، وهي تنحني بثبات إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى، فوق لوح الغسيل.

أجاب صهرها طويل القامة: «لا. سرّحني دوناهو البارحة لأن البنّائين البِيض قالوا إنهم لا يستطيعون رصف الطوب مع زنجيّ».

ردّت هاغر لاهثة: «هناك ما يمنعك من العمل دائمًا».

وافقها جيمبوي مسرورًا: «بالتأكيد. لكن لا تقلقي، سنصطاد أنا وساندي الكثير من الأسماك لنتناولها على العشاء الليلة. ما رأيك في ذلك يا أمي؟».

أجابته المرأة العجوز: «لسنا بحاجة إلى أسماك! ولا تنادِني أمّي! تُمضي وقتك مسترخيًا في الصيد بينما عليك أن تذهب وتجني المال لتعتني بهذه الأسرة وبطفلك هذا».

ارتفعت رغوة الصابون بلونها الأبيض حول ذراعيها السوداوين بينما كانت الملابس تُفرك إلى الأعلى والأسفل على لوح الغسيل. «نجّني يا ربي من ذلك الزنجي الكسول!».

إلّا أن جيمبوي وساندي كانا قد بدأا بالبحث عن طُعم بالقرب من السياج الخلفي خلف الذرة الطويلة.

قال والد الصبي بهدوء: «لا تدعْ أيّ امرأة تُقلقك»، وهو يلتقط الديدان الرطبة المتلألئة من التربة المقلوبة. «عاملْهنّ كالدجاجات يا بنيّ. ارم لهنّ قليلًا من الذرة وسيلحقن بك، لكن لا ترم لهنّ الكثير، إن فعلت ذلكَ فسيتوقّفن عن وضع البيض ويتوقّعنَ منك اللَحاق بهنّ».

سأله ساندي: «حقًا؟».

حوّلت شمس الظهيرة الدافئة النهر إلى ورقة راكدة من الذهب الموحل، وصل بريقها إلى الجسر ومطاحن الدقيق على بعد ميل ونصف. هنا في السكون، في نهاية رصيف متعفن بين القصب، جلس جيمبوي وابنه في صمت. سبحت في الماء مجموعة كبيرة من الأسماك الفضية الصغيرة، وبينما قُذف خيطا الصيد بعيداً في الجدول، كانت الأسماك تنتظر مزيداً من الطعوم. لم يعبر النهر الذهبيّ الراكد نسيماً، ولا موجةً، ولا صوتاً. لكن حالما مرّ القطار، أطلق سحابة هائلة من الدخان والرماد مرجرجاً الرصيف.

قال جيمبوي: «هذا رقم خمسة، إنه يطير بالتأكيد»، بينما اختفى القطار بين صفوف من العربات الفارغة البعيدة عن السكة الحديدية، مرسلًا قعقعة جوفاء في أثناء مروره عبر مطاحن الدقيق، التي أَمكن رؤية الأكوام المتكدسة فيها بشكل خافِت عبر السّراب الناجم عن الحرارة.

قال جيمبوي، مع تلاشي آخر قرقعة للعجلات: «لقد ذهب». وباستثناء صوت ذبابة خضراء تحوم حول علبة الطعوم، لم يزعج الصيّادَين أيّ صوت.

حدّق جيمبوي في صنّارته. وفي ضوء الشمس الساطع استطاع ساندي بصعوبة أن يرى عبر النهر لون حقول القمح الذهبيّ وخضرة الأشجار على التلال. تساءل إن كان العيش في الريف جميلًا.

صرخ والده فجأة: «يا للهول!» وهو يسحب بقوة أحد الخيوط. «لا بدّ أنها سمكة هائلة.. انظر إلى سمكة السلّور هذه». سحب من الماء مخلوقًا كبيرًا بلون الرصاص يتخبّط، وفمه الأبيض الوحشي فاغرًا ينزف عند الخطّاف.

صرخ ساندي: «علقت بصنّارتي! أنا اصطدتها!».

ضحك جيمبوي: «كفاك! كنت جالسًا هناك تحلم».

«لا، هذا غير صحيح!».

ثم دوت صافرة الساعة الخامسة في المطاحن. صرخ الصبي مرتعدًا: «يا للهول يا أبي! يجب عليّ الذهاب إلى منزل السيدة رايس لمساعدة أمي، وكدت أنسى الأمر. تريد الانتهاء من عملها باكرًا هذا المساء ليتسنى لها الذهاب إلى اجتماع المحفل. عليّ الإسراع والذهاب لمساعدتها».

«حسنًا، من الأفضل أن تذهب إذًا، سأراقب صنّارتك كما كنت أفعل وأحضر بعض الأسماك إلى المنزل».

وازنَ الصبي نفسه وهو يعبر الرصيف، وانطلق إلى أعلى الضفة، ثم ركض عبر السكة الحديدية إلى المدينة. كاد نفَسُه ينقطع عندما وصل إلى نهاية شارع بنروز، وما زال يفصله عن منزل السيدة رايس عشرة أحياء، لذا سار قليلًا قبل أن يعاود الركض عبر الشارع السكنيّ الطويل، بمنازله الكبيرة التي تنتصف فوق المروج الخضراء المظللة بعيدًا عن الرصيف.

وبين الحين والآخر يلحظ الماء البارد ينفث على شكل نافورة من مرشّة موصولة بخرطوم مطّاطيّ طويل على العشب العطش. في أحد الفناءات، كانت ثلاث فتيات صغيرات ذوات شعر ذهبيّ يلعبن تحت شجرة الدردار، وفي فناء آخر يلعب رجلٌ الكروكيه[1] مع بعض الأطفال بهدوء.

وصل ساندي إلى فناء كبير أخيرًا. استقبلت رائحة اللحم البقريّ المقلي اللذيذ الفتى المتعرّق عند وصوله إلى الباب الشبكيّ لمطبخ السيدة البيضاء. في الداخل كانت أنجي تقف فوق الموقد الساخن تتبّل شيئًا في قِدر، وقطرات العرق تعلو وجهها الداكن، فيما ظهرت بقع رطبة كبيرة تحت أكمام فستانها.

قالت: «وأخيرًا جئت! أنتظرك منذ ساعة. هيا، خذ كسّارة الثلج هذه، وكَسّرْ بعض الثلج من أجل الشاي». صعد ساندي على كرسي ورفع غطاء صندوق الثلج بينما فتحت والدته الفرن مخرجةً صينية بسكويت امتزج فيه اللونان البني والذهبيّ. قالت: «صنعت هذه لوالدك، لم يطلبها البِيض، لكنهم يحبّونها أيضًا، لذا يمكنني تقديمها لكليهما.. يعشق جيمبوي البسكويت.. هل عمل اليوم؟».

أجابها ساندي وهو يضرب الثلج: «لا يا سيدتي. ذهبنا لصيد السمك».

في تلك اللحظة دخلت السيدة رايس إلى المطبخ، طويلة وشقراء، مرتدية ثوبًا رقيقًا مزهرًا. كانت امرأة بيضاء في منتصف عمرها بصوت أخنف وحادّ.

«أنجي، أودّ أن تقدّمي البطاطس كما هي في الكسرولة. وحضّري عدة شرائح من الخبز المحمّص الرقيق لوالدي. احرصي على أن تكون رقيقة جدًا».

---

(1) رياضة تقوم على ضرب كرات خشبية أو بلاستيكية بمطرقة لتمر عبر أقواس مثبّتة بالأرض على ملعب عشبيّ. (المترجم).

«حاضر يا سيدتي»، قالت أنجي وهي تقلب ملعقة من الدقيق في المقلاة، صانعةً مَرقًا بنيًا سميكًا.

«ذلك الهرم أكثر هشاشة من الخبز المحمّص»، تمتمت أنجي عند مغادرة السيدة رايس إلى الجزء الأمامي من المنزل. «دائمًا ما تتدخل في شؤون المطبخ! ولقد تأخرت بالفعل عن عشاء ليلة اجتماع المحفل على أي حال، فتأتي وتطلب مني التوقف وتحضير الخبز المحمّص لذلك الهرم! البسكويت ليس صعب الهضم بحيث لا يستطيع تناوله مثل البقية.. البِيض غرباء الأطوار بالتأكيد!». وضعت ثلاث شرائح خبز فوق الموقد. «يتدللون كثيرًا مع وجود الملوّنين في انتظارهم طوال النهار! لا أعرف كيف سيتدبرون أمورهم في الجنة، لأنني سأجلس هناك وحدي».

أخذت أنجي قطع البسكويت الفاتحة والسمراء، ووضعتها في طبق ورديّ كانت قد دفّأته، حملتها مع الزبدة والمربّى إلى غرفة السفرة. ثم أخذت شريحة لحم من طبق يحفظ دفء الطعام، ووضعت الخضار في أطباق التقديم ذات الحواف الذهبية، وصبّت المرق الذي كانت تفوح رائحة البصل اللذيذة منه.

قال الطفل: «يا إلهي، أنا جائع»، وعيناه على شريحة اللحم الكبيرة التي كانت جاهزة لتُقدّم إلى البِيض.

ردّت والدته: «حسنًا، انتظر، جئت لتعمل، لا لتأكل.. يا للهول! لكن الجوّ حارّ اليوم!» مسحت وجهها الرطب ولبست مئزرًا أبيضَ كبيرًا كان معلّقًا خلف الباب. قبل أن تذهب وهي تحمل الشاي المثلّج وإبريق الماء إلى غرفة السفرة، قرعت جرسًا صينيًا، ورجعت إلى المطبخ لتحضر أطباق الطعام التي كان يتصاعد البخار منها، وتحملها إلى الطاولة.

مرّ بعض الوقت قبل أن تعود؛ لذا بدأ ساندي في مساعدتها، بكَشطه المقالي الفارغة ونقعها في الحوض. التهمَ الذرة المطبوخة التي علقت في قاع إحداها، وفرك قطعة خبز في المقلاة حيث كان المرق. ظهرت والدته مع إبريق الماء، وكسرت بعض الثلج لتضعه فيه، وعادت إلى غرفة الطعام حيث استطاع ساندي سماع الضحكات وخشخشة الملاعق في أكواب الشاي وحديث النساء. عندما عادت أنجي إلى المطبخ أخذت أربعة أطباق كاسترد من صندوق الثلج ووضعتها في أطباق ذهبية الحواف.

قالت لابنها: «إنهم على وشك الانتهاء. اجلس وسأحضّر لك بعض الطعام».

كان ساندي جائعًا جدًا وتمنّى ألا تتناول عائلة السيدة رايس كل شرائح اللحم، التي بدت لذيذة جدًا مع المرق البنيّ والبصل.

بعد فترة وجيزة، عادت والدته وهي تحمل الأطباق التي كانت مليئة بالطعام الساخن. وضعتها على طاولة المطبخ أمام ساندي، إلّا أن الأطباق لم تعد ممتلئة ولا ساخنة. فتحوّلت الذرة إلى عجينة، واختفت البطاطس تقريبًا؛ لكن ظلّ جزء من شريحة اللحم في الطبق.

قالت أنجي محذّرةً إياه: «لا تأكلها بالكامل. أريد أن آخذ بعضها إلى المنزل من أجل والدك».

رنّ الجرس في غرفة الطعام. عبرت أنجي عبر الباب المتأرجح، وعادت وهي تحمل طبقًا فيه حلوى كاسترد لم تُمسّ تقريبًا.

«تفضّل يا بنيّ، قال الرجل الهرم إن معدته لا تتحمل حلاوتها، لذا يمكنك تناولها». وضعت طبق نشاء الذرة الأصفر أمام ساندي. «رأى ثمرات الدرّاق الناضجة هذا اليوم ولا يريد سوى بعضها. ذلك الهرم المسكين، يواجه مشكلات أكثر ممّا يستحق، وأنا في عجَلة من أمري!» بدأت في تقشير الفاكهة. مضيفةً: «إنه مثل الأطفال!»، ثم حملت شرائح

الدرّاق إلى غرفة الطعام تاركةً ساندي يتناول الطعام من الطبق الموضوع أمامه ببطء. «حينما تكون في عجلة من أمرك للذهاب، تشعر وكأن البِيض يدخلون في تحدّي أنفسهم ليبقوك منشغلًا».

عادت بعد لحظة بمزاج سيئ، وبدأت توبّخ ساندي لأنه استغرق وقتًا طويلًا في تناول وجبته.

«طلبتُ منك مساعدتي لأتمكن من الوصول إلى المحفل في الوقت المحدد، وأنت تجلس وتمضغ وتأكل على مهل! خذ، امسح هذه الأطباق يا فتى!» بدأت أنجي في رصف الأطباق على رف الحوض ليتصاعد منها البخار؛ لذا وقف ساندي وهو يلتهم الحلوى، ليمسحها بمنشفة أطباق كبيرة.

سرعان ما دخلت السيدة رايس بخفّة إلى المطبخ مرة أخرى عبْر الباب المتأرجح ونظرت إليها. شعر ساندي بالخجل لأن المرأة البيضاء رأته يتناول الحلوى المتبقّية من سفرتها، لذا وضع الملعقة جانبًا.

قالت السيدة بصوت حاد: «أنجي، أتمنى ألا تُكثري من البصل في صلصة شرائح اللحم. قلت ذلك لك عدة مرات من قبل، وتعلمين جيدًا أننا لا نحبها هكذا».

قالت أنجي: «حاضر يا سيدتي».

«وأرجو منك الحرص على برودة مياه الشرب قبل تقديم الوجبات، عملتِ بإهمال شديد هذه الليلة. عليكِ التفكير مليًا فيما تفعلينه يا أنجي».

خرجت السيدة رايس مجددًا عبر الباب المتأرجح، لكن ساندي وقف بالقرب من الحوض بوجه محمرّ وعينين امتلأتا فجأة بالدموع الحانقة. لم يستطع تحمّل ذلك، سماعه تأنيب تلك المرأة البيضاء طويلة القامة التي ترتدي فستانًا مزهرًا لوالدته المتعرّقة. ردّت أنجي السوداء الكادحة: «حاضر يا سيدتي»، لم يحدث شيء آخر، إلّا أن ساندي بكى.

وعندما رأته والدته، قالت بنزق: «امسح دموعك»، ظنًا منها أنه يبكي لأنها طلبت منه العمل. «ما الذي أصابك؟ لا يمكنك تجفيف بضعة أطباق والتصرّف بلطف حيال ذلك حتى!».

لم يردّ، عندما نُظّفت غرفة السفرة ورُتّب المطبخ، طلبت أنجي منه رمي القمامة بينما كانت تلفّ بعض الطعام في أوراق الجرائد لتأخذها إلى جيمبوي. ثم خرجا عبر الباب الخلفي، ليلتفّا حول المنزل الكبير وصولًا إلى الشارع، وقطعا أربعة عشر مربّعًا سكنيًا إلى منزل الخالة هاغر، سالكين طرقًا مختصرة عبر الأزقة، مرّوا أسفل المصابيح القوسية التي تنفث الغاز مطلقةً ضوءًا أبيضَ في الشفق، وبين الفينة والأخرى كانا يلقيان التحية على ملوّنين فقراء آخرين كانوا في طريق عودتهم من العمل إلى المنزل.

«كيف حالك أيتها الأخت جونز؟».

«بخير، شكرًا لك».

قالت أنجي فجأة لابنها: «المساء هو الوقت الوحيد الذي نملكه كسود! الحمد لله على الليل.. لأننا نمنح كل نهارنا للبِيض».

البِيض

حينما عادا إلى المنزل، وجدا الخالة هاغر جالسةً في برودة المساء على شرفتها الجديدة التي أُعيد بناؤها بخمسة وثلاثين دولارًا أُضيفت إلى الرهن العقاري. جلست المرأة العجوز في كرسيها الهزّاز، أما جيمبوي فقد وضع إحدى قدميه على الأرض وأسند ظهره إلى العمود، ليجلس مسترخيًا عند قدميها. كان الاثنان يتشاجران بودّ بلا سبب عند وصول أنجي وساندي.

قالت أنجي: «مساء الخير جميعًا. حبيبي جيمبوي، أحضرت لك شريحة لحم لذيذة، وبعض البسكويت معها. ادخل وتناول طعامك فيما أرتدي ملابسي للذهاب إلى التدريبات. عليّ الإسراع».

ردّ جيمبوي من دون أن يتحرك: «لا نريد شريحة لحم الآن. تناولتُ والخالة هاغر أسماكًا طازجة وخبز الذرة بالبيض وشبعنا. لسنا بحاجة إلى المزيد من الطعام».

ردّت أنجي بخيبة أمل: «أوه!.. حسنًا، ادخل على أي حال يا عزيزي، لنتحدّث بينما أرتدي ملابسي». فنهض بتكاسل وتبع زوجته إلى المنزل.

بعد برهة جاءت الأخت جونسون، وقد تبعتها ويلي ماي الحاضرة على الدوام، عبر الظلام الرمادي المزرقّ من المنزل المجاور. «مساء الخير أيتها الأخت ويليامز، كيف حالك اليوم؟».

أجابتها هاغر: «لا بأس، لكنني تعبت من الغسل والشطف. تفضلي.. ساندي، ادخل إلى المنزل وأحضر للأخت جونسون كرسيًا لتجلس عليه.. أين توم؟».

«يا ربي، خلَد إلى النوم منذ وقت طويل. وظيفة حَفر المجاري لا تناسب رجلًا في سنّ توم. إنه مرهق للغاية، انتهيت من الغسيل للسيدة كوهين اليوم، مم! هذا الكرسي مريح! أشعر في الغسيل وكأن لديها ملابس خمسين طفلًا. لديها توأمان، كما أنها أنجبت مولودًا العام الماضي».

استمرت محادثة المرأتين العجوزين بينما يركض حفيداهما عبر الفناء الأمامي وهما يضحكان، يصرخان، ويتصارعان؛ يلتقطان اليراعات ليراقباها تتوهج في قبضاتهما، ثم يطلقانها لتتلألأ في هواء الليل القائظ.

خرجت هاربيت من المنزل وهي تغني قبل أن تجلس على حافة الشرفة. «يا رباه، الطقس حار جدًا! كيف حالك يا سيدة جونسون؟ لم أرك في الظلمة».

قالت المرأة العجوز: «لا بأس يا ابنتي، لكنني لا أستطيع أن أشتكي. حينما تصبحين في مثل سنّي يا عزيزتي ستكونين على ما يرام لمجرّد أنك حيّة، وليس كما تعيشون أنتم الشبّان في هذه الأيام! لم لا تذهبي إلى حفل ما هذا المساء؟».

قالت هاربيت ضاحكة: «أوه، ليس هناك حفل الليلة، إضافة إلى ذلك فإن وظيفتي الجديدة مُنهِكة يا سيدة جونسون، عليّ البقاء في المنزل والحصول على بعض الراحة الآن. أنا عاملة مطبخ في مطعم نيو ألبرت ذاك، والوقت الذي أُمضيه في مصارعة القدور ومجادلة النادلات البيض والطّهاة الملونين، يجعلني غير قادرة على الخروج ليلًا، إلّا أن مدة العمل ليست سيئة، ونتناول طعامًا جيدًا، و.. حسنًا، لا يمكن للمرء أن يتوقع الحصول على كل شيء». هزت كتفيها على العمود الرفيع الذي أسندت ظهرها إليه.

قالت هاغر وهي تتأرجح على كرسيها الهزّاز راضيةً: «طالما أن العمل يبعدك عن التسكع في الشوارع، فأنا سعيدة. ربما يمكنني إقناعك بالذهاب إلى الكنيسة مجدّدًا الآن».

ردّت البنت: «لا أحبّ الكنيسة».

قالت الأخت جونسون وهي تتحسّس جيب مئزرها: «لا أستطيع لومك كثيرًا يا صغيرتي، فقد أصبحت الكنائس غريبة هذه الأيام.. ساندي، اذهب إلى المنزل واطلب من والدك عود ثقاب لأشعل به غليوني.. لم يعد الأمر يتعلق بيسوع إطلاقًا. فلم يعد الكهنة يكترثون مطلقًا بيسوع الفقير، بل كل ما يهمّهم هو جمع هذا وذاك، فيقولون: الممشى بحاجة إلى سجّادة جديدة، والقسّ بحاجة إلى مروحة كهربائية لكي لا يشعر بالحر». بصقت الأخت العجوز في الفناء. «المال! هذا كل ما يهمّهم! وهناك ديانة البِيض تلك، نجّنا يا رب! لا داعي لذكرها».

وافقتها هاغر الرأي، فقالت: «كلامك صحيح، فإن أُوصدت أبواب الجنة في وجه البيض كما تُوصد أبواب كنائسهم في وجهنا نحن الملوّنين، سيكون الأمر سيئًا للغاية! نعم يا سيدتي! هناك أمر وحيد مؤكد، وهو أن الربّ ليس متحيزًا!».

قالت هاغر: «لا، لكنه لا يحبّ ما هو مكروه، سواءً كان لدى الزنوج أو البيض».

«بالحديث عن دين البيض»، قالت أنجي وهي تخرج من المنزل مرتديةً فستانًا أبيضَ جديدًا، «السيدة رايس التي أعمل لديها تفكر في لعب البريدج يوم الأحد أكثر مما تفكر في الصلاة، فأنا لم أرها تصلّي قَطّ».

قال جيمبوي من خلفها: «أنتم مجانين، يُفترض بالناس أن يمرحوا قليلًا أيام الأحد. هكذا حياة الملونين الآن، يعملون طوال أيام الأسبوع

ويجلسون في الكنيسة طوال يوم الأحد، من دون أن يعرفوا ما يحدث في بقية العالم حتى».

«هاه!» همهمت هاغر.

وابتسمت أنجي قائلةً: «حسنًا، لن نتجادل الآن يا عزيزي، تعال وامشِ معي قليلًا يا حبيبي، الساعة قاربت التاسعة، وكان عليّ الحضور إلى القاعة في الثامنة، لكن الملوّنين يتأخرون دومًا. هيا يا جيمبوي».

«وداعًا يا أمي»، صاح ساندي من الحديقة بينما مشي والداه الهوينى عبر الشارع معًا.

قالت هاريت: «جيمبوي مُحِقّ، الزنوج يحبّون الكنيسة أكثر من اللازم، أما البيض فلا يكترثون بشأنها إطلاقًا. إنهم منهمكون في جمع الثروات من هذا العالم، وليس من الله، ولا ألومهم على أي شيء، سوى معاملتهم الزنوج بلؤم شديد. لكنهم محقّون في بحثهم عن مصلحتهم، ولكنني أكرههم مع ذلك. كما ليس عليهم أن يسيئوا معاملتنا أيضًا، أليس كذلك؟».

قاطعتها هاغر: «لا تتحدثي هكذا يا عزيزتي، هذا ليس مسيحيًا يا ابنتي، إن كنتِ لا تحبينهم، صلّي من أجلهم، لكن لا تكنّي مشاعرَ شريرة تجاههم. عشتُ زمن العبودية، وعاشرت البيض طوال حياتي، وهم يظنون أنفسهم طيّبين، لكن حينما يتعلق الأمر بالزنوج المساكين فهم لا يفكرون إطلاقًا، هذا كل ما في الأمر».

فتحت هاريت فمها لترد، إلّا أن جيمبوي الذي ترك أنجي عند الزاوية وعاد إلى الشرفة، سبقها ضاحكًا: «نحن شديدو السّمَار بالنسبة إليهم يا سيدتي. كيف سيروننا في الظلمة؟ يجب عليكم أيها الملوّنون أن تصبحوا أفتح، هذا هو الحل!».

قالت الأخت جونسون: «اخرس أيها الخلاسي المتعجرف!».

اختلفت العجوز تمامًا مع صديقتها المقرّبة: «البيض لا يتغيرون، وهم لئيمون! لا أستطيع موافقة هاغر على ما تقوله. أعرف البيض منذ خمسة وستين عامًا، أليسوا هم سبب وجودي هنا في سانتون بدلًا من دياري؟ أولئك الأشرار القذرون! ألم أُربّ ثلاثة أولاد بيض كما لو كانوا أولادي؟ وأليس أولئك الصبيان الثلاثة أنفسهم من انقلبوا علينا وساعدوا في طردي وتوم من المدينة؟».

سحبت الأخت العجوز نفَسًا طويلًا من الغليون المصنوع من كوز الذرة، لتتوهج بقعة حمراء نارية في وعائه، بينما توقفت ويلي ماي وساندي عن اللعب وجلسا على الشرفة عندما بدأت بقَصّ حكاية سمعها الجميع عشر مرات على الأقل.

سألتهم الأخت جونسون: «حكيت القصة لكم من قبل، أليس كذلك؟».

كذب جيمبوي الذي كان متشوقًا إلى أن تتابع كلامها: «لم تحكها لي».

أكّدت هاربيت لها: «لا، لم تحكِها».

«حسنًا، اسمعوا ما حدث»، وتتابعت أحداث القصة وحدها، وفي التفاصيل الأولية حكت كيف عملت الأخت جونسون كشابة مُحرّرة بعد الحرب الأهلية في خدمة عائلة مزارع أبيض في مدينة ميسيسيبي بالقرب من فيكسبيرغ. وفي أثناء ارتباطها بهذه الأسرة تزوجت من توم جونسون الذي عمل في الحقل، وربّت أولادها الخمسة في السنوات التالية، إلى جانب رعايتها أولادَ سيدتها البيضاء الثلاثة، وإرضاعهم من ثدييها الأسمرين، وتَرْكها أولادَها أحيانًا لتأتي وتقيم مع الأطفال البيض حينما يمرضون. كانوا ينادونها أمي أيضًا، وحين أصبحوا رجالًا وتزوّجوا، واظبت على زيارتهم والعمل لدى عائلاتهم أحيانًا.

«حسنًا، عشنا نحن الزنوج في أطراف المدينة التي سمّاها البيض كروفيل، وامتلك معظمنا منازلَ صغيرة ومزارعَ، وزرعنا القطن والبطاطس الحلوة وما إلى ذلك. حسنًا، عندها بدأت المشكلة! رأى البيض أننا نعيش أفضل من اللازم! لكننا لم نُلقِ لهم بالًا، فيما كانوا يستعيدون ذكريات الماضي بدأنا جميعًا في تحسين منازلنا وطلاء أسوارنا، وبدت كروفيل جميلة حينما انتبه إليها البيض، لذا سمعناهم نحن الخدم يتحدثون عن عيش الزنوج في منازل مطلية وارتداء ملابس لائقة كأيّ أحد! استمر الأمر لبعض الوقت، وبينما تابع البيض كلامهم تحسّن حال الملونين عامًا تلو الآخر. فأصبحنا نبيع المزيد من القطن يومًا بعد الآخر ونشتري أثاثًا جميلًا وآلات بيانو، وشيئًا فشيئًا اشترى رجل زنجي يُدعى جون لودينز واحدة من تلك السيارات الجديدة، فكانت القَشّة التي قصمت ظهر البعير! طلب رجل أبيض من جون في ذات ليلة سبت أن يخرج من تلك السيارة، لأنه لا يجوز لزنجيّ أن يقتني سيارة بأيّ حال! فقال جون: (لن أخرج!)، فصعد الرجل الأبيض، الذي كان ثملًا، إلى مِرقاة السيارة ولكَمَ جون في فمه لأنه ردّ عليه، فقد كان رجلًا أبيض، ولم يكن لودينز سوى زنجيّ. قال: (يا للوقاحة!)، ولكَمَ جون ستّ أو سبع مرات في وجهه. ثم سحب جون سلاحه! واحد! اثنان! ثلاثة! أطلق النار، فأصاب ذلك العجوز الأبيض ذي العنق الأحمر في كتفه، لكنه لم يمت! لم يكن هناك ما يمكن أن يقتل رجلًا ثملًا أبيض، إلّا أن جون ظنّ نفسه قد قتل هذا الرجل الأبيض، لذا تركه ينازع في الشارع بينما هرب بسيارته على جناح السرعة، متّجهًا إلى فيكسبيرغ، واستقلّ قاربًا نهريًا.. حسنًا يا سادة! عجّت كروفيل ليلتها بالبِيض والكلاب والأسلحة والفوانيس، كانوا يصيحون ويصرخون ويرهبوننا نحن السود ويوقظوننا في الليل بحثًا عن جون ولم يجدوه، ثم قالوا إنهم سيلقّنون زنوج كروفيل درسًا، فجميعهم طلوا منازلهم واشتروا عربات ويعيشون مثل البيض، لذا طرقوا أبوابنا وأمرونا بترك

منازلنا وحقولنا، لأنهم لم يرغبوا في قتل أحد ليلتها!.. حسنًا يا سادة! هرب الزنوج مرتدين العباءات الليلية والملابس الداخلية والقمصان الداخلية، نصف عراة وحفاة الأقدام، في كل اتجاه تحت جنح الظلام، فجُرحت أقدامهم بالحصى، وسقطوا على وجوههم، خائفين حدّ الموت! العجوز المسكينة (فيني) التي لم تتزحزح من سريرها لستّ سنوات بسبب إصابتها بالشلل، أجبروا بناتها على حملها، فخرجن جاحظات يصرخن وهنّ يحملنها في رقعة قماشية من القطن. أما براين الذي كان ينام عاريًا، نهض وارتدى مريلة زوجته راكضًا مثل الأرنب من دون أن يلبس شيئًا آخر! ملأ زعيق الأطفال كل مكان، فيما طلب الرجال الرحمة وأطلقوا الشتائم، أما النساء فصرخن: (الرحمة يا رب) وبياض عيونهن ظاهر!.. ثم تراءى لي نحو خمسمئة رجل أبيض يمسكون المشاعل ويضرمون النار في كل منزل، وقنّ، وكوخ، وحظيرة، ومرحاض، وسقيفة، وحظيرة أبقار! وحينما اندلعت النيران ناح كلّ الزنوج في الحقول، طالبين الرحمة من الربّ! وارتفعت النيران لتنير الريف بأكمله وصولًا إلى الغابة! استطعنا شمّ رائحة النيران ورؤية حمرتها، وتَذَوّق الدخان والشعور به يلذعُ الأعين. كما استطعنا سماع الألواح الخشبية تنهار والزجاج يفرقع والحيوانات المسكينة تُشوى وتُقلى وتهلك وهي مربوطة. هربت بقرة وقد تمكنت منها النيران، فيما كان حليبها ينهمر. وتصاعد الدخان فصارت حقول القطن حمراء.. ولم يعد هناك أثر لكروفيل بعد تلك الليلة. لا يا سادة! لم يترك البيض شيئًا للزنوج، ولا حتى لوحًا فوق آخر، ولا حتى بيتًا للكلاب.. حينما انتهى الأمر لم يبق شيء سوى الرماد!.. كان الرجال البيض في كل مكان مُشهرين أسلحتهم ليخيفوا السّود المساكين ويبعدونهم، وقال أحدهم: (أنوي أن أجرّب الرصاص على كل ما لديكم، لأرى إن كان مقاومًا للرصاص، جمعتم الأموال، وطليتم منازلكم وتسيرون بين البيض بعرباتكم التي تعمل بالبنزين! حسنًا، بعد ما حدث عليكم أن تحنوا

ظهوركم وتعملوا قليلًا!) ذلك ما قاله الرجل الأبيض، لكننا لم نفعل ذلك وقتها! لأن كل السّود رحلوا عن ذاك المكان صباح الأحد. كان من المضحك حقًا رؤية أولئك العجائز الذين لم يخرجوا قَطّ من الغابات غير المأهولة يمضون بصمت ويرحلون. قالت والدتي بايلي: (جعلني الربّ أعيش ثمانين عامًا في مكان واحد، لكنني سأعيش الثمانين عامًا التالية في سانت لويز). وخرجت بلا حقيبة أو أمتعة.. وأخذت أنا وتوم ويلي ماي وذهبنا إلى القاهرة[1]، وبدأ توم العمل في السكك الحديدية مع مجموعة؛ ثم جئنا إلى هنا، قبل خمسة فصول صيف من شهر أغسطس هذا. لم يكن لدينا أي خرقة نلبسها حينما تركنا كروفيل، لذا لا تحدثيني عن طيبة البيض يا هاغر، لأنني أعرفهم... أعرفهم جيدًا... فهم من جعلوني أرحل عن دياري».

طرقت العجوز غليونها على حافة الشرفة، وأفرغت رماده في الفناء، وللحظة لم يتحدث أحد. شاهد ساندي مرتجفًا شهابًا يسقط خلف الأشجار. قبل أن يكسر جيمبوي الصمتَ بصوته العميق الذي يشبه همهمة مرّة في الظلام، فقال: «أعرف أناسًا بِيضًا أيضًا. فقد عشت في الجنوب».

قبل أن تضيف هاريت بنبرة صادقة: «وأنا لم أذهب إلى الجنوب قَطّ، لكنني تعرّفت إليهم هنا... وأنا أكرههم!».

قالت هاغر: «الربّ يسمعك».

«لا أكترث إن كان يسمعني يا أمي! أنت وأنجي ليّنتان جدًا، تتقبلان كل ما يقوله لكما البِيض، فيقولون راكون[2] في وجهك، وزنجية حينما

(1) المقصود بها مدينة القاهرة الواقعة في مقاطعة الإسكندرية التابعة لولاية إلينوي.

(2) هي إحدى المفردات العنصرية والمهينة التي كان يصف بها بعض البيض أصحاب البشرة الملوّنة.

تديرين ظهرك، من دون أن تقولا أي شيء. تذهبين إلى أبواب منازل البيض الخلفية لتحصلي على كل عمل، ثم يدفعون لك دولارًا مقابل عمل يستحقّ خمسة دولارات، ويطردونك فور أن يشعروا بعدم الحاجة إلى خدماتك».

قال جيمبوي: «إنهم يفعلون ذلك فعلًا، ليس لديهم مانع من طردك، ألم أكن أرصف الطوب في بناء ديلي ليدر حينما قال النقابيّون البيض إنهم لا يستطيعون العمل معي لأنني لم أكن ضمن النقابة؟ لذا جاء الرئيس ودفع لي مستحقاتي وطلب مني الرحيل. قال لي: (أنت رجل طيّب، لكنني لا أستطيع مجابهة النقابة). لذا قلتُ له إنني سأنضمّ، لكنني قبل أن أذهب إلى المكتب، كنتُ أدرك في أعماقي أنهم لن يسمحوا بذلك، لكنني حاولت على أي حال، قلت لهم إنني عامل بناء، وسألتهم كيف سأعمل إن لم أنضمّ إلى النقابة. والرجل الذي كان لديه البطاقات، أظنه السكرتير، قال بنبرة عطوفة وحادّة، كأنه لا يريد أن يزعج نفسه: (هذه مشكلتك أيها الشاب، ليست مشكلتي). لذا يمكنكم فَهْم كم تكترث النقابة لعمل السود من عدمه».

أكّدت الأخت جونسون كلامه: «ألم يواجه توم المشكلة عينها؟ فقد طُرد من العمل أكثر من مرة بسبب نقابات البيض».

قال جيمبوي: «أوه، إنهم يحاصروننا بالفعل، فالبيض مثل المزارع الذي يملك جميع الأبقار ويجعل الزنوج يعتنون بها، ثم يجعلك تدفع ثمنًا باهظًا للحليب المقشود ويحتفظ بكل القشدة لنفسه، لكنني أظنّ أن القشدة دسمة جدًا بالنسبة إلى الزنوج ذوي الرّكب الصدئة!».

ضحكوا جميعًا.

قالت هاربيت: «هذه دعابة جيدة. أتعرفون ذلك العجوز رايت الذي يمتلك مطحنة الدقيق والفندق الجديد، أتعرفون كيف جعل النساء صاحبات البشرة الملوّنة يعملن لديه في مصنع التعليب؟ حسنًا، أقام

ملجأ للأيتام من ذوي البشرة الملوّنة، ثم قدّمه للمدينة العام المنصرم. بنى المكان بالكامل بمساحة تقارب غرفة السفرة في منزله. حبسوا الزنوج الصغار في ذلك الملجأ مثل الدجاج، وقد شُيّد ذلك المكان لإبعاد الأطفال الملونين عن المدينة، ووفر لهم ملاعبَ جميلة، لأنه يعتقد أن العِرقين لا يجب أن يختلطا! لكنه لا يكترث بمدى مشقّة عمل الملونين في معمل التعليب الخاص به، أليس كذلك؟ ألم أعمل هناك ثلاث عشرة ساعة يوميًا في موسم الطماطم؟ لقاء تسعة سنتات للساعة، وخمسة سنتات للعمل الإضافي بعد عشر ساعات، ومن الأفضل أن تعملوا لساعات إضافية إن أردتم الاحتفاظ بوظيفتكم!... أما بالنسبة إلى اختلاط الأعراق فاسألوا بعض النساء صاحبات البشرة الفاتحة من السود اللواتي عمِلن هناك. فهنّ يعرفن الكثير عن اختلاط الأعراق!».

ردّت هاغر: «تعيش معظمهن في قاع المدينة، حيث توجد المواخير. من المخزي أن يُبقي الرجال البيض هذه الأماكن النجسة نشطة».

«هذا ليس مسيحيًا، صحيح؟»، قالت هاربيت بنبرة ساخرة... «البيض!» وهزّت كتفيها بازدراء، فقد واجهت العديد من المواقف البغيضة بسبب البيض. ترسّخ انطباعها الأول المفاجئ والكريه عن عالم أصحاب البشرة الشاحبة في سنّ الخامسة، عندما ذهبت بمفردها ذات يوم لتلعب في فناء عائلة بيضاء ودودة، كان هناك بعض الأولاد الصغار المؤذين، الذين أمسكوا بضفائرها القصيرة المفتّلة وشدّوها بدافع المتعة، قبل أن يدوروا ويتراقصوا حولها صارخين: «سوداء! سوداء! سوداء!» لتبدأ بالصراخ وتحاول الهرب، إلّا أن الأولاد شدّوها من ضفائرها بشكل مريع، وضحك أصدقاؤها لأنها كانت سوداء وبدا مظهرها مضحكًا. لذا منذ ذلك الوقت، لم تشعر هاربيت بالراحة في حضور البيض، وقد تعمّق ذلك الجرح المبكر مع كل حادثة جديدة، ليتحوّل إلى ضغينة لا تستطيع إخفاءها، وكراهية أضحت ألمًا.

ولأنها برعت في الغناء والرقص واتّسمت بالظُّرف على الدوام؛ تشكّلت صداقة بينها وبين العديد من الفتيات البيض في المدرسة الثانوية. لكن عندما يُقرع جرس الثالثة ونصف ويحين وقت الذهاب إلى المنزل، تدرك هارييت أن كلمة «إلى اللقاء» المهذّبة من صديقاتها هي طريقتهن في قول: «لا يمكننا الظهور في الشوارع بصحبة فتاة ملوّنة». ظلّ التسكع مع أولئك الشابات أنفسهنّ مقبولًا في سنوات الدراسة الابتدائية، حينما كنّ أصغر سنًا، إلّا أنهن وقتها بدأن يشعرن بنظرات الشبّان البيض تحدّق من نوافذ صالات البلياردو، أو من ملاعب التنس بالقرب من المنتزه، لذا لم يعد من المقبول الظهور مع هارييت.

لكن تلقّت الفتاة طعنة غير متوقعة في كبريائها قبل بضعة أسابيع فقط، حينما ذهبت رفقة زميلاتها في الفصل، بعد أن حصلت على تذاكر من المدرسة لمشاهدة فيلم تعليميّ عن عالم ما تحت البحار في مسرح بالاس الموجود في شارع ماين. كان عرضًا خاصًا للطلاب، وحصلت طالبات كل فصل على مقاعد مخصّصة لهنّ؛ لذا جلست هارييت مع زميلاتها في الفصل مستمتعة إلى أقصى حدّ بالعجائب الغريبة لأعماق المحيط، قبل أن تلمسها إحدى المرشدات على كتفها.

قالت الفتاة التي لبست زيًا رسميًا: «الصفوف الثلاثة الأخيرة على اليسار هي المقاعد المخصصة للملوّنين».

فتمتمت هارييت: «أنا... لكن... لكنني أجلس في الأماكن المخصصة لفصلي. من المفترض أن نجلس جميعًا هنا».

«الأمر ليس في يدي»، أصرّت المرشدة مشيرة إلى مؤخّرة المسرح، بينما صدح صوتها في كل مكان. «هذه هي قوانين المكان، لا تجادليني الآن، عليك الانتقال إلى هناك».

فنهضت هاريت وتعثّرت في الممرّ المظلم وخرجت إلى نور الشمس، وقد اشتعل جسدها الأهيف حرجًا وغضبًا. رأتها المعلمة تغادر المسرح من دون أن تحتج بكلمة، ولم تدافع عنها أيّ من زميلاتها البيض لكونها سوداء. لم يكترثن مطلقًا.

اختتمت هاريت كلامها بمرارة: «كلّ البيض متشابهون، في المدرسة وخارجها»، وهي تروي تجاربها للجالسين معها على الشرفة في الظلام.

«ذات مرة، حينما عملت لدى السيدة ليونارد بيكر في جادة مارتين، كسرت إبريقًا زجاجيًا ثمينًا يُستخدم لخدمة الضيوف القادمين من خارج المدينة عن غير قصد. وحينما حاولت الاعتذار عن الحادث صرخت السيدة بيكر بغضب: «اخرسي أيتها الخادمة السوداء البغيضة! تردّين في وجهي بعدما كسرتِ أطباقي، كل الزنجيات متشابهات، عاهرات، مهمِلات، ولم أكن لأترك واحدة منكن تدخل منزلي لو كان في استطاعتي جَعل أي شخص آخر يعمل لديّ من دون دفع ثروة له. أنتم جميعًا لا تطاقون».

قالت هاريت للخالة هاغر والأخت جونسون وجيمبوي، فيما كان الطفلان يستمعان إليها: «إذًا هذا شعور البيض حيالنا، لو كان الأمر في يدهم لما تركوا أحدًا منّا يعيش معهم. لا يهمّهم إن فُصلنا من عمل، لا يهمّهم إن كان الزنوج لا يستطيعون الجلوس سوى في الصف الخلفي ضمن صالة السينما. لا يهمّهم جرح مشاعرنا من دون اكتراث، ومعاملتنا مثل العبيد في الجنوب ومثل المتسولين في الشمال. لا، لا يهمّهم ذلك إطلاقًا... يحكم البيض العالم، ولا ينتظرون من الزنوج شيئًا سوى العمل والابتسام ورفع القبعات كما لو أن ذلك لا يهمّ... أوه، أكرههم حقًا!». صرخت هاريت بشراسة أفزعت ساندي. «أنا أكره البيض!» قالت ذلك لكل شخص على الشرفة في الظلمة. «يمكنك الصلاة من أجلهم إن أردتِ ذلك يا أمي، لكنني أكرههم! أكره البيض! أكرههم جميعًا!».

حفلة راقصة

عادةً ما كانت تُمضي السيدة جي. جي. رايس وعائلتها عشرة أيام عند بحيرة ديل في أثناء قيظ أغسطس، وقد ذهبوا إلى هناك الآن، مانحين أنجي إجازة قسرية غير مدفوعة. لم يكن جيمبوي يعمل، ولهذا رأت زوجته أن عشرة أيام من الراحة من دون أيّ دخل أمرٌ غير مقبول. على الرغم من ذلك قررت أنها قد تستمتع بهذا الوقت أيضًا؛ لذا ذهبت مع جيمبوي إلى الريف لأسبوع رفقة قريبتها جيسي، التي تزوجت إحدى المزارعين الملوّنين في تلك المنطقة. إضافة إلى ذلك ظنت أنجي أن جيمبوي يمكنه العمل في المزرعة وجني بعض النقود. وعلى أي حال سيحصلون على طعام وفير، لأن سفرة جيسي عامرة دومًا بالكثير. وبما أن جيسي لديها ثمانية أطفال، لم يأخذوا ساندي معهم، فثمانية أطفال يقلقون جيسي بما يكفي!

أمضت الخالة هاغر نهار الجمعة بطوله في كيّ ملابس عائلة راينهارت. عادت هاريت إلى المنزل في السابعة، لكنها كانت قد تناولت عشاءها في المطعم الذي تعمل فيه بالفعل.

قالت: «مرحبًا يا أمي! مرحبًا يا ساندي!» من دون أن تضيف أي كلمة أخرى، لأن علاقتها بوالدتها لم تكن في أفضل حال. كانت الخالة هاغر تحاول معاقبة ابنتها الصغرى بعدم السماح لها بالخروج بعد حلول الظلام، بما أن هاريت ليلة الثلاثاء ظلّت خارج المنزل حتى الواحدة بعد منتصف الليل من دون أن تجد عذرًا أفضل من حضورها حفلة في منزل مودل، فهدّدتها الخالة هاغر بجَلدها في تلك الليلة.

«لم تتلقّي مني ضربة بالسوط منذ ثلاث سنوات، لكن لا تظني أنكِ كبرتِ على العقاب يا مدام. قيل في الإنجيل: (من يمنع عصاه يمقت ابنه، ومن أحبّه يطلب له التأديب)، والربّ أعلم بأنك مدللة أكثر من اللازم! وصلت الوقاحة بشابة في مثل سنك إلى البقاء حتى الواحدة بعد من منتصف الليل خارج المنزل، ومن دون أن أعرف مكانك... لا تردّي عليّ! عليك البقاء في المنزل كلّ ليلة هذا الأسبوع، ولن تخطي خطوة خارج الفناء بعد العودة من العمل، وإلا فالربّ أعلم بما سأفعله بك. أعمل وأصلي من أجلك، وإن لم تكترثي لذلك فلن أتوانى عن جَلدك، حتى لو كنتِ في السابعة عشرة من عمرك!».

دخلت هاربيت الليلة إلى غرفة والدتها فور عودتها من العمل واستلقت على السرير. كان الجو حارًا في المنزل الصغير المكوّن من أربع غرف، وقد فُتحت جميع النوافذ والأبواب.

نادتها هاغر من المطبخ: «لدينا بعض البطيخ يا ابنتي، ألا ترغبين في شريحة باردة ولذيذة؟».

ردّت الفتاة باقتضاب: «لا»، فيما كانت تلوّح بمروحة من سعف النخيل، وقد اكتست ساقاها المتدليتان على جانب السرير بجوارب حريرية رخيصة، وأسندت كعبيها على الأرضية. كانت فرقة بينبو ستحيي حفلة راقصة في تشيفرز هول الليلة، وسيذهب إليها الجميع ما عداها. يا إلهي! من الصعب أن يكون لديك أمّ مسيحية! خلعت هاربيت خفّيها لتطلق صوتًا مدويًا، قبل أن تقلب على بطنها وتدفن وجهها الذي كسته البودرة في الوسائد... وفجأة طُرق الباب الخلفي.

تردّد صوت صبيّ يتحدث منفعلًا إلى هاغر: «هناك نزيف... ولا يستطيع أبي إيقافه... إنها تسعل بشكل فظيع... ألا يمكنك القدوم ومساعدته من فضلك؟». قال ذلك بصوت مرتعد وقد انقطعت أنفاسه.

صاحت هاغر: «يا للهول! سأوافيك على الفور يا بني. لا تقلق». قبل أن تهرع إلى غرفتها لتغيير مئزرها. «اسمعي يا هاريت، أُصيبت الأخت (لاين) بمرض شديد، ويقول جيمي إنها تنزف من فمها. إن لم أعد بحلول التاسعة فاحرصي على خلود ساندي إلى الفراش. ولا تغادري هذا الفناء تحت أي ظرف... مسكينة الأخت لاين! إنها تعاني بالتأكيد». قبل أن تضيف بصوت خافت: «أظنها مصابة بالسّل، هذا ما أشك فيه!». واندفعت المرأة العجوز إلى الخارج لتنضم إلى الفتى المنتظر. كان جيمي متكئًا على الباب، ونظر إلى ساندي من دون أن يعرف أيّ من الصبيّين ماذا يقول. اعتاد جيمي لاين انتعالَ حذاء والدته المهترئ إلى المدرسة، واعتاد ساندي مضايقته، إلّا أنه لم يضايق صديقه الليلة بشأن حذائه.

قالت جدته وهي تمضي عبر الزقاق مع جيمي: «اخلد إلى النوم قبل أن يتأخر الوقت». ليرد عليها ساندي: «حاضر يا سيدتي، إلى اللقاء يا جيم!»، وقف تحت شجرة التفاح مراقبًا إياهما حتى اختفيا عن الأنظار.

وبالكاد غابت الخالة هاغر عن الأنظار حينما دوّت طرقات مدوّية على الباب الأمامي، وركض ساندي حول المنزل ليرى حبيب هاريت (مينغو) واقفًا في الغسق خارج الباب الشبكيّ، وهو ينتظر أن تسمح له بالدخول.

كان مينغو فتى أسود بجلد لامع وفتحتيّ أنف عريضتين تنبضان بالحياة وفم تنفرج عنه ابتسامة عند أقلّ استفزاز. كان جسده ثقيلًا ومفتول العضلات، وقد أرخاه على ساقيه المقوستين إلى الخلف كما لو أنه يصعب عليهما تحمّل جسده الضخم؛ وكانت يداه قاسيتين من خلْط الخرسانة وحفر الخنادق لأنابيب المياه الجديدة في المدينة.

سمع ساندي خالته تقول عند الباب: «أعلم أنها ستُقام الليلة، لكنني لا أستطيع الذهاب». كانا يتحدثان عن حفل بينبو الراقص. «وفرقته لا

تأتي إلى هنا كثيرًا أيضًا. يحزّ في نفسي أن عليّ ملازمة المنزل، خاصةً الليلة، اللعنة!».

ناشدها مينغو قائلًا: «أوه، هيا بنا، لنذهب على أيّ حال، وفّرتُ ما جنيته لأسبوعين كي أصطحبك إلى هذه الحفلة، وقمت بتنظيف بدلتي وكيّها وما إلى ذلك. اللعنة! إن لم يكن في استطاعتك الذهاب وعرفتِ ذلك منذ الأمس، فلماذا لم تخبريني؟ هذه ليست طريقة لطيفة للتعامل مع شاب!».

فردّت هاريت: «لأنني أردت الذهاب، وما زلت أرغب في ذلك.... لا أكترث بشأن أمي كثيرًا، فهي تغضب مهما فعلت... لكن ماذا سنفعل بهذا الطفل؟ لا يمكننا تركه هنا لوحده». ونظرت إلى ساندي، الذي وقف خلف مينغو مستمعًا إلى كل الحديث.

«يمكنك اصطحابي معك»، عرض الطفل عليها بنبرة قلقة، فيما تراقصت عيناه لهذه الاحتمالية المبهجة. «سأحسن التصرف إن أخذتني يا هاري، ولن أشي بك أيضًا... من فضلك دعني أذهب يا مينغو. لم أحضر حفلًا راقصًا في حياتي قَطّ، أريد الذهاب».

سألت هاريت مينغو بشكّ: «أعلينا فعل ذلك؟»، وهي تنظر إلى صديقها الواقف بثبات على ساقيه المنحنيتين.

ردّ مينغو: «بالطبع سنصطحبه إن كنّا مضطرين إلى فعل ذلك، لا أكترث بشأنه! فاصطحاب الطفل معنا أفضل من عدم الذهاب إلى الحفلة. اذهبي وارتدي ملابسك». انطلقت هاريت إلى خزانة الملابس، بينما هرع ساندي ليحصل على سدرة نظيفة من أحد أدراج خزانة والدته، وساعده مينغو ليرتديها، فيما ظل يسبّ نفسه بهدوء، قبل أن يقول للصبي الصغير: «لكنه ليس ذنبك يا صاحبي، أليس كذلك؟».

ردّ عليه ساندي: «بالطبع لا، لم أطلب من الخالة هاغر أن تُلزِم هاري البقاءَ في المنزل، حاولتُ إقناع جدّتي أن تسمح لها بالذهاب»، كذب الطفل على مينغو، لأنه أُعجب به. «لكن أظنها لن تكترث بشأن ذهابها إلى حفلة واحدة»، أراد طمأنة الشاب من كل النواحي كي لا يقلق. إضافة إلى ذلك، رغب ساندي نفسه في الذهاب كثيرًا.

«لننطلق»، صرخت هاربيت بحماسة قبل أن تربط فستانها، وهي متلهفة إلى الرحيل خشية عودة والدتها إلى المنزل. وضعت البودرة على وجهها ورقبتها في الغرفة المجاورة، وقد اختلطت مشاعر التوتر والسعادة والخوف في قلبها.

قال مينغو بسخرية: «سيارتك في انتظارك يا سيدتي، تفضلي من هنا وهيا بنا!».

أتقلب في الحيرة متسائلةً أين ذهب محبوبي؟

رهن ساعتي الذهبية الجديدة، وتركني وحيدة.

وملأت استعادة أغنية محبوبي كل بوصة مكعّبة من القاعة الصغيرة بالأنغام الراقصة كدويّ أبواق قادم من الجحيم. تقدّم بينبو نفسه المنصّة وتمايل الجمهور مثل رقص قنديل بحر في أصداف، وغاب مينغو وهاربيت في وسط حشد الراقصين، إلّا أن ذلك لم يكن خيارهما، مع غياب كل زوجين في عالمهما الخاص من الرقص.

وبعد استراحة قصيرة جدًا على المسرح، تابعت الفرقة العزف مؤدّين رقصة الخطوة بتكاسل. صبي أسمر طويل يرتدي بدلة بنية فاتحة؛ قادَ شريكته على طول حلبة الرقص، وحين وصل إلى الزاوية استدار في مكانه، وجسده يدور حول ردفيه، وقد نظر إلى السقف، أما فتاته فقد اهتزّ صدرها الذي استند إلى قميصه الحريري الورديّ، قبل أن يقطعا عرض الحلبة، ويدورا ببطء، مكرّرين الحركة نفسها، وبدأا مرة أخرى في المشي بشكل

إيقاعيّ عبر القاعة، بينما كانت الموسيقى تنساب كنهر يجري ببطء بين الجبال، ناحتًا الوادي بكل برود وهدوء، ومن دون أي إصرار. ربما سمّوا ما كانت تعزفه الفرقة رقصة الخطوة على أنغام النهر الكسول بينما تحرّك الحشد الكبير بسلاسة أكبر في أرجاء القاعة. وعلى إيقاع دقات الطبلة المسموعة بالكاد، قاد الشاب الطويل الذي يرتدي بدلة بنية فاتحة شريكته مرة تلو أخرى في أنحاء القاعة، ليدور في كل زاوية رافعًا عينيه، وفيما انسابت أنغام البيانو مثل جريان الماء، وتردّد صوت أوتاره مرتفعةً وحادّة كالجبال الطافية بين الغيوم. لكن في نغمات مثيرة، وحيدة وأبدية، حكى البوق النحاسيّ قصة الأرض بقسوة.

جلس ساندي على كرسيّ خشبيّ قابل للطيّ، مسندًا ظهره إلى الحائط. كان هناك أطفال آخرون يجلسون وحيدين في كراسيّهم أيضًا ليشاهدوا الرّاقصين، لكن لم يتعرّف إلى أيّ منهم. عندما توقفت الموسيقى، سرعان ما امتلأت جميع الكراسي بنساء وشابات يتحدّثن بصوت عالٍ في ثيابهنّ زاهية الألوان، وهنّ يهوّين أنفسهنّ بالمناديل ويمسحن جباههنّ المتعرّقة. فكّر ساندي في منح كرسيّه لإحدى النساء حينما رأى مودل تقترب.

قالت له: «تفضل يا عزيزي، خذ هذا الدايم[1] واشتر لنفسك شرابًا باردًا. أعرف أن هارييت لا تفكر فيك وهي ترقص هناك. هذه الموسيقى ساحرة فعلًا يا صغيري!»، ضحكت وهي تعطي ساندي عملة معدنية وتغلق محفظة جيبها. أحَبّ مودل، على الرغم من عِلمه بأنّ جدته لا تشاركه هذا الشعور. كانت فتاة سمراء ضخمة وحسنة المظهر، تمشي متبخترةً وتضع الكثير من أحمر الشفاه، إلّا أنها كانت تعطي ساندي مالًا في كل مرة يلتقيان فيها، وتضحك دومًا.

(1) قطعة نقدية معدنية بقيمة 10 سنتات. (المترجم).

عبرَ الحشد وصولًا إلى كشك المشروبات الغازية في طرف القاعة. قال لرجل سمين ملوّن برتقاليّ البشرة، طوى أكمامه وارتدى مئزرًا يشبه مئزر اللحّامين يغطّي بطنه المستدير: «أعطني زجاجة صودا بنكهة الكريمة». وضع الرجل ذراعيه في حوض من الزنك مليء بالثلج والماء وبدأ في سحب الزجاجات، ناظرًا إلى أغطيتها، قبل أن يعيدها إلى السائل المثلّج.

سأله بصوت اخترق هرج الكلام الذي ملأ المكان: «يبدو أن نكهة الكريمة نفدت لدينا يا بنيّ. ما رأيك في نكهة الليمون؟».

قال ساندي: «لا. طعمها لاذع جدًا».

عُرضت على المنضدة البارزة أوانٍ وُضع فيها الفشار والفول السوداني المغطى بالكراميل، الفول السوداني المملّح، علبة علكة، ومعطّرات الفم. أمّا خلف المنضدة فقد وُضع موقد زيت مشتعل، فوقه أطباق قصديريّة مليئة بالأضلاع والنقانق والسمك؛ وبالقرب منها ثلاجة آيس كريم مغطّاة بكيس بنّي. تابع الرجل بحثه بتفحّص بعض زجاجات الصودا التي رقدت على الأرضية بالقرب من الحوض المملوء بالزجاجات.

قبل أن يقول الرجل السمين: «لا توجد صودا بنكهة الكريمة بينها».

أجابه ساندي وهو يشعر بفخر شديد لأن بعض الأطفال وقفوا بالقرب منه، ينظرون إليه وهو يشتري كرجل بالغ: «حسنًا، أعطني شطيرة سمك إذًا».

قالت له فتاة صغيرة بشرتها بلون البسكويت ترتدي فستانًا أبيض مكشكشًا ومتّسخًا: «اشترِ لي شطيرة أيضًا».

قال ساندي: «لا أملك سوى دايم واحد، لكن يمكنك أن تأخذي نصف شطيرتي». وقسَم المربّع المزدوج من الخبز السميك، وقطعة السمك المدهّنة بينها بأناقة، وسلّم بوقار الفتاة الصغيرة المبتسمة نصفًا.

قالت، وهي تركض مبتعدة حاملةً الخبز والسمك في يديها: «شكرًا».

مازحه صبيّ صغير، وهو يفرك أصابعه بساندي: «عار عليك! أصبح لديك حبيبة! أصبح لديك حبيبة!».

ردّ ساندي بنبرة عادية، وهو ينتشل العِظام ويتلمظ بالسمك المقليّ حلو المذاق: «اهتم بشؤونك!».

عزفت الأوركسترا مقطوعةً أخرى لرقص الخطوة، وسار الراقصون مثل المكّوكات فوق الأرضية. رأى ساندي خالته هاربيت وصبيًا نحيلًا أصفر البشرة يُدعى بيلي ساندرلي وهما يؤديان سلسلة من الخطوات البطيئة والمعقدة، فيما تابعا طوافهما عبر الحشد بين طرفي القاعة. كان الأزواج الأقل براعةً يراقبونهما بنظرات امتلأت إعجابًا.

عندما انتهى من الطعام، قرّر ساندي البحث عن الحمّام ليغسل يديه، فقد غطّاهما الدّهن وفاحت منهما رائحة السمك. كان الحمّام في الزاوية البعيدة من القاعة. ومع فتحه الباب الذي كُتب عليه للرجال، تسلّلت سحابة سميكة من دخان السجائر الرماديّ إلى الخارج. حوصر الفتى الصغير بين رائحة البول والجنّ وحشد من الرجال يتحدثون ويشتمون ويشربون الكحول، وهو يشقّ طريقه إلى المغسلة. تحدّث جميع الرجال فيما بينهم بصرخات مرتفعة وتَبادلوا ملاحظات عن أجساد النساء اللواتي رقصوا معهنّ.

صاح شابّ أسمر ببشرة بلون خشب الماهوغني: «عليك أن تحاول التقرّب من فيلما، إنها مثيرة للغاية».

ردّ عليه صوت تفوح منه رائحة الويسكي من مكان ما وسط سحابة الدخان: «تبًا، أتتحدث عن تلك المرأة السوداء ذات الشعر الفاحم المجعّد؟ أفضّل النساء الزنجيات ذوات البشرة الفاتحة دومًا. لا أحب الفاحمات إطلاقًا!».

احتجّ عليه شابّ أسود أملس الشعر توسّطَ المكان: «كلما اسْوَدّ التوت حَلَا عصيرُه... أليس هذا صحيحًا يا رفيقي؟»، سأل ساندي، بعدما أمسكه من رقبته وحمله بسخرية.

ردّ الطفل خائفًا: «أظن ذلك»، فضحك الرجال. أنزله الشاب ذو الشعر الأملس برفق عند الباب، قبل أن يعطيه نيكلًا ويقول له: «خذ يا فتى، اشتر لنفسك ما تشربه، واحرص على أن يكون شرابًا فوّارًا وليس جِنًّا».

في الخارج، جفّف الفتى يديه المبللتين بمنديل، أغمض عينيه اللتين أعماهما الدخان، واشترى على الفور صودا، شراب فراولة حمراء في زجاجة طويلة وسميكة.

دوى صوت البوق في الطرف الآخر فجأة ومن دون سابق إنذار في نحيب يصمّ الآذان: «وا!... وا!... وا!... وا!» وتَبِعه قَرْعٌ على الطبل الجانبي. توقّفٌ قصير... ثم تتالت نغمات الآلات النحاسية الصاخبة وانضمت إليها ألحان البانجو[1]، «بلينكا، بلينك، بلينك»، في تكرار يشبه قطرات المطر الخجولة بعد دويّ رعد مرعب. ثم بشكل عرضيّ، كما لو أن شيئًا لم يحدث، انسابت ألحان البيانو فجأة، وتبعتها كل الآلات الأخرى، قبل أن يقحم الطبّال إيقاعاته في الوقت الملائم.

صاح بينبو: «هزّوا أجسادكم جميعًا!»، بينما عمّت الضحكات أنحاء القاعة.

تمايل الأحبة بهدوء، وهم يذوبون بعضُهم في بعض مثل حلوى منسيّة تحت الشمس، والأرداف تدور بانسيابية مع الموسيقى. أرخت الفتيات رؤوسهن على صدور الرجال، أو أرخَنَ ذقونهنّ المغطّاة بالبودرة على أكتاف رفاقهنّ، فيما لفّ الشبّان الجامحون أذرعهم بإحكام حول خصور

---

(1) آلة موسيقية وترية، يتكون جسمها من طبلة صغيرة من جلد حيواني أو بلاستيك رقيق مشدود حول إطار دائري أشبه بالدف. (المترجم).

شريكاتهنّ، تاركين أيديهم تتدلى بلا مبالاة على أوراكهنّ. تحرّكت الأجساد بسلاسة معًا، بسلاسة هائلة، حين استدار بينبو إلى العازفين في فرقته وصاح براحتين مفتوحتين: «ارفعوا صوت الموسيقى يا شباب!».

ابتعدت فتاة طويلة ونحيلة عن شريكها خطوة إلى الوراء، محرّكةً وركيها، وأدّت وحدها بضعَ خطوات راقصة انسيابية وسلِسة قبل أن يُمسكها رفيقها مجدّدًا.

«إيووووووووو!» أَنَّ البوقُ مداعبًا الألم، بينما بكى البانجو في إيقاع منتظم، ونشج البيانو عاليًا في شغف سريّ إيقاعي. وحدها الطبول حافظت على ضحكتها القاسية الثابتة، وكأنها شخص لا يكترث لشيء.

«أراك ترقص بحماس أيها العمّ والت»، قالت فتاة بشرتها سمراء بلون أوراق الخريف، ترتدي تنّورة؛ لرجل ذي بشرة أرجوانية داكنة وقد التصق صدره بظهر فتاة فاتحة البشرة في منتصف حلبة الرقص. توقّف اثنان من السّود المتبخترين في مسارهما ليرتعشا بشدّة. فتحت فتاة كثيفة الشعر ذراعيها قبل أن تفرقع أصابعها، وتبدأ بالصراخ: «هيا!... هيا!»، فيما كان شريكها المتعرّق يشتبث بردفيها في محاولة لمواكبة رقصها. رقص الناس في جميع أنحاء القاعة مؤدّين حركاتهم الفردية على صراخ وأنين الموسيقى.

صاح ضابط الإيقاع وهو يتنطّط في كرسيه مثل كرة مطاطية: «انزلوا... أكثر... أكثر!» وبخّ البانجو في غبطة شيطانية، ولهثَ البوق كما لو انقطعت أنفاسه، وترك بينبو نفسه الفرقة وتقدّم إلى حلبة الرقص ليرقص ببطء ونشوة مع امرأة هندية ضخمة سمراء ومغطاة بالألماس.

صاح أحد معجبيه بجنون: «أوه، هيا يا سيد بينبو!»، إلى الحد الذي بدت فيه القاعة نفسها ترتعش.

ثم صرخ أحدهم: «ادنوا يا أصحاب البشرة الفاتحة! اقتربوا يا أصحاب البشرة السمراء! أما البنات السود، فابقين في أماكنكنّ!».

«وا! وا! وا!» هزأ البوق، إلّا أن قرع الطبول الرتيب لم يعد مَرِحًا، ولا بهيجًا حتى، احتدّت دقات الطبول لتطلق صوتًا فظًا، كأمواج عاتية تتكسر على صخرة من الغرانيت. وتعدّت الموسيقى كل حدودها تحت تأثير التعويذة الماجنة لإيقاعها. استكشف الرجال السود الأربعة في فرقة بينبو الجوّالة الأعماقَ التي لا يصلها صوت. أصبحت موسيقاهم وحشيّة، مقفرة وبدائية، مثل جسد امرأة مغتصبة على الأرض التي تلفحها الشمس؛ أضحت الموسيقى عنيفة وقاسية، كعملاق يقف فوق رفيقه النازف في الشمس الحارقة. روائح الأجساد، لسعات اللحم، وفراغ الروح المُطبق عند اكتمال الأشياء. هذه العناصر التي أصرّ البيانو والطبول والبوق ونقرات البانجو على مَزْجها لتبتكر منها إيقاعًا جَعلَ الراقصين يتحرّكون في تلك القاعة الصغيرة مثل بيادق فوق رقعة شطرنج محمومة.

صاح أحدهم: «أوه! استمِرّ يا سيد بينبو» تدور الأرض بدَأب، وتسطع الشمس عليها في رحلة أبدية لتُخصّبها، لتُخصّبها. لكنْ لِمَ تصرّين مثل الأرض أيتها الموسيقى؟ واحدة تدور والأخرى تُخصّبها، الأرض والشمس في أبدية دؤوبة. لكن لِمَ تصرّ مثل الشمس؟ مثل شفاه النساء؟ مثل أجساد الرجال أيها الدأب؟

«أوه! استمِرّ يا سيد بينبو».

لكن لمَ تصرّين أيتها الموسيقى؟

مَن يفهم الأرض؟ أتفهمها يا مينغو؟ مَن يفهم الشمس؟ أتفهمينها يا هاربيت؟ أهناك أحد بينكم يعرف؟ يا أصحاب البشرة الفاتحة، أيها الشبّان المتأنّقون، أيها الرجال الوسيمون والمتورّدون، أهناك بينكم يا أصحاب البشرة السمراء الشبيهة بجلد الفقمة، يا أصحاب البشرة السوداء الملساء، يا أصحاب البشرة الشوكولاتيّة؛ أهناك أحد بينكم يعرف الإجابة؟

«أوه! استمِرّ يا بينبو».

«حلّ منتصف الليل. صارت الساعة الثانية عشر، و...».

«أوه! استمِرّ يا سيد بينبو».

في أثناء الاستراحة، عندما توقف أعضاء الفرقة عن عزف الموسيقى لشرب الجنّ والتحدّث إلى النساء، اشترت هاربيت ومينغو علبة فول سوداني وفشار بالكراميل وزجاجة صودا أخرى لساندي وتركاه واقفًا في منتصف الأرضية ممسكًا بالاثنين. نسيت خالته الصغرى الوقت، لذا قرّر ساندي الصعود إلى الشرفة الضيقة المهجورة والتي تمتد على طول جانب واحد من المكان. غطى الغبار المكان في الأعلى، إلّا أن بعض الكراسي المحطّمة انتصبت بالقرب من الدرابزين، وجلس على أحدها. وضع ذراعيه على الدرابزين، وأرخى ذقنه على يديه، وحينما استؤنف العزف نظر إلى تَجمْهر الأزواج المتحركين فوق الأرضية. رأى عازف الدرامز الأسود الصغير النّشط بوضوح وهو يهتز بانتظام متقطّع في كرسيه بينما تنزل عصاه الطويلة الرفيعة على جلد طبلته الصغيرة المشدودة بإحكام، وتربّت قدمه على دوّاسة طبلته الكبيرة، التي كُتب عليها بأحرف حمراء كبيرة: «بينبو فرقة كانساس سيتي الشهيرة».

ومع ازدياد حدّة الخطى البطيئة (وانتهائه من تناول الفول السوداني والفشار بالكراميل)، نظر ساندي بنعاس إلى الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، يدورون ويلتفون في الأسفل. فساتين وبدلات من جميع الدرجات والألوان، وفوضى هائلة من الرؤوس كثيفة الشعر على الأجساد المتمايلة. تلألأت الوجوه مثل بالونات السيرك، صفراء بلون الليمون، سوداء بلون الفحم، رمادية بلون البودرة، سوداء بلون الأبنوس، وسوداء مزرَقّة؛ وجوه شوكولاتية وبنّية وبرتقالية وسمراء وذهبية كريمية، امتلأت القاعة بالوجوه التي بدت كالبالونات الطافية، كانت عينا ساندي قد

بدأتا تغلّفهما غشاوة النعاس، بالونات ملوّنة مربوطة بخيوط، والموسيقى تُحرّكها. لا! الفتيات تُحرّكنَ الخيوط، كل فتى هو بالون مربوط بخيط. كل وجه بالون.

أسند ساندي رأسه إلى درابزين الشرفة المغبرّ. وصلت إليه رائحة زيت الشعر والسمك، النساء والعرَق، وهو جالس هناك وحيدًا، متعبًا وممغوصًا بعض الشيء. كان المكان دافئًا وحميمًا، وملأت الثرثرة القاعة خلال الفواصل. قاومَ ساندي النّعاس كثيرًا، إلّا أنّ عينيه كانتا على وشك أن تطبقا عندما دوت في القاعة أغنية بلوز سانت لويس كأنها انفجار حزين يائس، أو كأنها شراب مُرّ، فتح الصبي عينيه للحظة على التدفق النّعِس للصوت الذي كان طويلًا بما يكفي ليقرّب كرسيًّا إلى آخر؛ ثم استلقى عليهما وأغمض عينيه مجددًا. كان هناك من يغني:

سيدة سانت لويس بخواتمها الماسية...

بينما ردّدت الفرقة أصواتًا كئيبة بصوت عالٍ وأسلوب نحاسيّ مع دخول الراقصين في حلمٍ بدا أنه نسيَ نفسه:

تربط حبيبي بخيوط مريلتها...

واه! واه! واه!... ضحك البوق بوقاحة مريعة. ثم بدأت الطبول تقهقه والبانجو يئنّ بشزر مهين. ردّد البيانو، مرارًا وتكرارًا: «سانت لويس! تلك المدينة الكبيرة القذرة حيث يصبح المسيسيبي عميقًا وواسعًا، عميقًا وواسعًا...»، ودارت أرداف الراقصين. رجلٌ قلبه كحجر مرميّ في البحر...

بينما غطت ألحان البانجو الساخرة أعماقًا يصعب سبر أغوارها بسطح رنّان من البهجة المتقطعة، كفقاعات متلألئة تطفو على السطح فوق رجل غرقَ للتوّ في المياه العميقة:

وإلا فلن يهجرني إلى البعيد أبدًا...

قبل أن تتوقف موسيقى الفرقة بنحيب طويل من البوق وضحكة خفيفة وقِحة من الطبول.

اجتاحت الغرفة موجة من التصفيق، ليتابع الموسيقيون العزف على الفور. إلّا أنهم هذه المرة لم يعزفوا سوى موسيقى البلوز، لا سانت لويس، ولا ممفيس، ولا الكلب الأشقر. بل مجرد مقطوعات بلوز قديمة بسيطة ومألوفة، تفطر القلوب وتنبض بالحياة، بلوز عن الهجران.

غاب الآخر عن أذهان الجميع حينها. تقاربت الأجساد المتعرّقة، تشابكت الأذرع، الخدّ إلى الخدّ، الصدر إلى الصدر، تراقصَ الأحبّة على إيقاع يُحاكي خفقان القلب، إلّا أن الكلّ غفلوا عن الآخر تمامًا. رقصَ الرجّال والنساء معًا فعلًا، إلّا أن أقدامهم اخترقت الأرضية نزولًا إلى الأرض، كل راقص وحده إلى مركز الأشياء، وغابت أذهانهم في قلب الوحدة، حيث لم يسمعوا الكلمات حتى، الكلمات الكاذبة أحيانًا، والضاحكة في أحيان أخرى عندما كان بينبو متكئًا على البيانو، يغنيها تحت جناح هذه الخلفية الموسيقية القانطة تمامًا:

حينما يتملّكك الشجن،
لا فائدة من الهرب.
حينما تتملّكك موسيقى البلوز الحزينة
لا فائدة من الهرب،
فالشجن مثل امرأة
تستطيع أن تشيب شعرك الجميل.
أومن أومب!... أومن!... أومن أومب!
حسنًا، قلتُ لك يا عزيزتي،
قلتُ لك يا عزيزتي، كوني من نصيبي

إلّا أن محبوبتي كانت مخادعة.
لا بدّ أنها ظنّتني أعمى.
دي دا! دي دا!... دي دا! دي دا! دي!
أوه، يا ربي، يا ربي، يا ربي،
يا ربي، يا ربي، يا رب... يا رب... يا رب!
هجرتني من أجل مقامر في تكساس،
لذا تعرفتُ إلى مومس أخرى.
واه واه!... واه واه- واه! تردّدت ضحكات البوق كأنها تخترق قلب الوحدة.

لم تكن موسيقى البلوز القديمة الكئيبة التي عزفتها الأوركسترا الصغيرة المكوّنة من أربعة رجال؛ لم تكن في حاجة إلى تدوين، لأنهم لم يكونوا ليتمكنوا من قراءتها. أربعة رجال وقائد، راتل بينبوي من غالفستون؛ صديق بينبو، قارع الطبول، من هيوستن؛ عازف البانجو من برمنغهام؛ عازف البوق من أتلانتا؛ أما عازف البيانو ذو الأصابع الطويلة المتشبّه بالنساء، فقد كان شابًا ببشرة سوداء كالفحم من نيو أورلينز، وقد أحضر معه نمطًا مطنبًا من الراغتايم سَمّاه الجاز.

صرخ بين الفينة والأخرى: «أنا أعزف الجاز أيها الحمقى!»، بينما كان يوجّه عينيه إلى الراقصين ويترك أصابعه تدقّ المفاتيح في جنون... إلّا أنّ البيانو حينها كان يصيح بموسيقى البلوز!

أربعة زنوج مشرّدون وقبيحون، هذا ما كانوا عليه، يعزفون موسيقى البلوز القديمة القاسية الخالية من الحبّ في قاعة رقص صغيرة حارّة الأجواء ومكتظة في مدينة كانساس ليلة الجمعة. فعزفوا بقلوب تفيض وحدةً رفقة مغنّيهم واسع الفم، الذي ردّد أحزان الجميع في أغانيه حتى

صارت أحزانه. البيانو المُرتجل، البانجو المدوّي، الطبل الكبير النابض، والطبل الجانبي الصغير القاسي، البوق النحاسيّ الذي ضحك وتردّد صوته مثل الأمواج في بحر التناغم الموحش الذي ارتفع منه صوت بينبو الحزين:

ستستيقظين صباح يوم

لتلتفتي بوجهك المبتسم.

ستستيقظين صباح يوم،

لتلتفتي بوجهك المبتسم،

وتنظري إلى وسادة حبيبك...

فتجدي الفراغ قد أسند رأسه إليها!

ثم جلدت الموسيقى ذاتها في غضب بطيء، في غضب أخرق ماديّ وناقم، فيما أنغام البانجو تهرب مرتعدةً بعيدًا في أنين عاصف قبل أن تعود مرة أخرى، والبوق يئنّ كامرأة لا تفهم شيئًا مما حولها:

ثم ستنادين محبوبك،

ستنادين محبوبك الغالي...

لكن لك أن تستمري في النداء،

فأنا لن أكون قريبًا!

وللحظة، لم يُسمعْ شيئًا سوى حركة الأقدام العشوائية والدويّ الهائل للطبل الكبير مثل وريد ينبض في قلب الوحدة.

تردّد صوتٌ في أنحاء القاعة: «ساندي!... ساندي! ... يا رباه! أين ذلك الطفل؟... هل رأى أحد ابن أختي الصغير؟ ساندي!... يا إلهي!»، قبل أن تتنفس الصعداء أخيرًا: «أيها الصغير الشقيّ، تبًا لك، تختبئ هنا

في الشرفة حيث لا يمكن لأحد أن يعثر عليك!... استيقظ يا ساندي! الساعة تجاوزت الرابعة فجرًا، جدّتك ستقتلني».

هزّت هاربيت بقوة الطفلَ النائم الذي كان ممدّدًا على الكراسي المغبرة؛ ثم راحت تجرّه عبر الدّرَج الضيق فيما بالكاد استيقظ. فرغت القاعة تقريبًا، وكان عازف الطبول الأسود الصغير السمين يجول على الأرضية حاملًا طبوله في حقائب قماشية. أطفأ أحدهم الأنوار واحدًا تلو الآخر. وقف رجل ملوّن ببشرة لونها كالخردل بالقرب من الباب يتشاجر مع امرأة سوداء. بدأت تبكي فصفعها بملء يده على فمها، قبل أن يدير ظهره ويغادر مع فتاة أخرى بشرتها سمراء كلون خشب القيقب. دفعت هاربيت ساندي ليتخطّيا هذين الزوجين المترابطين، وسحبت الصبي عبر الدّرج الطويل إلى الشارع، حيث وقف مينغو منتظرًا، وسيجارة مشتعلة ترسم خطًا أبيضَ على بشرته السمراء.

قال: «من الأفضل أن تسرعي، فضوء النهار لن يتأخر عن موعده من أجلك!»، وكانت تلك الحقيقة، فقد بدأ سواد الليل يبهت.

شعر ساندي بغثيان في معدته. استيقاظه على عَجل جعله نزقًا ونكدًا، إلّا أن الهواء النقيّ والبارد سرعان ما جعله أقل نعاسًا وخفّف شعورَه بالغثيان. أخذ نفَسًا عميقًا وهو يهرول بسرعة على الرصيف إلى جانب خالته واسعة الخطى وصديقها. شاهد الفجر الرماديّ المزرقّ يطمس الليل في السماء؛ ثم طمس الزّرقةَ لونٌ رماديّ لامع، بينما تلاشت النجوم لتصبح نقاطًا من النار الخامدة. واستمع إلى زقزقة العصافير وهي تغرّد فوق الأشجار كأنها تنادي الشمس. وحينما صحا تمامًا، بدأ الطفل يشعر بالفخر الشديد بنفسه، فهذه أول مرة يُمضي فيها الليل بطوله بعيدًا عن المنزل.

كانت هاربيت تتجادل مع مينغو: «لم يكن عليكَ أن تبقيني خارج المنزل إلى هذا الوقت. لمَ لمْ تخبرني كم الساعة؟ لم أكن أعلم أن الوقت تأخّر إلى هذا الحدّ».

فردّ مينغو: «مهلًا، ألم أحاول إخراجك عند منتصف الليل ولم تستجيبي لي؟ وألم أُنادِك عند الواحدة فقلتِ لي: (انتظر قليلًا) فيما كنتِ ترقصين مع زنجيّ فاتح البشرة من سانت جو يعمل كمحقّق خاصّ، وذراعاك حول رقبته مثل طوق نجاة؟ لا تقولي لي إنني لم أرغب في المغادرة، وأنا من يتوجّب عليه الذهاب إلى العمل في الثامنة صباحًا حاملًا معولًا ومجرفة عندما تنطلق الصافرات! ما هذا بحق الجحيم؟».

إلّا أن هاريت لم تهتمّ بالشجار لأن الوقت لن يسنح لها لتختمه بشكل ملائم. انقطعت أنفاسها بسبب الإسراع وكادت تذرف الدموع. وخافت أن تعود إلى المنزل.

«مينغو، أنا خائفة».

سرعان ما قال متناسيًا غضبه: «تعرفين ما يمكنك فعله إن طردتك والدتك. يمكننا أن نتزوج وسأعتني بك».

«حقًا يا مينغو؟».

«بالطبع!».

وضعت يدها في يده، وقالت: «أوه، عزيزي!»، قبل أن يُبطئا في السّير كثيرًا.

حينما وصلوا إلى الزاوية القريبة من بيت هاريت، رفعت وجهها الداكن الصغير الذي غطّته البودرة الأرجوانية من أجل قبلة لم تدمْ طويلًا، وأرسلت مينغو في طريقه. ثم اكفهرّ وجهها بقلق وركضت. كان لون السماء لؤلؤيًا شاحبًا، في انتظار ذهبِ الشمس المشرقة الدافئة.

قالت هاريت: «أنا خائفة حتى الموت! يا رباه، أتمنى ألّا تكون أمّي مستيقظة يا ساندي! آمل ألّا تكون قد عادت من منزل السيدة لاين البارحة. لم يكن علينا الذهاب يا ساندي... أظن أنه لم يكن علينا الذهاب».

كانت تتنفس بصعوبة واضطر ساندي إلى الركض بسرعة ليواكبها. «يا إلهي، أنا خائفة!».

كان العشب أشبه بالألماس بعد أن تشكّلت عليه قطرات الندى، وكان طوب الرصيف الأحمر رطبًا، بينما هرع الولد وخالته الصغرى تحت أشجار الدردار المورقة على طول الطريق. عبرا منزل مدام دي كارتر، وركضا فوق العشب المبلل في فناء منزلهما بينما كان شعاع الشمس الأول يغربل الأشجار. سارا بهدوء على رؤوس أصابعهما نحو الشرفة، عبراها بسرعة وهدوء؛ وبرقّة، برقّة شديدة، فتحا باب الردهة.

في وقت مبكر من الغسق، كان مصباح الزيت ما يزال مشتعلًا على طاولة الغرفة الأمامية، وفي كرسيّ قديم بذراعين، جلست الخالة هاغر ويليامز وفي حضنها كتاب مقدّس مفتوح، وعلى الأرضية عند قدميها حزمة من الخرزانات.

كرنفال

لم تبتعد خيمة المسيح عن خيام الخطيئة أكثر من نصف ميل. ساد التنافس: فقد أُقيم اجتماع الإحياء والكرنفال خلال الوقت نفسه في سانتون. كلاهما عند الطرف الجنوبي للمدينة، وكان نشاط كليهما صاخبًا وموسيقيًا. أقام القسّ ديوك براسويل القداديس للرب في الاجتماع الصيفي السنوي للكنيسة المعمدانية الإثيوبية الأولى في خيمة بيضاء قذرة انتصبت ضمن غابات هيكوري. ونصبت فرقة عروض سوانك المجمّعة في مروج جيد غالواي -وهو أعظم كرنفال جوّال في العالم- خيامَها لسبعة أيام يوفّر خلالها ألعاب الحظ وأماكن الجذب الرخيصة. ذهب الزنوج العجائز إلى اجتماع الإحياء، أما الزنوج الشباب فاتجهوا إلى الكرنفال، وبعد غروب الشمس خلال ليالي أغسطس، كان بالإمكان سماع أغاني حداد المسيحيين وهي تتصاعد من غابات هيكوري، فيما كانت الإيقاعات العميقة لفرقة عرض المنسترل[1] تدوي من أراضي غالواي، لتختلط أنغام التسبيح والفرح في مزيج غريب.

ذهبت الخالة هاغر مع أنجي وساندي إلى اجتماع الإحياء كل ليلة (ذهب ساندي مُكرهًا)، أما جيمبوي، هاربيت، ومودل فذهبوا إلى الكرنفال. صلّت الخالة هاغر في الاجتماعات من أجل ابنتها الصغرى،

---

(1) Minstrel shows: وهو أحد الأنماط المسرحية الأميركية الذي كان شائعًا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين، يتضمن أغاني ورقصات وفقرات كوميدية ترتكز على تقديم صور نمطية عنصرية عن الملونين بشكل هزليّ. وكانت هذه العروض تُؤدّى بدايةً من قبل ممثلين بيض يصبغون وجوههم باللون الأسود، إلا أنها بعد انتهاء الحرب الأهلية الأميركية صارت تتكون من فنانين سود.

إلّا أن هاريت لم تتحدث إلى والدتها، طالما استطاعت تجنب ذلك. ولم يكن جيمبوي وأنجي على وفاق أيضًا منذ عودتهما من الريف. سئم جيمبوي مزرعةَ جيسي، لذا عاد إلى المدينة قبل ثلاثة أيام من عودة زوجته. ووسّع اجتماع الإحياء والكرنفال الفجوة بين المسيحيين والخُطاة في منزل الخالة هاغر الصغير. وكان ساندي يفضّل اتّباع الخُطاة (جيمبوي وهاريت) إلّا أنه لم يكن كبيرًا بما يكفي ليفعل ذلك. لكن وفي صباح يوم خميس تسلّق هو وباستر فوق مستودع الفحم في الفناء الخلفي، قبل أن يقفز خطًّا على مسمار صدئ اخترق كعب قدمه العارية. أقام مناحةً، وظل يصرخ حتى الظّهر متألمًا، ورفض تناول الطعام؛ لذا وعده جيمبوي أخيرًا إن كفّ عن الصراخ، باصطحابه إلى الكرنفال مساءً.

قالت الخالة هاغر: «نعم، خذ ذلك الشقي، فهو لا يتصرف بشكل جيد خلال القداديس، ولا يكفّ عن التلوّي والتحرّك، فيحرمنا الإنصاتَ إلى الخطبة. لم يصل الإيمان إلى قلب ذلك الفتى!».

قال والده متثائبًا: «أتمنى ألا يصل إليه قَطّ».

ردّت عليه هاغر: «تريده أن يكون جوّالًا عديم النفع مثلك». وبدأت هي وجيمبوي في شجارهما اليومي الذي يستمتعان به فيستمر لساعات. أخذ ساندي يشدّ والده ويقول: «أسرع، فلنذهب»، على الرغم من معرفته بأن فعاليات الكرنفال لن تنطلق قبل غروب الشمس، ومع ذلك، عند الرابعة تقريبًا، قال جيمبوي: «حسنًا، هيا بنا»، وانطلقا تحت الشمس الحارقة باتجاه أراضي غالواي، سار الرجل في خطوات طويلة وسلِسة بينما عرجَ الصبيّ على قدمه المتألمة، وقد لُفّتْ قطعة قماش حول كعبه.

عند البوابة ذات العارضة القديمة على طرف المدينة، والتي من خلالها قاد جيد غالواي أبقاره إلى المراعي، نُصب قوس محمول عُلّقت عليه أضواء كهربائية كُتب بها «عروض سوانك» بأحرف حمراء وصفراء،

لكنها لم تكن مثيرة للإعجاب تحت ضوء الشمس. ومن هذه البوابة، وعلى امتداد المرج من الجانبين، مُشكّلةً ما يشبه الطريق، انتصبت الخيام وأكشاك الكرنفال: وهم غالاتيا[1]، سيرك الفقمة وأسد البحر، عرض برودواي الموسيقي الكوميدي، المسوخ، ألعاب الحظ، أكشاك الفشار وعصير الليمون، عروض منسترل الملوّنة، الدولاب الدوّار.

سأل ساندي: «سنبقى لنشاهد ذلك العرض، أليس كذلك يا أبي؟».

قال جيمبوي: «بالتأكيد، لكن ألَمْ أخبرْكَ ألّا شيء سيبدأ في هذا الوقت المبكر من بعد الظهر؟ انظر! حتى الفرقة الموسيقية لا تعزف، ولا شيء مفتوح سوى عرض المسوخ، وأراهنك أن كلّ المسوخ نائمون». إلّا أنه ابتاع كيسًا من الفول السوداني لساندي ودفع عشرين سنتًا لقاء الدخول إلى الخيمة الحارّة حيث كانت امرأة سمينة متعرّقة ورجلٌ وحشيّ يبدو مروّضًا هما الجاذبان الوحيدان فوق المنصّات. فإلى ذلك الحين لم يباشر مُبتلِع السيوف عمله، ولا آكِلُ الزجاج، ولم تبدأ الأعجوبة الكهربائية. اخترقت أشعة الشمس الهائلة خيمة هذا العرض لِمسخين بشريين وحيدين، وظلّ بضعة متفرجين في الخيمة يمسحون وجوههم بالمناديل.

أجرى جيمبوي محادثة مع المرأة البدينة، وهي مخلوق ورديّ وأبيض، قالت إنها عاشت في كولومبوس في ولاية أوهايو؛ وحاز جيمبوي اهتمامَها حينما ردّ بأنه ذهب إلى هناك من قبل. قالت إنها طالما عاشت إلى جوار الملوّنين في ديارها، وأعطت ساندي بلا مقابل بطاقة بريدية تحمل صورتها، على الرغم من كتابة «عشرة سنتات» على ظهرها. ردّدت إنها لا تعرف كيف يمكن لأحدٍ البقاء في كنساس وهي ولاية قاحلة لا يتسنى لأحد فيها الحصول على الجِعة حتى؛ إلّا من المهرّبين.

---

(1) إحدى الفعاليات التي تُقام في خيام أثناء المهرجان.

عندما خرج ساندي ووالده، تركا صفّ الخيام ومضيا عبر المرج إلى أجمة من الأشجار الكبيرة الظليلة، جلس تحتها الكثير من الرجال الملوّنين الذين كانوا يعملون في العرض. فُرِدَتْ بطانية على العشب، وكانت هناك لعبة نرد قائمة، انطوتْ على الكثير من الجدل واللعنات اللطيفة. إلّا أن معظم الرجال كانوا يجلسون من دون أن يلعبوا، وتمدّد اثنان على وجهيهما ليَغُطّا في النوم. بدا أن جيمبوي عرف بعضهم، لذا انضمّ إلى حديثهم بينما راقب ساندي رمي النرد لفترة من الزمن، ولكن مع عدم فهم الصبي للعبة، قرّر العودة إلى الخيام.

قال والده: «حسنًا، اذهب، سألحق بك حينما تُضاء الأنوار وتبدأ العروض، لندخل إليها معًا».

عرج ساندي وهو يمشي على أصابع قدمه المصابة. وأمام سيرك أسد البحر التقى إيرل جيمس، وهو صبيّ أبيض صغير في صفّه المدرسيّ. تجوّل الاثنان معًا لبعض الوقت، ناظرين إلى اللوحات القماشية الكبيرة المرسومة أمام العروض. حينما وصلا إلى خيمة عرض المنسترل بالقرب من منتصف الطريق؛ سمعا صوت رنين بيانو في الداخل وصوت أيْدٍ تصفق كما لو كان هناك من يرقص.

صرخ إيرل: «يا إلهي! دعنا نشاهد هذا»، لذا نزل الصبيان على بطنيهما، وتملّصا من أسفل سديلة الخيمة من الجانب، لينظرا إلى داخلها.

انتصب بيانو رثّ أمام المنصة، فيما كان رجلٌ أسود سمين وأصلع يعزف مقطوعة راغ. كان هناك رجل أبيض ضخم بسترة ذات مربعات متكئًا على البيانو، وقد لبس قبعة ديربي، ووضع سيجارًا طويلًا في فمه. كان يشاهد فتاة سوداء نحيلة، ارتفعت تنورتها وعادت برأسها إلى الخلف، وهي تقفز في دائرة من الخطوات المجنونة. كان هناك شابّان أسمرا البشرة يرتديان زيًا أحمر موحّدًا يؤديان رقصة الجوبا، فيما جلست فتاة

أخرى على صندوق، وقد أدارت ظهرها إلى الصبيّين مختلِسَي النظر الذين كانا يحدقان من تحت حافة الخيمة. حينما دارت الفتاة التي ترقص، رأى ساندي هاريت.

صاح الزنجي متجعّد العنق على البيانو وهو يدّق مفاتيحه: «إنها بارعة جدًا، أليست كذلك يا زعيم؟».

أومأ الرجل الأبيض برأسه من دون أن تفارق عيناه ساقيّ هاريت. وكانت ابتسامة الصبيين الأسمرين اللذين يؤديان رقصة الجوبا ممتدة من أذن إلى أخرى.

صرخ أحدهما: «تابعي أيتها الجميلة»، فيما بدأت هاريت ترقص برشاقة.

توقفت أخيرًا، وهي تلهث وتتعرّق، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة فيما تألقت عيناها بمرح. ثم مضت مع الرجل الأبيض وعازف البيانو الأسود إلى خلف ستائر المسرح القماشية. لفّ أحد الراقصَين الفتاة الجالسة على الصندوق بذراعيه وبدأ يتحسّس ثدييها بتردّد.

قالت: «اهدأ قليلًا أيها الوسيم». عرف ساندي أنه صوت مودل، ورأى وجهها الأسمر وهي تميل إلى الوراء لتنظر إلى مؤدّي العروض. انحنى الصبي الذي يرتدي البدلة الحمراء عليها وقبّلها عدة مرات، فيما استمرّ الآخر في تقليد الخطوات التي شاهد هاريت تؤدّيها للتو.

قال إيرل لساندي وهو يتدحرج على الأرض: «هيا بنا». ذهب الصبيّان إلى الخيمة التالية، حيث أمسك بهما أحد رجال الكرنفال، ركلَ مؤخرتيهما، وطردهما من المكان.

كانت الشمس تغرب في سديم ورديّ، وبدأ جوّ من النشاط يسود ساحات العروض. أطلقت آلة الكاليوب[1] البخارية بعض الصافرات التجريبية، ودارت دوّامة الخيل ببطء من دون ركّاب، كما افتُتحت أمام الزوار المسائيين أكشاك عجلة الحظ والطعام الساخن وبائعي العصير وبائعي الهدايا التذكارية. شرع المنادي في الصياح ليحضر الناس عرض المسوخ. وشيئًا فشيئًا تجمّع حشد من الناس. أُضيئت الأنوار على امتداد منتصف الطريق، واندفع الدولاب الدوّار بهدوء في الهواء، وحينما وجد ساندي والده بدأت فرقة الملونين بالعزف أمام خيمة عرض المنسترل.

أصرّ ساندي: «أريد ركوب دوّامة الخيل والدخول إلى المنزل المجنون». لذا فعلا ذلك معًا؛ ثم اشتريا شطيرتَي همبرغر بشرائح سميكة من البصل الأبيض، وشربا صودا الفراولة وأكلا فشارًا وعليه زبدة. ذهبا إلى سيرك أسد البحر، حاولا الفوز بدمية كيوبي[2] في كشك دولاب الحظ، وشاهدا الرجال يخسرون المال سعيًا إلى معرفة تحت أيّ صَدَفة تختبئ حبّة البازلاء، ثم يسعون إلى استعادته مرة أخرى وهم يحاولون معرفة ورقة اللعب المختلفة بين الأوراق الأربع خلف غالاتيا. وطوال ذلك الوقت لم يقل ساندي لوالده شيئًا عن رؤيته هاربيت ترقص في خيمة عرض المنسترل.

عاش ساندي مع ثلاث نساء وقتًا طويلًا بما يكفي ليتعلّم الكتمان بشأن الأمور الخاصة لكل منهنّ. فحينما دفعت أنجي في محل كوهن للرهن دولارين أسبوعيًا لتشتري قميصًا حريريًا أزرق لوالده ، ورآها ساندي تسدّد المدفوعات، علِم، دون أن يخبره أحد، أنه لا يجب التطرّق إلى هذا الموضوع مع الخالة هاغر. وكان يرى جدّته ترمي أحيانًا أحمر

---

(1) آلة موسيقية شبيهة بالأرغن، تخرج منها الأصوات بتمرير الهواء المضغوط عبر صافرات كبيرة أنبوبية الشكل. (المترجم).

(2) علامة تجارية معروفة بصناعة الدمى التي تجسّد طفل كبير الرأس والعينين، بوجنتين ممتلئتين، وعادةً ما يظهر بعض الشعر فوق رأسها أو تكون حليقة تماماً. (المترجم).

شفاه هاريت في الزقاق، من دون أن يستخدم فمه. لأنه أحَبّ ثلاثتهنّ، هاريت وأنجي وهاغر، لم ينقل حكايات أيّ منهنّ إلى الأُخرَيين. لن يعلم أحد أنه شاهد خالته هاري ترقص اليوم في أرض الكرنفال أمام رجل أبيض ضخم وسمين يرتدي سترة ذات مربعات في أثناء عزف زنجي يرتدي بدلة حمراء على البيانو.

قال جيمبوي: «ما زال معنا نصف دولار لحضور عرض المنسترل. هيا، فلنذهب إليه». وسحب ابنه وسط الحشد المتجمّع في منتصف الطريق الطويل بين الأكشاك.

كانت كل أضواء المهرجان الساطعة قد أُنيرت، وسار كل شيء على قدم وساق. دارت دوّامة الخيل على صافرات آلة الكليوب الصامّة للآذان، دوت أنغام الفرق الموسيقية، اللوحات القماشية للثعابين والراقصات، الهياكل العظمية البشرية، أكَلة النار، كلّها انتشرت في نسيم المساء. رفرفرت الرايات، صاح المنادون، أُدّيت الحركات البهلوانية أمام خيمة، لُفّت عجلة حظ كبيرة. تدافع الناس وحُشروا، والنساء تنادي أطفالها كي لا يضيعوا. وحمل الهواء رائحة العشب المدوس والفول السوداني واللحوم المشوية والحيوانات والأجساد البشرية.

وقف الرجل الأبيض الضخم الذي ارتدى سترة عليها مربعات أمام عرض المنسترل مناديًا الجمهور الذي جذبته الفرقة الموسيقية. أشار بيد باتجاه مجموعة مبهرجة من المؤدّين الزنوج قساة المظهر الذين وقفوا على المنصة.

«تعالوا أيها السيدات والسادة، لدينا السيدة كاليدونيا واتساون، شادية دكسي؛ جنكينز الراقص، الزنجي الاستعراضي القادم من جاكسونفيل؛ الصغيرة ليزي روتش، نجمة الغناء الراكون من جورجيا؛ وأخيرًا وليس

آخرًا، سامبو وراستو، أطرف كوميديّين في العالم. إنه العرض الأخير لهذا المساء... تفضّل يا أستاذ... تعالوا يا قوم».

بدأت الفرقة الموسيقية بالعزف، وتردّد صوت مدام واتسون وليزي روتش الشبيه بالآلات النحاسية، فيما أدّى الرجال وصلة خاطفة من الرقص النقريّ، قبل أن يختفي حشد كامل من المؤدّين داخل الخيمة. تابع الافتتاحَ العامَّ سكّانُ المدينة الذين اشتروا التذاكر؛ تحت لافتة مرسومة بشكل مبهرج تُصوّر مركبَ مسيسيبي بخاريًا في ضوء القمر، فيما رجُلان أسمران ضخمان يرميان نردًا ضخمًا على زاوية شارع.

تبع جيمبوي وساندي الفرقة إلى الداخل وجلسا في مقعديهما، وسرعان ما ارتفعت الستارة المهترئة، ليظهر مشهد مزرعة في الجنوب، حيث ظهر ثلاثة رجال صبغوا بشرتهم بالأسود، وامرأتان بمنديل كبير مزركش ليغنّوا جميعًا بشوق إلى دكسي. ثم خرج سامبو وراستوس بشفرتَي حلاقة طويلة وبدأا يتجادلان ويرميان النرد، قبل أن تنطفئ الأنوار ويظهر شبحٌ جعل الرجلين يهلعان ويهربان، تاركَين كلّ المال على المسرح. (ظنّ الجمهور أنّ ذلك مضحك جدًا، ويشبه تصرفات الزنوج تمامًا). بعد ذلك أدّت إحدى النساء أغنية راغتايم ورقصة إيغل روك. ثم ظهر رجل مع آلة بانجو وشرع في العزف، إلّا أن العرض كان مفتقدًا الحيوية حتى ذلك الحين.

قال جيمبوي لاكزًا ساندي: «استمع إليه، إنه بارع!».

كانت المقطوعة التي أشار إليها تمتلئ بالإيقاعات المعقدة والترددات الطويلة، قبل أن تنقلب فجأة إلى إيقاعات عذبة. وانتهت بصوت مدوّ ينبض بالحياة! وصاح الجمهور طالبًا المزيد. عزف موسيقى البلوز وأدّى عددًا لا يُحصى من المقاطع التي انتهت دائمًا بـ:

ولا يمكن أن أرضى،

لأن كل ما أحبه

رقد واحتضر.

على الرغم من أنها بدت لساندي أكثر موسيقى حزنًا في العالم، إلّا أن البيض من حوله ضحكوا.

ثم أُنيرت أضواء المسرح، وانطلقت الفرقة، وتجمّع كل الممثلين السود مجددًا، وهم يصفقون أمام الستارة القطنية، فيما رقص كل منهم بدوره مجسّدًا الغضب، وأطرافهم الرشيقة تلتوي بحيوية وهم يؤدون أروع الوضعيات، فيما انتهى المشهد بتمايل أسرع امرأة سمراء وأكبر الرجال السّمر سنًا بنشاط معًا.

كانت جميع الأكشاك قد أطفأت أنوارها، بينما تدفق الناس عبر البوابة باتجاه المدينة. سار ساندي إلى جانب والده على الطريق، وكعبه المصاب الذي نسيه طوال المساء يؤلمه بشدة، حتى حمله جميبوي على كتفه. اجتازتهما السيارات والعربات مطلقةً سحبًا من الغبار الرمليّ، والشبّان يطلقون كلمات بذيئة على عجل ليضايقوا الشابّات. حينما وصل ساندي ووالده إلى المنزل، لم تكن الخالة هاغر وأنجي قد رجعتا من اجتماع الإحياء بعد. قال جيمبوي إنه يظن أنهما ربما توجّهتا إلى منزل السيدة لاين ليجالسا المرأة العليلة طوال الليل، لذا نشر ساندي فِراشه القشّ على الأرض عند رِجل سرير جدّته وخلَد إلى النوم. لم يسمع خالته هارييت عندما عادت إلى المنزل، إلّا أنه استيقظ في وقت متأخر من الليل وكعبه ينزّ ألمًا، وقد جفّ حلقه، وارتفعت حرارته، وحينما حاول ثنيّ ساقه، تألّم إلى حدّ البكاء.

استيقظت هارييت على صوت أنينه، وقالت بصوتٍ نعس: «ما الأمر يا عزيزي؟».

ردّ ساندي باكيًا: «قدمي».

نهضت خالته من الفراش، أشعلت المصباح، وساعدته في الذهاب إلى المطبخ، حيث سخّنت إناءً من الماء، غسلت كعبه، وغطّت جرحه العميق بالفازلين، قبل أن تربط قدمه بقطعة قماش بيضاء نظيفة.

قالت وهي تعيده إلى فراشه القشّ: «يجب أن تشعر بتحسّن الآن»، وسرعان ما غطّ كلاهما في النوم مجددًا.

عندما عادت هاغر في الصباح التالي من عند صديقتها المريضة، أرسلت أحدًا إلى محل الجزارة ليحضر جلد الخنزير، واقتطعت منها لحمة دهنية، وربطتها بكعب ساندي كعلاج.

قالت: «لا نريد أن تُصاب بإنتان الدم. ولا تتجول وتلعب وكعبك على هذه الحال. اجلس في الشرفة وادرس كتاب القراءة، لأن المدرسة ستبدأ الشهر المقبل». ثم بدأت في كيّ ملابس السيدة راينهارت.

في اليوم التالي، السبت، كان اليوم الأخير للكرنفال، حمل جيمبوي ملابس عائلة راينهارت إلى منزل هاغر، بعدما أصبح ساندي قعيدًا ووالدة جيمي لاين طريحة الفراش. إلّا أن جيمبوي بعد إحضاره الملابس لم يعد إلى المنزل لتناول العشاء. وحينما أرادت أنجي وهاغر الذهاب لحضور اجتماع الإحياء في أول المساء، طلبتَا من هارييت البقاء في المنزل مع الطفل الصغير، لأنّ كعب ساندي قد انتفخ وأصبح أرجوانيّ اللون، وبالكاد يستطيع المشي.

قالت هاغر: «خرجتِ كل الليالي هذا الأسبوع. وبما أنك لم تذهبي إلى الخيام المباركة حيث يُبشّر بكلمة الرب؛ عليك البقاء في المنزل ليلة واحدة مع الطفل المسكين المريض».

تمتمت هارييت بنبرة ملتبسة: «حاضر يا سيدتي». لكن بعد وقت قصير من رحيل والدتها وأنجي، قالت لابن أختها: «لا تخشى البقاء في المنزل بمفردك، أليس كذلك؟».

فأجابها ساندي: «بالطبع لا يا خالتي هاري».

حمّمته بالماء الساخن ووضعت قطعة أخرى من اللحم الدهنيّ على كعبه المتقيّح. ثم طلبت منه الصعود إلى سرير أنجي والخلود إلى النوم، لكنّه بدلًا من ذلك، ظل مستلقيًا لفترة طويلة وهو يحدّق عبر النافذة. فكر في الكرنفال وفي الدولاب الدوّار وهو يندفع في الهواء، وعرض المنسترل. قبل استرجاعه ذكرى حفلة بينبو قبل بضعة أسابيع ووقوف خالته هاربيت متجهّمة في الصباح التالي بينما هاغر تجلدها من دون أن تبكي على الإطلاق، حتى ظهرت الكدمات من خلف جواربها الحريرية... ثم تساءل عمّا سيكون حال جيمي لاين إن ماتت والدته من السلّ ولم يبقَ هناك من يرعاه، لأن زوج والدة جيمي لم يكن رجلًا طيبًا... آه! آلمه كعبه!...

مع عودة المدرسة سيدخل إلى الصف الخامس، لكنه تمنى لو يسرع ويصل إلى المدرسة الثانوية مثل هاربيت، حينما يصبح رجلًا سيصبح مهندسًا، سائقَ قطار...

يا إلهي، لم يكن نعسًا، وظَلّ كعبه ينبض ألمًا.

أشعلت هاربيت مصباح الزيت في الغرفة المجاورة، وتنقّلت في أنحاء المكان بسرعة وهي تأخذ الملابس من الأدراج وتنشرها على السرير. ظنت ساندي نائمًا، علِمَ ذلك، إلّا أنّ ألمَ قدمه حرمه النومَ. استطاع رؤيتها عبر فتحة الباب وهي تطوي ألبستها في أكوام صغيرة من دون أن يدرك لمَ تفعل ذلك. ثم سحبت الحقيبة القديمة من الخزانة وبدأت تحشوها بالملابس حتى امتلأت، ثم سحبت حقيبة جديدة من تحت السرير، ورمت فيها مستحضرات الاستحمام، البودرة، الفازلين، طلاء الأظافر، مشط التمليس، وعدّة أزواج من الجوارب القديمة وقد لُفّت في كُرات. قبل أن تجلس على السرير بين الحقيبتين المغلقتين لوقت طويل ويداها في حجرها فيما تحدّق بعينيها إلى الأمام.

نهضت أخيرًا لتغلق الأدراج، وترتّب الفوضى التي أحدثتها، وتجمع الأشياء المتناثرة التي ألقتها أرضًا. ثم سمعها ساندي تخرج إلى الفناء الخلفي باتجاه كومة القمامة. حينما عادت، كانت قد لبست قبعة صغيرة ضيقة وذهبت إلى المطبخ لتغسل يديها، وترمي الماء عبر الباب الخلفي، قبل أن تنسلّ على رؤوس أصابعها إلى الغرفة التي استلقى فيها ساندي وتقبّله برفق على رأسه. علِم ساندي أنها ظنته نائمًا، لكن رغمًا عنه لفّ رقبتها بذراعيه بشدّة، لم يستطع تَمالك نفسه.

قال وهو يجلس في السرير من دون أن يُفلتَ الفتاة: «إلى أين ستذهبين يا خالتي هاريت؟».

أجابته هاريت: «لن تشي بي يا عزيزي، أليس كذلك؟».

أجابها: «لا»، وهو يدرك تمامًا أنه لن يُقدِم على ذلك. «لكن إلى أين ستذهبين يا خالتي هاريت؟».

«ألن تخاف البقاء بمفردكَ حتى تعود جدّتك؟».

أجابها: «لا، لن أخاف».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ولن تنسى الخالة هاري؟».

«بالطبع لا».

قالت له: «سأرحل مع الكرنفال».

جلسا على مقربة للحظات، ثم قبّلته ومضت إلى الغرفة الأخرى وحملت حقيبتيها، ثمّ أُغلق الباب.

عقاب

صباح الأحد، جاء الدكتور ماكديلورز الأبيض الهرم، الذي أحَبّه جميع الزنوج في سانتون، ومسح باليود قدم ساندي المتقيّحة، ربطها، وأعطاه زجاجة تحوي دواء أخضر ليتناوله، وبحلول منتصف الأسبوع استطاع الصبي أن يعرج مجدّدًا من دون ألم؛ لكن هاغر استمرت في وضع قطع اللحم الدهنية بدلًا من اتباع تعليمات الطبيب.

عندما لم تعد هاربيت، كَفّ ساندي عن النوم على القشّ أرضًا، وصار ينام على السرير الكبير إلى جانب جدّته هاغر، ولم تكن الأمسيات التي تلت ذلك الحدث مبهجة، فبعد ذهاب خالته الصغرى مع الكرنفال، وقضاء جيمبوي معظم وقته في صالة البلياردو أو التسكّع على رصيف محطة القطارات ناظرًا إلى العربات القادمة؛ تلاشى صوت الموسيقى من فنائهم الخلفيّ.

خلدوا إلى السرير باكرًا في تلك الفترة، وبعد ذلك الأسبوع الحافل بأحداث الكرنفال واجتماعات الإحياء، كعبه المتقيّح، وفقدان الخالة هاربيت، غالبًا ما كانت عضلات جسد ساندي الصغير ترتعش أثناء النوم، ليجد نفسه صاحيًا فجأة من حلم سمع فيه عزف موسيقى راغي حزينة، بينما تصيح امرأة من أجل يسوع في خيمة الإنجيل، وتبكي فتاة تلبس جوربين حريريين حمراوين لأن الخرزانات كانت تجرح ساقيها. أحيانًا كان يستلقي لوقت طويل في الظلمة، بينما تشخر الخالة هاغر إلى جانبه. وفي أحيان أخرى في الغرفة المجاورة، حيث كانت أنجي وجيمبوي، أمكنه سماع صرير متناغم بطيء من نوابض السرير وأنّات والدته الخافتة، التي كان قد عرف بالفعل أنها تترافق مع تعبير البالغين عن الحب الجسديّ.

واستطاع في أحيان غيرها النظر عبر النافذة ليرى ضوء القمر يتلألأ على سيقان الذرة الطويلة في الحديقة. أحيانًا يتقلّب في سريره محاولًا النوم إلى أن يوقظ الخالة هاغر وتقول له بنبرة نعسة: «ما مشكلتك يا صغيري؟ سأعيدك للنوم على الأرضية إن لم تكفّ عن الحركة!» بعدها يخلد إلى النوم مجددًا، وسرعان ما تغمر الشمس الغرفة بنور دافئ، وتُغلى القهوة على الموقد في المطبخ، وتكون أنجي قد ذهبت إلى عملها.

مرّت أيام الصيف طويلة وخاملة بالنسبة إلى الكبار، أما بالنسبة إلى ساندي فقد كانت ممتعة جدًا. ساعد الخالة هاغر في إطعام الدجاج صباحًا، وفي إحضار الماء لأحواض الغسيل وملء الدلاء التي يشربون منها. قَطع الحطب أيضًا، وكوّمه خلف موقد المطبخ، ثم اعتاد أن يأخذ المكنسة ويكنس الغبار من المكان المحيط بالمضخة وتحت شجرة التفاح حيث يلعب. وبحلول ذلك الوقت ربما تأتي ويلي ماي أو يحضر باستر للعب الدحل. أو قد ترسله جدّته إلى المتجر لإحضار رطل من السكّر أو دقيق بعشرة سنتات، ولن يخلو طريق عودته من مغامرة أكيدة. رأى البارحة ولدين صغيرين مشاغبين من قاع المدينة، يجمعان النفايات المعدنية والخردة في الأزقة، يُغضب كل منهما الآخر ويكادان يتشاجران.

قال أكبرهما للصغير: «أنا سريع جدًا، وتعلم أنني لن أركض! حاول أن تلتقط قطعة الحديد التي تخصّني تلك. هيا، حاول وسأريك!».

فردّ الولد القصير: «لست في قوّتي أيها الطويل النحيل! اضربني وسترى كيف سأدمّرك!»، ثم انخرطا في تبادل طويل للشتائم. وبالنسبة إلى ساندي الواقف بالقرب منهما، فقد تعلّم كلمات جديدة وبذيئة جدًا يمكن استخدامها عند الحديث عن أمهات الآخرين.

قال الطفل الطويل أخيرًا، وهو يحمل القطعة الحديدية المتنازَع عليها ويتابع بحثه في القمامة، متفحّصًا كل أكوام وصفائح القمامة على امتداد

الزقاق: «أوه، أرني ما لديك أيها الزنجيّ صاحب البشرة الصلصالية، فأنت تبدو كالمسطرة بالنسبة إليّ!»، إلّا أن الأصغر أخذ كيس الخردة ومضى في الاتجاه المعاكس.

قال الفتى المتمهل لصديقه المنسحب: «احذر أيها المخنث، ولا تكسر أطباقك»، حفظ ساندي ذلك التعبير جيدًا ليقوله لجيمي لاين في وقت ما، ذلك في حال تحسّنت حالة والدة جيمي، فقد كانت السيدة لاين في المراحل المتقدّمة من مرض السلّ، لكن في حال تحسّنت، فسيقول ساندي لابنها أن يحذر وألا يكسر أطباقه، بما أنه يرتدي حذاء والدته دائمًا، وكأنه فتاة.

بحلول ذلك الوقت نسيّ ما الذي أرسلته هاغر لشرائه من المتجر، فاشترى مسحوق غسيل بدلًا من الدقيق. عندما عاد إلى المنزل بعد حوالي ساعة من غيابه، كادت جدته تجلب قضيب دردار لضربه، لكنها تراجعت واكتفت بتوبيخه على التأخر بدلًا من ذلك، ثم أعادته ليستبدل مسحوق الغسيل بالدقيق، وهي التي انتظرته طوال ذلك الوقت لتحضّر فطائر ذرة وتحشوها بالخضار!

كان ساندي يلعب عادة في الفناء الخلفي لمنزله أو في منزل آل جونسون خلال فترة ما بعد الظهر، لأنّ هاغر لم تكن تسمح له بمغادرة الحيّ مطلقًا، حيث الأطفال البيض في الطرف المقابل من الشارع ينادونه: «أيها الزنجي». لذا كان باستر الذي بدا مثل الأطفال البيض، وويلي ماي التي لم يكن بالإمكان أن تكون أكثر سوادًا؛ هما رفيقاه في اللعب. كان الأطفال الثلاثة يركضون وهم يلعبون الغمّيضة داخل حقل الذرة الطويلة؛ أو يطاردون بعضهم في الفناء الكبير، أو يلعبون «بيت بيوت» تحت شجرة التفاح.

حينما بحثوا ذات مرة في كومة القمامة ليكتشفوا ما يمكنهم العثور عليه، عثر ساندي على إيصال رهن أخذه إلى هاغر في المطبخ. كان إيصالًا برهن الخالة هاريت لساعة يدها في يوم السبت الذي هربت فيه.

وفي وقت متأخر من بعض الظهر كان الأطفال أحيانًا يذهبون إلى منزل مدام دي كارتر فتقدّم لهم كعك الزنجبيل وتقرأ لهم جزءًا من حكايات الكتاب المقدّس. بدت مدام دي كارتر بهية جدًا ومهابة في سترتها الحريرية وهي ترتدي نظارتها وتقول: «اجلسوا الآن يا أطفال واهدؤوا لأقرأ لكم تاريخ شعر الخائن شمشون علكم تتخذون منه عبرة. من هو شمشون يا باستر؟ هل سمعت عن دليلة يا ويلي ماي؟».

في بعض الأحيان، إن حضر جيمبوي إلى المنزل، كان يعزف على غيتاره القديم ويبدأ الأطفال في الرقص تحت أشعة الشمس، لكن كانت هاغر حالما تسمع صوت الموسيقى تنادي ساندي ليضخ المياه أو يذهب إلى المتجر.

كانت تقول: «ترقص هناك وكأنك بلا تربية! حذّرت جيمبوي من عزف مقطوعات الراغتايم القديمة هنا! هذا ما دمّر هاريت!».

وكان ساندي يذهب إلى مدرسة الأحد في كنيسة شيلوه المعمدانية كل أسبوع، حيث حصل على بطاقة مطبوعة عليها صور ملوّنة. وكانت الأخت فلورا غاردن التي ارتادت جامعة ويلبرفورس في أوهايو هي من تعطي الدروس الطويلة والمملّة. كان هناك عشرة أولاد صغار في فصل ساندي، بأعمار تتراوح بين التاسعة والرابعة عشر، وقد كانوا أشقياء للغاية، فلم تستطع الآنسة فلورا غاردن - التي ارتدت نظارات سميكة العدسات على وجهها الأسمر البنيّ- استيعاب الصِبية الصغار.

كرّر غريتي سميث سؤاله كلّ أحد: «أين كان موسى عندما انطفأت الأنوار؟»، ولم تكن الآنسة تعرف الإجابة حتى.

لم يُلقِ ساندي بالًا لمدرسة الأحد، وكثيرًا ما كان بدلًا من وضع النيكل الذي معه في سلّة التبرعات؛ ينفقه على شراء الحلوى، ويتقاسمها مع باستر، حتى اكتشفت هاغر الأمر في يوم أحد حارّ جدًا. فقد وضع قطعة من الحلوى اللزجة في جيب قميصه فذابت وتلبّدت، فلطّخت الجزء الأمامي من ملابسه النظيفة بالكامل. حينما عاد إلى المنزل، وباستر خلفه، أول ما قالته هاغر هو: «ما الذي علق في جيبك؟» وبدأ باستر يقهقه ويقول إن ساندي اشترى الحلوى.

سألت الخالة هاغر حفيدها: «من أين لك المال يا سيد؟».

ردّ ساندي مترددًا: «أنا... نحن... أعطتني مدام كارتر نيكلًا»، وقد اختار أول اسم تبادر إلى ذهنه، وكان الأمر سيمرّ بسلام لولا توقّف مدام دي كارتر نفسها عند المنزل بعد تفوّهه بالعبارة مباشرة في طريق عودتها إلى منزلها من الكنيسة.

سألتها هاغر حالما دخلت إلى الردهة: «هل أعطيت ساندي نيكلًا هذا الصباح ليشتري به الحلوى؟».

«لا أيتها الأخت ويليامز. لم يكن معي أي نقود في القداديس هذا الصباح».

قالت هاغر: «آها! إذًا شكّي في مكانه. ساندي!».

دخل الولد الصغير -وقد ارتسم الذنب على ملامح وجهه- من الشرفة الأمامية، حيث كان يجلس مع والده بعد رحيل باستر إلى منزله.

«من أين جئت بذلك النيكل هذا الصباح؟»، وقبل أن يجيب، قالت بغضب: «سأجلدك!».

قالت مدام دي كارتر وهي تهز رأسها في أثناء مغادرتها إلى منزلها المجاور: «نجّنا يا يهوه! الأطفال أشقياء فعلًا في هذه الأيام». قبل أن تضيف: «إنهم أشقياء حقًّا».

تابعت هاغر وهي جالسة في كرسيها القطيفيّ: «سأجلدك، يا لوقاحتك حتى تأخذ أموال الرب التي أرسلها معك إلى مدرسة الأحد لتنفقها على الحلوى».

«أنفقت بنسًا فقط»، كذب ساندي وهو يتلوى.

«كيف تستطيع شراء كمية كبيرة من الحلوى بحيث يبقى معك علكة في جيبك ببنس واحد فقط؟ أخبرني، كيف تفعل ذلك؟».

كان ساندي واقفًا وقد أخفض ناظريه، وهو محتار في إيجاد إجابة مناسبة، عندما فُتح الباب الشبكيّ ودخل جيمبوي. نظر ساندي إليه طالبًا المساعدة، إلّا أن وجه والده الودود علَته ملامح الصّرامة هذه المرة.

قال: «تعال إلى هنا!» كان الرجل أعلى بكثير من الفتى الصغير الذي نظر إليه بلا حول ولا قوة.

اعترض على كلام هاغر: «أنا من سيجلده!».

سأل جيمبوي ابنه بوقار: «أصحيح أنك أنفقت سنتات مدرسة الأحد الخمسة لتشتري الحلوى؟».

أومأ ساندي برأسه. لم يستطع الكذب على والده، ولو تحدّث لحظتها لدخل في نوبة بكاء.

قال والده: «إذًا كذبتَ على جدّتك! أشعر بالعار بسببك».

أراد ساندي أن يدير رأسه هربًا من حملقة جيمبوي الطويلة، لكنه لم يستطع فعل ذلك. لو كانت الخالة هاغر قد جلدته فحسب، سيكون ذلك أفضل؛ فحينها لن يقول والده المزيد. لكن الوقوف ساكنًا والاستماع إلى جيمبوي يتحدث إليه بهذه الطريقة كان أمرًا مروعًا، ومع ذلك وقف أمامه وهو يُقاوم البكاء.

تابع جيمبوي حديثه إلى ابنه بنبرة وقورة: «إنّ أَخْذَ المال واستخدامه في غير مكانه مثل السرقة. هذا ما فعلتَه اليوم، ومن ثم ترجع إلى المنزل وتكذب بشأن ذلك أيضًا. لا أحد بقباحة الكاذب، أنت تعلم ذلك! لستُ أفضل شخص، ربما، لا أقصد أنني كذلك. فأنا لا أعمل كثيرًا، لكنني أفعل ما أفعله بصدق. يصبح البِيض أثرياء بالكذب والسرقة، وبعض الزنوج يسلكون ذلك الطريق أيضًا، لكنني لست بحاجة إلى المال إن كانت الطرق غير شريفة وإن كذبت كثيرًا لأحصل على مبتغاي، فلا يعود في إمكاني النظر إلى الناس في وجوههم. هذا يُشعرك بالدناءة! هذا ليس جيدًا! ألا أعطيك النقود لشراء الحلوى وقتما تشاء؟».

أومأ الصبي برأسه بصمت، والدموع تنهمر على ذقنه.

«ألا أذهب معك إلى المتجر وأشتري لك الآيس كريم والصودا وقتما تطلب؟».مكتبة سُر مَن قرأ

أومأ الصبي مرة أخرى.

«وبعد ذلك تأخذ نقود مدرسة الأحد التي عملت جدتك طوال الأسبوع جاهدة من أجلها، تنفقها على الحلوى، ثم تعود إلى المنزل وتكذب بشأن ذلك. إذًا هذا ما تفعله! اكذب إذن!».

أدار جيمبوي ظهره وخرج إلى الشرفة، صافقًا الباب الشبكي خلفه. لم تجلد الخالة هاغر حفيدها، لكنها عادت إلى المطبخ وتركته واقفًا وقد ملأه الخزي في الردهة. ثم بدأ ساندي بالبكاء، وقد وضع إحدى يديه على فمه كي لا يسمع أحد صوت بكائه، وحينما عادت أنجي من عملها في وقت متأخر من بعد الظهر، وجدته مستلقيًا على سريرها، وقد دفن رأسه أسفل الوسائد، ولم ينقطع عن البكاء لأن جيمبوي وصفه بالكاذب.

مدرسة

بعد مرور بضعة أسابيع، تردّد صوت حفلة موسيقية في أنحاء الحيّ منذ الصباح الباكر:

أعرف امرأة خلاسية

وفتاة سوداء قصيرة،

إلّا أن فتاة سمراء

قد تجذبني إليها مسحورًا!

أغني للسمراء!

يا ربي!... يا رب!

السمراء!... أوه، يا ربي!

قالت هاغر من المطبخ: «لا بد أنه جيمبوي، ذلك الراكون الكسول يسترخي في الخارج مستمتعًا بالنسيم ليغني، فيما أنا هنا أتعرق وأغسل حتى أهلك!».

قطارات كانساس سيتي الجنوبية!

أقصد قطارات جورجيا الغربية والأطلسية!

سأستقل أول قطار

وأسافر بعيدًا

فأنا مصاب بشجن السكك الحديدية...

تمتمت هاغر من فوق المراجل التي امتلأت بالماء المغليّ: «أدعو الله أن ترحل إذن!».

لكنني لا أملك ثمن تذاكر القطار!

لذا سأحزم أمتعتي

وأمضي بعيدًا!

توسّل ساندي إلى أبيه بينما كان يجلس بالقرب منه تحت شجرة التفاح، المحمّلة بالفاكهة الناضجة: «علّمني كيف أنقر على الأوتار يا أبي».

«حسنًا، انظر هنا!... تضع إبهامك هكذا...» بدأ جيمبوي في الشرح. «لكن أصابعك ليست طويلة بما يكفي بعد!».

إلّا أن ذلك لم يمنعهما من قضاء نصف النهار ينقران على الآلة القديمة، وساندي يحاول تعلّم نغمة بسيطة.

انقضت صباحات أغسطس المشمسة وحلّتْ صباحات سبتمبر، ورجع معظم «بِيض» الخالة هاغر من عطلاتهم؛ فعاد مطبخها مجددًا مغسلةً يومية. امتلأت مراجل كبيرة بالملابس التي تصاعدَ منها البخار، وإلى جانب الملابس أوانٍ من عصير التفاح المغلي الذي يتحوّل إلى هلام، وقشور الدراق تغلي على نار هادئة لتصبح مربّى.

لم تصل أي أنباء عن هارييت الهاربة... توفيت السيدة لاين في ليلة قائظة، وهاغر إلى جانبها، وتكفّل المحفل بدفنها في تابوت بخمسين دولارًا وبمساعدة ثلاثة مأجورين. صادف الأسبوع التالي عرض كل الأمم، وقد حقق نجاحًا كبيرًا بعد تدريبات النساء الطويلة، ومشت أنجي بفخر مرتدية ملابسَ بيضاء ولُفّت بعلم اسكندنافي، ممثّلةً السويد. كان منزل مدام دي كارتر قد أُغلق بعدما غادرت إلى أوكلاهوما لتنظم فروع المحفل هناك. مرّت تيمبي لرؤية هاغر بعد ظهر أحد الأيام، لكنها لم تبقَ لوقت طويل. أخبرت والدتها أنها خرجت لتحصيل الإيجارات وأنها وزوجها سيشتريان منزلًا آخر. ارتدت ويلي ماي فستانًا منقّطًا جديدًا،

أما باستر فتعلّم أن يشتم بشكل أفضل من ساندي، وقد حُدّد يوم الاثنين المقبل كبداية الفصل الدراسي الجديد.

كره ساندي التفكير في العودة إلى المدرسة. كان يستمتع كثيرًا باللعب، وعلّمه جيمبوي الملاكمة. ثم حان وقت الذهاب إلى الفصول الدراسية.

قالت الخالة هاغر في وقت باكر من الصباح: «اغسل وجهك جيدًا يا سيد، وارتدِ سترة نظيفة، ولمّع حذاءك. فلا أريد أن يقول أحد المعلمين البيض إنني أرسلك إلى المدرسة بهيئة قذرة كذريعة لإعادتك إلى الصف الرابع. هل سمعتني يا سيد؟».

ردّ ساندي: «حاضر يا سيدتي».

كان من المقرر التحاقه هذا الصباح بالصف الخامس «الأبيض»، بعدما اجتاز في يونيو الماضي الصف الرابع «الملوّن»، ففي سانتون وُضع الأطفال أصحاب البشرة الملوّنة في صفوف منفصلة ليعلّمهم مدرّسون من أصحاب البشرة الملوّنة حتى اجتياز الصف الرابع. ثم من الصف الخامس فصاعدًا ينضمون إلى الأطفال الآخرين، ويدرّسهم معلّمون بِيض.

عندما وصل ساندي إلى المدرسة وقد أشرق وجهه، وجد الفناء يعجّ بالأطفال الذين ملؤوه صياحًا. على جانب الفتيات رأى ويلي ماي تلعب القفز على الحبل. عثر ساندي على إيرل وباستر وبعض الأولاد الذين يعرفهم يلعبون مامبل بيغ[1] بجانب الأولاد، فانضم إليهم. حينما قُرع الجرس تجمعوا كلّهم داخل المبنى، قبل أن تتشكل صفوف الطلبة. وقفت السيدة أبيغيل مينتر، مديرة المدرسة، عند المدخل، وكانت هناك لافتات كبيرة على أبواب كل غرفة تشير إلى الفصول. وجد ساندي فصل الصف الخامس في الطابق العلويّ ودخل خجلًا. كانت الغرفة مليئة بالفتيان

(1) mumble-peg: هي لعبة تضم لاعبَين عادةً، يرفع كل منهما سكّين جيب فوق كتفه، محاولًا أن يثبّت السكين في نقطة أقرب إلى قدمه، ومن يستطيع فعل ذلك يفوز.

الهامسين المحتشدين في مجموعات صغيرة. رأى بينهم طفلتين ملوّنتين، لم يعرف أيًّا منهما، ولم يكن هناك أيّ ولد ملوّن. سرعان ما طقطقت المعلّمة بخفة على مكتبها، فعمّ الصمت.

قالت بنبرة مزعجة: «اجلسوا في مقاعدكم جميعًا، من فضلكم. اجلسوا في أي مكان الآن حتى نرتّبكم». طرقت مجددًا بمسطرتها بطريقة نزقة، «اجلسوا». لذا اختار الأطفال مقاعدهم وجلسوا فيها، جلست معظم الفتيات في مقدمة الصف، بينما جلس معظم الأولاد معًا في الخلف، حيث يتسنى لهم اللعب والنظر عبر النوافذ.

المعلمة التي كانت في منتصف العمر وترتدي النظارات؛ قامت بتوزيع بطاقات ورقية صغيرة لكلّ طفل في الصف الأمامي، وأمرتهم بتسليمها إلى الجالسين خلفهم، ليحصل كل طالب على بطاقة واحدة.

«اكتبوا أسماءكم الآن على الورقة، ومرّروها إلى الأمام. لا تكتبوا سوى أسماءكم، هذا كل ما أريده منكم اليوم. ستأخذون لاحقًا استمارات لتملؤوها، لكنني هذا الصباح سأقوم بتوزيع المقاعد فحسب».

وسط الكثير من الارتباك واستعارة أقلام الرصاص، مُلئت البطاقات أخيرًا بأحرف كبيرة غريبة، وجمعتها المعلمة التي مشت بين المقاعد قبل أن تعود إلى مكتبها، حينها بدأت فترة ممتعة من الهمس والتلوّي بينما كانت تفرز البطاقات وترتّبها بحسب الأحرف الأبجدية، لتنتهي أخيرًا.

قالت: «الآن، لينهض كل من يسمع اسمه، حتى أتعرّف إليكم».

وقفت المعلمة والأوراق في يدها.

نادت وهي تحدّق ببطء بعد كل اسم: «ماري أتكينز... كارل ديتريش... جوزفين إيفانز... فرانكلين رودس... جيمس رودجرز». وقف ساندي بسرعة. «إيثل شورتليدج... رولاند توماس». استمر نداء الأسماء، ووقوف الأطفال ثم عودتهم للجلوس.

قالت المعلمة: «فلتنهضوا جميعًا الآن ولتقفوا في طابور على امتداد الجدران. بهدوء! ممنوع الكلام! مَن أذكر اسمه هذه المرة، يجلس بالترتيب، سنبدأ بالرقم واحد في الصف الأول بالقرب من النافذة... ماري أتكينز... كارل ديتريش...» تكررت الأسماء، فيما جلس كل طفل في مقعده كما أمرت المعلمة. جلس جميع الأطفال باستثناء أربعة منهم، بينهم الفتاتان صاحبتا البشرة الملوّنة وساندي.

ثم قالت: «ألبرت زويك»، وجلس آخر طفل أبيض في مكانه. قبل أن تضيف: «أما الآن أيها الأطفال الملونون اجلسوا في المقاعد خلف ألبرت. اجلسا أيتها الفتاتان في أول مقعدين، أما أنت..» وأشارت إلى ساندي «فاجلس في المقعد الأخير... وسأكتب الآن على السبّورة أسماءَ الكتب التي ينبغي عليكم شراءها، وأريدكم جميعًا أن تدوّنوا أسماءها بشكل صحيح». وواصلت حديثها عن تفاصيل روتين الفصل الدراسيّ.

استدارت واحدة من الفتاتين الملونتين إلى ساندي وهمست: «أجلستنا في الخلف لأننا زنوج». وأومأ ساندي ببطء. «اسمي سادي باتلر وأجلستني بعد حرف الـ(Z) لأنني زنجية».

همست الفتاة السوداء الأولى: «عجوز حقيرة! سأخبر أمي». شعر ساندي برغبة في البكاء. ولكنّ خجله منعه، فهو لم يعد صبيًا صغيرًا، رغم أنّ وضع المعلّمة للأطفال الملونين في الجزء الخلفي من الغرفة حفّز رغبته في البكاء.

عاد في وقت الغداء إلى المنزل مع قائمة كتبه، فسحبت الخالة هاغر ذراعيها المبلّلتين من الحوض، ومسحت يديها ورفعتهما مرعوبة.

«يا ربي! انظر! علينا إنفاق المال على أمر آخر، كل عام يزداد عدد الكتب ويقلّ ما يتعلّمه الأطفال! لم يكن لدينا سوى كتاب تعليم التهجئة،

وانظر هنا الآن، قائمة بطول ذراعي! اخرج إلى الفناء وانظر إن كان لدى والدك أيّ مال يعطيك إياه، فأنا ليس معي نقود».

وجد ساندي جيمبوي جالسًا مكتئبًا على البئر تحت أشعة الشمس. سأله: «هل معك نقود يا أبي؟».

نظر جيمبوي إلى قائمة الكتب المدوّنة بخربشة طفولية وأعطاه ببطء دولارًا ونصف.

قال والده وهو يقلب جيوبه إلى الخارج: «أنت ترى ماذا تبقى لديّ، أليس كذلك؟» مُظهرًا للولد الصغير سكّين جيب، وكيسًا نصف فارغ من تبغ بول دورهام، ومفتاح، ودايم. لكنه عاد وابتسم وحمل ساندي بين ذراعيه بشكل غريب وقبّله. «كل شيء على ما يرام يا فتى».

بعد ظهر ذلك اليوم في المدرسة تَمرّنوا طويلًا على جدول الضرب، ثم أجروا مباراة تهجئة، لأن المعلمة رأت أنها طريقة جيدة لاكتشاف ما يعرفه الأطفال. قُسموا إلى مجموعتين في مسابقة التهجئة، الأولاد والبنات، اصطف الفريقان على جانبين متقابلين من الجدار. ثم أعطتهم المعلمة كلمات كان يُفترض أن يكونوا قد تعلّموها في الصفوف السابقة. من جانب الأولاد خسر الجميع في المسابقة باستثناء ساندي، أمّا من جانب الفتيات فقد وقفت ثلاث فتيات بِيض صغيرات فخورات، وكاد يهزمهنّ أيضًا، حتى وضع حرف الـe قبل حرف الـi في كلمة «chief»، وانتصر فريق الفتيات، مما أثار اشمئزاز الفتاتين الملوّنتين والأولاد الذين أرادوا فوز ساندي.

ذهب ساندي مع باستر بعد المدرسة لشراء الكتب، لكنه وجد أمامه في المكتبة حشدًا من الأطفال، فلم ينتهِ من الانتظار وشراء جميع الكتب حتى الخامسة. عندما وصل إلى المنزل كانت الخالة هاغر واقفة فوق موقد المطبخ تقلي الباذنجان للعشاء.

قالت دون إبعاد ناظريها عن الموقد: «تأخرت كثيرًا في الخارج».

سألها ساندي بنبرة ملأتها اللهفة: «أين أبي؟» أراد أن يُري جيمبوي كتبه الجديدة، كتاب جغرافيا كبير، فيه صور حيوانات، وكتاب حكايات الطبيعة الذي عرف أن والده سيحب رؤيته.

قالت هاغر: «انظر هناك»، وهي تشير إلى غرفة نوم أنجي.

هرع ساندي إلى الداخل، ثم توقف، لأنه لم يكن هناك أحد. وانتابه فجأة شعور غريب، فألقى كتبه على السرير. لم تعد ملابس جيمبوي معلّقة على الحائط حيث كانت تُوضع قمصان العمل والسترات الخاصة به. نظر ساندي أسفل السرير. لم تكن حقيبة والده القديمة هناك، ولا حذاء عمله، ولا حذاء يوم الأحد الجلديّ. وكان الغيتار قد اختفى أيضًا.

كرّر سؤاله، وهو يعود راكضًا إلى المطبخ: «أين أبي؟».

«ألا ترى أنه ليس هنا؟» ردّت جدته، وهي منهمكة في تقليب شرائح الباذنجان بعناية فائقة في المقلاة. «لقد ذهب، كفاك سؤالًا عن مكانه، يا له من فتى كسول. قال لي أن أودع أنجي نيابةً عنه، فقد حان وقت رحيله! آه! جيمبوي والدك يا صغيري، لكنه غير نافع! وأنا نفسي سعيدة لأنه أخذ ملابسه ورحل عن هنا».

شتاء قاس

مرّ سبتمبر وقُطعت سيقان الذرة في الحديقة. لم يعد هناك تفاح على الأشجار، وهطلت الأمطار الباردة مسقطةً الأوراق عن أشجار القيقب والدردار. مرّ أيضًا شهر أكتوبر البارد الكئيب، من دون لمحة من الصيف الهندي أو الغابات الذهبية. كما لم يصل أي خبر من جيمبوي الراحل. قلقت أنجي حدّ المرض كالمعتاد، متأملةً كل يوم وصول رسالة من زوجها الهائم الذي أحبته. و سارعت كل ليلة عائدةً من عملها لدى السيدة رايس، لتنظر إلى طاولة الردهة بحثًا عن الرسالة، من دون أن تجد أي رسالة. لم ترسل هاريت شيئًا أيضًا، منذ رحلت مع الكرنفال، ولم تذكر هاغر اسم ابنتها الصغرى قَطّ. ولم تذكر جيمبوي أيضًا إلا حينما سألتها أنجي عنه، بعدما انتهت قدرتها على الاحتمال: «أأنت واثقة أن ساعي البريد لم يترك رسالة اليوم؟»، فأجابتها الخالة هاغر بصبر نافد: «أتظنيني سآكلها إن ترك رسالة؟ تعلمين أن ذلك الوغد عديم النفع لم يكتب لكِ!».

ولكن على الرغم من خيبات الأمل اليومية التي واصلت خدمة البريد تركها على الباب، لم تتوقف أنجي عن الإسراع في العودة من مطبخ السيدة رايس القائظ حالما تستطيع لتمشي تحت أمطار أكتوبر الباردة، متلهفةً لتفحص صندوق البريد الذي انتصب أمام الباب، ولا يمحو تلك الخيبات إلا أملها بوجود رسالة في الداخل على طاولة الغرفة الأمامية التي ظلت فارغة على الدوام. أُصيبت بنزلة برد رهيبة لمشيها في الشوارع الرطبة، متناسيةً تزرير عباءتها، قبل أن تجلس بحذائها المبلل عند عودتها إلى المنزل، وخيبة الأمل تسكن في عينيها، وهي متعبة وحزينة إلى الحد الذي يمنعها من خلع ملابسها.

قالت والدتها، التي غالبًا ما كان كلامها أكثر حدةً من مقاصده: «أنت حمقاء. لا تبكي على زنجي تافه مثل جيمبوي. أخبرتك منذ سنوات حينما جاء لأول مرة، ألّا فائدة منه. لا أحد من أولئك الزنوج الذين يعملون في حمل الأمتعة أو العناية بأحصنة السباق يستحق الزواج منك، وهذا ما كان عليه جيمبوي حينما تزوجتِه، ولم يتطوّر الآن. كما أنك أكبر سنًّا منه!».

«لكنك تعرفين سبب زواجي، أليس كذلك؟».

«ساندي، اخرج وأحضر بعض الحطب لهذا الموقد... نعم، أعرف السبب، لأنه والد هذا الطفل الذي كنتِ على وشك إنجابه، لكنني لا أفهم لماذا لم تنجذبي إلى أحد شبان سانتون الرصينين المكافحين في ذلك الوقت... لكن، سواء مع طفل أو بلا طفل، لم أسمعك تكررين شيئًا سوى جيمبوي، جيمبوي، جيمبوي! قلت لك إن من الأفضل أن تستمري في المدرسة الثانوية وتتابعي دراستك، لكن لا، أصريتِ على الزواج من جيمبوي هذا. ترين حالك الآن، أليس كذلك؟».

«حسنًا، هو ليس بهذا السوء يا أمي! ولا يهمني كل ما قلتِ، فأنا أحبه!».

«آها! حاولي أن تعتاشي على الحب يا ابنتي! حاولي أن تعتاشي على الحب فحسب... ارتكبتِ خطًا، هذا كل ما في الأمر يا عزيزتي... لكن أظن ألّا فائدة من الكلام الآن. اخلعي حذاءك المبلل قبل أن تصابي بنزلة برد!».

حدّثتهم أنجي عن عشاء عيد الشكر في منزل السيدة رايس، حيث تناولوا الديك الرومي مع صلصة الكستناء؛ لكن في منزل السيدة هاغر، فقد تناولت هي وساندي لحم البوسوم[1] الغضّ اللذيذ، الذي أهداهم إياه العجوز لوغان، مسلوقًا ومخبوزًا وبنيّ اللون مع البطاطس الحلوة . فتحت

(1) حيوان ينتمي إلى الجرابيات.(المترجم).

الخالة هاغر إناء خوخ محفوظ. وطلبت من ساندي دعوة جيمي لاين إلى العشاء، فبعد وفاة والدته لم يكن يتغذى جيدًا ولم يعتنِ به كثيرًا أولئك الناس الذين أقام معهم. لكن منذ ترك جيمي المدرسة لم يره ساندي كثيرًا؛ ولم يجده في اليوم السابق لعيد الشكر إطلاقًا، لذا لم يشاركهم أحد تناول لحم البوسوم.

بعد أسبوع من عيد الشكر مرضت أنجي ولازمت السرير. قالت الخالة هاغر إنها أُصيبت بأنفلونزا، وبدأت تعطيها جرعات من الكينين وتضع لصقات خردل ساخنة على ظهرها وتقدّم لها شراب البصل لتشربه، لكن لم يبدُ أن ذلك أفادها كثيرًا، فأرسلت في النهاية ساندي إلى الدكتور مكديلورز.

قال الطبيب: «جسدها ينهار تمامًا، أُصيبت بنزلة برد شديدة، من الأفضل توخّي الحذر. وعليها ملازمة السرير!»، لكن ذلك التحذير لم يكن ضروريًا، فقد شعرت أنجي بالتعب والضعف الشديدين إلى حدّ لم تستطع النهوض، وحدها صافرة ساعي البريد وهي تدوي أمام منزل شخص آخر تجعلها ترفع رأسها. ثم تتساءل بنبرة منهكة: «هل توقّف هنا؟».

كان منزل هاغر قد صار يشبه مغسلة بخار، انتشرت حبال الغسيل في المطبخ وعُلقت عليها الملابس لتجفّ. عاود جميع الزبائن القدامى إرسال ملابسهم إلى هاغر خلال فصل الشتاء. وبما أن أنجي كانت مريضة، ولم تحضر أيّ نقود للمنزل أيام السبت، فقد أخذت المرأة العجوز ملابس إضافية لتغسلها. ولأنها مُعيلة الأسرة الوحيدة، ظلت الرغوة تتطاير في مطبخ هاغر، إلّا أن الطقس الرطب أجبرها على تجفيف الملابس في المطبخ معظم الوقت، وحين يعود ساندي من المدرسة لتناول طعام الغداء، كان يتناول طعامه تحت ملابس البِيض التي تقطر بينما يستمع إلى سعال والدته في الغرفة المجاورة.

لم يكن هناك مواقد في غرف المنزل الأخرى، لذا أبقوا الأبواب مفتوحة حتى تصلها الحرارة من المطبخ. لم يكن في وسعهم إيقاد أكثر من نار؛ وبما أن المطبخ كان غرفة معيشة وغرفة طعام وغرفة عمل في آن معًا؛ فقد كان ساندي صباحًا ينهض من السرير ويركض حاملًا ملابسه بيديه إلى موقد المطبخ، حيث تكون جدته قد أوقدت النار، ووضعت إبريق القهوة، وحوضًا كبيرًا من الماء يسخن من أجل الغسيل. وكان يفتح كتاب الجغرافيا مساءً بعد العشاء ويقرأ عن البلاد الغريبة البعيدة. وإذا انتهت الخالة هاغر من كيّ الملابس، كانت تجلس إلى جانب الموقد وتغفو، بينما يستمر تقلّب أنجي وأنينها في غرفتها الباردة. وحده المطبخ ظل مُنارًا ودافئًا حقًا.

في فترة بعد الظهر عندما يعود ساندي من المدرسة، كان عادةً ما يجد الأخت جونسون تساعد هاغر في الكيّ، من دون انقطاع الحديث بينهما.

«هذا الشتاء سيكون قاسيًا، تقول الصحف إن الناس يُطردون من عملهم في كل مكان بسبب كل هذا البَرد والمطر، هذه كارثة بالنسبة إلى الفقراء! حصل توم على عمل جيد حيث يتولى المحرقة في مبنى فاير، لذا، لم أعد أغسل الكثير من الملابس بما أنه يعمل، لكن توقف الكثير من الملونين عن عملهم، ومع قدوم عيد الميلاد، فهذا أمر مروع بلا شك! أما بالنسبة إليك أيتها الأخت ويليامز، فابنتك طريحة الفراش! متى ما شعرت بأن عبء غسيل الملابس قد أصبح ثقيلًا عليك فإنني أستطيع مساعدتك. أرسلي هذا الطفل إليّ فحسب، أو نادِني عبر الفناء إن كنتِ تستطيعين جعلي أسمعك!... كيف تكوينَ هذا الفستان، أتُديرين الياقة إلى الأعلى أم إلى الأسفل؟ كيف تحبّها السيدة دنست؟».

ردّت هاغر التي كانت تكوي المناديل والمناشف على الطاولة: «دائمًا ما أكويها إلى الأسفل. من الأفضل أن تدعيني أكويها، وتتولي هذه المناشف».

وافقتها الأخت جونسون: «حسنًا، لأنك تعرفين كيف يحب البيض هذه الأمور، أما أنا فلا. يختلفون كثيرًا عنّا!».

قالت هاغر: «بالطبع. غسلت ذات مرة ملابس امرأة تريد ملاءاتها حتى مكوية».

«لكن سُمْعتك رائعة كغسّالة أيتها الأخت ويليامز. إحدى السيدات البيض اللواتي عملت لديهنّ قالت إنك بارعة في الغسيل».

قالت هاغر بفخر: «أظن أن البيض يرونني ذكية. دائمًا ما تنالين إعجابهم إن أنجزت الأمور بطريقة صحيحة».

«تقصدين حينما تحاولين إنجاز عملك بشكل صحيح. لا يهمهم شيء فيك سوى ما تقدّمين من عمل لهم. ألم يجعلوا جميع السود الصغار يجلسون في صف واحد في المدرسة التي يرتادها ساندي وويلي ماي؟ أنا مثل هاربيت، لا يهمني من البيض سوى حفنة المال التي يعطونني إياها. أنت لم تُهجّري من موطنك مثلي يا هاغر... ساندي، سارع بإحضار غليوني من المنزل، ولا تقضي طوال النهار في اللعب مع ويلي ماي! أسرع وأحضره!... وعليك سماع كيف يتحدث البيض عن الزنوج. يقولون إنهم كسالى وقذرين وغيرها من الصفات. عليهم أن يشمّوا أنفسهم! شممت رائحة البيض عندما يتعرقون، أليس كذلك؟ تفوح رائحتهم كالقشدة الحامضة، بل أسوأ من ذلك، تشعرك بالغثيان. وبعض أولئك الغرباء الذين يأكلون الثوم... أوف! يا رباه!».

عندما عاد ساندي بالغليون، تحولت المحادثة إلى الوفيات في مجتمع السود: «هاغر، يموت الناس في كل مكان هذا الشتاء. كان خريفًا صعبًا للغاية، هذا هو السبب. تعلمين أن جاك سميرز التافه توفيّ الأحد الماضي. أقاموا جنازته البارحة وحضرتها. لحسن الحظ انتمى إلى المحفل، وإلا لدُفن في حقل قاحل، لأنه لم يترك سنتات نحاسية توضع على عينيه حتى.

تحمّل المحفل فاتورة جنازته، لكنني سمعت أكثر من عضو يتكلّم عن كيف دُفن رجل يساوي عشرة دولارات في نعش قيمته مئة دولار!... وحضرت زوجته الجنازة! أجل يا سيدتي! يا لها من عاهرة! تركته العام الماضي مع أطفالها الصغار ليعتني بهم، فيما كانت تتسكع في الشوارع متبخترةً. جلست ثملةً تمامًا في الأمام مع النوّاحات، وقد غطت وجهها بخمار أسود طويل وصبغت معطفها بالأسود، وطوال الوقت الذي ظلّ القس بتلر يخطب فيه عن جاك كم كان تقيًا، دارت ولفّت وسعلت وتقلّبت ونفخت ومسحت وجهها، وهي تحاول أن تذرف الدموع من دون نجاح، يا لها من مخادعة! ثم بدأت تصرخ فجأة، من دون أن تنهمر دمعة من عينها؛ كل ما أرادته هو جذب أنظار الناس إليها، فجاك لم يكن يهمّها إطلاقًا. تعيش في قاع المدينة منذ فبراير الماضي مع شاب حمّال أمتعة ليس أكبر بكثير من ابنها بيرت!».

قالت هاغر: «يا يسوع! بعض النساء فظيعات».

قالت الأخت جونسون: «بل أسوأ من ذلك!... يا رباه! اسمعي صوت البرَد يرتطم باللفافات! سيكون شتاءً حقيقيًا! كيف يمر الوقت بسرعة. لم يتبق سوى ثلاثة أسابيع على عيد الميلاد!».

قالت جدة ساندي: «صحيح! لن يكون لدينا أي نقود على الإطلاق. حينما تمرض أنجي، لا يتوفر لدينا إلا ما يكفي لدفع الضرائب وفائدة الرهن! يا ربي، تعاني النساء السود فعلًا!».

«هذا مؤكد!» قالت الأخت جونسون، وهي تسحب من غليونها بينما تكوي. «منذ متى تقيمين في هذا المنزل أيتها الأخت ويليامز؟».

«منذ حوالي أربعين عامًا، جئت أنا وكدج من مونتغمري، وأغسل ملابس البيض كل أسبوع منذ جئت إلى هنا أيضًا. اشتريت هذا المنزل بما جنيته من عملي في الغسيل، ودفعت مثل ما دفع كدج تقريبًا؛ وربّيت بناتي

بما جنيته من عملي في الغسيل؛ وحينما مرض كدج واستلقى في السرير لأكثر من عام؛ تولّيت رعايته بما جنيته من عملي في الغسيل؛ وحينما توفي دفعت تكاليف جنازته من عملي، لأنه لم ينتم إلى أيّ محفل. أرسلت تيمبي إلى المدرسة الثانوية وعلّمت أنجي حتى تَزوجت جيمبوي التافه ذاك، وأعَلْت هاريت حتى تركت المنزل. نعم يا سيدتي، غسيل الملابس، وها هي يداي ما تزالان في الحوض! لكن ما زال هناك مَن عليه الذهاب إلى المدرسة أيضًا، وهو ساندي الصغير. إن أمدّ الربّ بعمري، سأجعله رجلًا متعلّمًا. سيكون بوكر تي واشنطن آخر». وضعت هاغر تنورة داخلية بيضاء ضخمة على طاولة الكيّ وضغطت بعناية على حاشيتها المطرزة. «لم أربِّ ولدًا من صلبي قَطّ، لذا أريد أن يصبح ابن أنجي شخصًا مهمًا. أريده أن يتعلّم كل ما يتعلمه البيض، ليساعد العِرق الأسود على النهوض ورؤية النور، أريده أن يتقلّد مراكزهم في العالم. أريده أن يقود الناس مثل فريد دوغلاس، وألا يسير على خطى والده الهائم عديم النفع جيمبوي».

صرخت أنجي بنبرة ضعيفة من سريرها في الغرفة الأخرى: «لا تقولي هذا يا أمي، جيمبوي جيد، لكنه أذكى بكثير من تأدية عمل حفر الخنادق الشاق، وبما أن البيض لن يمنحوا رجلًا ملونًا فرصة هنا في سانتون؛ اضطر إلى الرحيل».

«ها أنت تنفعلين، وأنت مريضة. ظننتك نائمة. لم أقصد شيئًا يا عزيزتي. إنه جيد بالطبع»، قالت هاغر ذلك لإسكات ابنتها، لكنها لم تستطع مقاومة غمغمة: «لكنني لم أره مفيدًا لكِ في شيء».

سألت الأخت جونسون، التي كانت غالبًا ما تتبنى وجهة نظر معاكسة لتحيي النقاش: «حسنًا، لكنه لم يضربها قَطّ، أليس كذلك؟ أعرف الكثير من الرجال الذين يضربون زوجاتهم. ضربني توم بضع مرات قبل أن أكتشف طريقة لردعه، لكن هذا ليس مهمًا!» طوت المنشفة بإحكام

وفركتها بقوة بالمكواة الساخنة. «هل أخبرتك من قبل عن الرجل الذي سكن إلى جوارنا في القاهرة؟ جرحَ بطن زوجته بموس الحلاقة ثم جلس ينظر إليها والطبيب يخيط جرحها، وراح ينوح قائلًا: (لا أعرف لم جرحت بطنها! أوه، يا ربي! لطالما قالت لي ألا أجرحها في بطنها!)... ولم يمض شهران حتى جرحَ بطنها مجددًا بينما كانت تحاول الابتعاد عنه! كان ذلك الرجل لئيمًا!».

نادت هاغر: «أنجي، هل تناولت الدواء؟ الساعة تجاوزت الرابعة. ساندي، خذ هذه الخمسة عشر سنتًا، واذهب إلى المتجر وأحضر لي عظامًا للحساء. سأحاول تحضير بعض الحساء لوالدتك. ولا تغبْ طوال النهار، لأن عليّ إرسال هذه الملابس إلى منزل السيد دنست». كوّت هاغر الجوارب محولة انتباهها إلى المحادثة مجددًا. «أخبروني أيتها الأخت جونسون أن سيث جونز ذاك يضرب زوجته بفظاعة».

«صحيح، وهو محقّ في ذلك! تظلّ خارج المنزل جالسة في الكنيسة، من دون أن تحضر له الطعام، فيما يجول أطفالها في الشوارع بهيئة رثّة».

«إنها مهووسة بالدين، صحيح؟» سألت هاغر... «يا ساندي، أسرع يا سيد! وأحضر العظام لأطهو الحساء!».

قالت الأخت جونسون: «لا يا عزيزتي، ليست كذلك. لا تهتم كثيرًا بالدين، بل تسعى وراء القس بتلر. كلما فتحت الكنيسة أبوابها تحشر نفسها في أنف الواعظ، تحاول حرف الراعي عن قطيعه. هي التي أخذت مال زوجها واشترت للقسّ بتلر عكاز المشي ذهبي الرأس الذي يملكه. لا ألوم سيث لضربها على مؤخرة رأسها، وهي تأخذ أمواله لتشتري عكازات للكهنة!».

قال ساندي وهو يرتدي قبعته الشتوية: «سادي بتلر في مدرستي. القس بتلر زوج والدتها».

فقالت هاغر: «اخرس! تسمع أمورًا لا تعنيك. ألم أقل لك أن تذهب وتحضر لي العِظام لأحضّر الحساء؟».

«بلى. أنا ذاهب».

قالت الأخت جونسون وهي تضع المكواة على الموقد: «أظن أنني سأذهب أيضًا. اقترب موعد عشاء توم. قلت لويلي ماي أن تقشر البطاطس قبل أن آتي إلى هنا، لكنني أظنها لم تفعل ذلك. إنها أسوأ فتاة سوداء فيما يتعلق بالعمل! حالما تنتهي من تناول الطعام، تخرج من المنزل لتتجنب غسل الأطباق!».

مضى ساندي في طريقه إلى المتجر مع الأخت جونسون التي ارتدت معطفًا قديمًا فوق رأسها، عابرةً الفناء الخلفي إلى باب منزلها. كان الجو باردًا عصر ذلك اليوم من ديسمبر، ولسع المطر المثلج وجه ساندي وهو يركض، إلّا أن رائحة الهواء كانت طيّبة بعد رطوبة المطبخ ورائحة عفونة غرفة أنجي المريضة. قابل ساندي ساعي البريد بالقرب من الزاوية، وقد احمرّ وجهه من البرد.

سأله الفتى الصغير: «ألديك أي رسالة لنا؟».

أجابه الرجل وهو يمضي من دون توقّف: «لا».

تمنّى ساندي أن تتحسن والدته قريبًا. بدت في غاية الحزن وهي مستلقية في الفراش. والخالة هاغر مشغولة دائمًا بالغسيل والكيّ. لم يكن لدى جدّته الوقت الكافي لترقيع جواربه بعد أن ظهرت ثقوب كبيرة عند كعبيه، كما اهترأ نعل حذائه. قالت والدته البارحة: «عزيزي، من الأفضل أن تأخذ حذائي البنّي ذي الكعب العالي من أسفل السرير وتلبسه لتحفظ جفاف قدميك في هذا الطقس الرطب. لا أستطيع شراء أيّ شيء لك الآن، وليس عندك جزمة مطاطية».

قال ساندي معترضًا.: «هل تريدينني أن ألبس حذاءً نسائيًا مثل جيمي لاين؟ لن أصاب بالبرد لمجرد ابتلال قدميّ».

لكن هاغر قالت مناقضةً اعتراضه من المطبخ: «البس ذلك الحذاء يا سيّد، ولا تجادل والدتك، إنها مريضة وطريحة الفراش! البسه واسكت، حتى تحصل على حذاء أفضل».

لذا اضطر ساندي هذا الصباح في الفسحة إلى أن يقاتل صبيًا لأنه وصفه «بالمخنّث» بسبب ارتدائه حذاءَ والدته.

لم يتبقّ على عطلة عيد الميلاد إلا أسبوع ونصف! في الجزء الأعلى من المدينة امتلأت الواجهات بالألعاب والدّمى والمزالج والزلاجات. رغب ساندي في مزلجة غولدن فلاير بمناسبة عيد الميلاد. كانت كل ما رغب فيه، غولدن فلاير بدفّاتها المتحركة، لكي يستطيع توجيهها بسهولة. يا للروعة! تخيل نفسه يتزحلق إلى أسفل ذلك التل بالقرب من غابات هيكوري حيث يتزلج رفاقه كل عام! سعرها أربعة دولارات وخمسة وتسعون سنتًا فقط، من المؤكد أن جدّته تستطيع شراءها، حتى لو كانت والدته مريضة ودفعت ضرائبها. أربعة دولارات وخمسة وتسعون سنتًا، لكن لم يكن ليريد أي شيء آخر إن استطاعت الخالة شراء تلك المزلجة ليحضرها له بابا نويل! أخذ يمرّ على المتجر كل يوم بعد المدرسة، حيث عُرضت مزلجات كثيرة، يقف لوقت طويل محدقًا إلى غولدن فلاير بأخشابها الصلبة الضيقة والمطلية بلون أصفر لامع. كانت زلّاجتاها حمراوان زاهيتان وفيها ذراع جميل للقيادة.

حينما حدّث الخالة هاغر عنها، كل ما قالته: «يا ولد، هل جننت؟»، إلا أن أنجي ابتسمت من سريرها وأجابته: «انتظر وسترى». ربما سيحضرانها له، لكن علِم ساندي أن بابا نويل لئيم مع الأطفال الفقراء أحيانًا إن لم يمتلك أهلهم النقود.

حينما وصل إلى المتجر قال للجزّار شارد الذهن: «لحم مفروم بخمسة عشر سنتًا»، وعندما عاد ساندي إلى المنزل جلَدته جدّته لأنه أحضر اللحم المفروم بدلًا من عظام الحساء التي أرسلته ليحضرها.

وهكذا مرت الأيام الباردة، ثقيلة وغائمة، مع ملازمة أنجي الفراش، وامتلاء المطبخ بالملابس المعلّقة على الحبال في انتظار جفافها، لأن المطر المتجمّد في الخارج لم ينقطع هطوله. دائمًا ما كان في غرفة هاغر كومة كبيرة من الملابس الجافة التي تنتظر إلى الأبد كي تُكوى. بذل ساندي جهده لمساعدة جدّته في قضاء الحاجات، جلب الفحم والخشب، ضخّ المياه في الصباح قبل ذهابه إلى المدرسة، جلس بجانب والدته في المساء، وقرأ لها من كتاب حكايات الطبيعة عندما لم تكن غرفة نومها قارسة البرودة.

استطاعت أنجي الجلوس أخيرًا وقالت إنها تشعر بتحسن، لكنها بدت شاحبة ومنهكة. أرادت العودة إلى العمل، لتجني بعض المال من أجل عيد الميلاد، ولتستطيع مساعدة هاغر في تسديد فاتورة الطبيب، لكنها ظنت أنها لا تستطيع ذلك بعد. ولم ينقطع قلقها بشأن جيمبوي. مرّت ثلاثة أشهر على رحيله، وهي أطول من المدة المعتادة التي يمضيها عادةً قبل أن يكتب لها رسالة. ربما تعرّض لمكروه. ربما ظل عاطلًا عن العمل وجائعًا، لأن الشتاء كان قاسيًا. ربما مات!

ولمجرد أن الفكرة راودتها، صرخت أنجي: «أوه، يا إلهي، لا!».

لكن ذات صباح أحد، قبل عيد الميلاد بعشرة أيام، رُنّ الجرس بعنف ووقف صبي من العاملين في التوصيل السريع على الشرفة الأمامية. قفز قلب أنجي من مكانه وهي جالسة في السرير. رأت الفتى يقترب من النافذة. إنها أنباء من جيمبوي بلا شك، أو أنباء عنه!

«أمّي! ساندي! أسرعا وانظرا ما الأمر!».

«رسالة إلى السيدة أنجيليكا رودجرز»، قالها الصبي وهو يبعد الثلج عن قدميه. «وقّعي هنا».

بينما أبقى ساندي الباب مفتوحًا، تاركًا الرياح الباردة تعصف بالمنزل، خربشت هاغر على دفتر الصبي الوردي. ثم سارعت المرأة العجوز والطفل من خلفها بالمغلف الأبيض إلى سرير ابنتها.

«إنها منه!»، صرخت أنجي؛ «كنت أعلم أنها من جيمبوي»، وهي تمزق المغلف بأصابعها المرتجفة.

سقطت ورقة دفتر متسخة على اللحاف، وسرعان ما التقطتها أنجي. كُتبت الرسالة بيد أنثوية باستخدام قلم رصاص.

أختي العزيزة:

انقطعت بي السبل في ممفيس في ولاية تينيسي، وذهب العرض إلى نيو أورلينز. لا أستطيع شراء أي شيء لأتناوله لأنني مفلسة ولا أعرف أحدًا في هذه المدينة. أنجي، أرجوكِ أرسلي إليّ أجرة السفر لأعود إلى المنزل. أرسليها عبر البريد إلى فندق بيل ستريت للملونين. أرسل محبتي إليك وإلى ماما.

أختك الصغرى

هارييت

عيد الميلاد

«يا للصغير المسكين»، قالت هاغر. «يا للصغير المسكين، وليس لدينا أي نقود». في الليلة السابقة، يوم السبت، اشترت هاغر كيس دقيق، قطعة من لحم الخنزير المملّح، وبعض الحاجات من البقالة. استُدعي الدكتور ماكديلورز العجوز بعد الظهر، ودفعت له النقود أيضًا.

«أعتقد أننا بحاجة إلى ثلاثين دولارًا لنرسلها إلى هاريت، والربّ يعلم أننا لا نملك ثلاثة دولارات في المنزل».

ارتمت أنجي منهكة على وسائدها وهي تحدّق في الثلج المتساقط عبر النافذة، وأخذت تبكي.

«لكن لا تقلقي»، استطردت والدتها، «سأقابل السيد جون فرانك غدًا لأرى إن كان في وسعي اقتراض بعض المال على الرهن العقاري الذي قمنا به معه».

تركت السيدة العجوز غسيلها وتوجّهت إلى مكتب المرابي صباح الإثنين، إلّا أن الموظف هناك قال إن السيد فرانك ذهب إلى شيكاغو ولن يعود قبل أسبوعين، ولم يكن في يد الموظف شيء، فهو ليس مخولًا بإقراض المال.

جلست أنجي في السرير بعد ظهر ذلك اليوم وكتبت رسالة طويلة إلى هاريت تحكي فيها عن مشكلاتهم، وقبل أن تغلقها، رأى ساندي والدته تضع في مظروف الرسالة ثلاث أوراق نقدية كانت قد خبّأتها أسفل وسادتها.

قالت لابنها: «هذه كانت نقود هديّتك لعيد الميلاد، لكن ربما هاربيت جائعة. ولا تريد أن تكون خالتك هاري جائعة، أليس كذلك؟».

قال ساندي: «لا يا سيدتي».

مرّت الأيام الرمادية واستطاعت أنجي أخيرًا النهوض والجلوس بجانب موقد المطبخ بينما تكوي والدتها الملابس. أخذ ساندي يذهب بعد ظهر كل يوم إلى وسط المدينة لينظر إلى واجهات المتجر التي زهت بأغراض عيد الميلاد. يقف ويحدّق في مزالج غولدن فلاير في متجر إدموندسون للمعدات. يتخيّل نفسه ينزل عبر تلة مرتفعة على واحدة من تلك المزالج الحمراء والصفراء، الخفيفة، السريعة، وجميع الأولاد الآخرين البِيض والملونين ينظرون إليه بحسد.

عندما عاد إلى المنزل وصف المزلجة بدقة لأنجي والخالة هاغر، وتساءل بصوتٍ عالٍ إن كان سيحصل عليها في عيد الميلاد. إلّا أن هاغر قالت: «بابا نويل مثل غيره من الناس. لا يعمل من دون مقابل!»، فيما أضافت والدته بنبرة واهنة: «سيكون عيد الميلاد هذا بسيطًا يا عزيزي، لكن سترى أمك ما تستطيع فعله». فقد عرفتْ أنّ قلبه معلّق بتلك المزلجة، وأدرك أنها تعرف ذلك؛ لذا ربما يحصل عليها.

استجمعت أنجي قواها ذات يوم، لبست ثوبًا صوفيًا فوق الكيمونو، لفّت عباءة سميكة حول نفسها، وخرجت إلى الفناء الخلفي. راقبها ساندي من خلال النافذة وهي تشقّ طريقها ببطء عبر الأرض المتجمّدة باتجاه المرحاض الخارجي. توقّفت عند كومة القمامة التي تراكمت بالقرب من سياج الزقاق، انحنت، وبدأت تسحب قطع قصيرة من الألواح والأخشاب من كومة أخشاب صغيرة تركها النجّارون الذين بنوا الشرفة في الصيف الماضي. نهضت عدّة مرات في أثناء عملها واتكأت منهكة على السياج الخلفي لتسند نفسها. خرج ساندي ليرى إن كان يستطيع مساعدتها،

لكنها أمرته بانفعال أن يعود إلى المنزل وإلا ستجعله يخلد إلى النوم من دون عشاء. وبعد أن وضعت الألواح التي أخرجتها في كومة بالقرب من الطريق، عادت مرهقة إلى المطبخ وهي ترتعش من البرد.

قالت لهاغر: «ما زلت ضعيفة للغاية، لكنني متأكدة أنني تحسّنت كثيرًا عمّا كنت عليه. لا أريد أن أصاب بنزلة برد مرة أخرى... ساندي، تفحّص صندوق البريد وانظر إن كان ساعي البريد قد مرّ».

عندما عاد الولد الصغير بيدين خاويتين، سمع والدته تتحدث عن العجوز لوغان الذي كان نجّارًا.

كانت تقول: «ربما يمكنه صنعها»، إلّا أنها توقفت عندما أحسّتْ بساندي خلفها. «أظن أنني سأستلقي الآن».

أخرجت الخالة هاغر آخر قطعة من الملابس التي كانت تغسلها. وقالت: «نعم يا ابنتي، اذهبي واستلقي. سأحضّر لك بعد قليل بعضًا من الشاي». خرجت المرأة العجوز لترفع عن الحبل الملابس المجمدة التي تهب عليها رياح الشمال لاذعة البرودة.

قالت الخالة هاغر بعد العشاء بنبرة عادية: «حسنًا، أعتقد أنني سأذهب لرؤية الأخ لوغان قليلًا بما أنه ليس لديّ ما أفعله. ساندي، لا تدع النار تخمد، واعتن بأمك».

أجاب الصبي الصغير وهو يرسم بقلم على المنضدة المغطاة بمشمع: «حاضر يا سيدتي». خرجت جدته من الباب الخلفي وهو ينظر من خلال النافذة التي اكتست بالصقيع ليعرف في أي اتجاه تمضي. التقطت المرأة العجوز الألواح التي كوّمتها والدته بالقرب من سور الزقاق، واختفت حاملةً إياها عبر الظلمة في الزقاق.

لم يمر الكثير من الوقت حتى عادت الخالة هاغر تلهث.

سألت أنجي بقلق: «أيستطيع صنعها؟».

«أجل يا عزيزتي»، أجابتها هاغر. «يا رباه، الطقس بارد جدًا في الخارج! دعوني أقف بالقرب من الموقد!».

بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى ليلتها. سقطت الندف الثقيلة الكبيرة بلطف واهن فوق المدينة وغطّى البياض كل شيء بصمت. تجمّد الثلج متحولًا إلى قشرة صلبة متلألئة على الأسطح في صباح اليوم التالي، لذا حين ذهب ساندي ليعيد ملابس عائلة راينهارت في وقت متأخر من بعد الظهر، أمكنه المشي على الثلج من دون أن تغرق قدماه.

بينما كان ساندي ينتظر الطبّاخة لتحضر المال، انبعثت رائحة حلوى البرقوق والفطائر الصغيرة الساخنة المحشوة بالفواكه عند الباب الخلفي لمنزل عائلة راينهارت. عادت بخمسة وسبعين سنتًا، وأعطت ساندي نيكلًا أيضًا. وبينما كان يتزحلق على طول الشارع، رأى عبر النوافذ العديد من الأكاليل الزاهية المزيّنة بالتوت الأحمر وقد عُلّقت عليها شرائط كبيرة. تمنّى ساندي لو كان في استطاعته شراء إكليل لمنزله. فربما يضفي البهجة على غرفة والدته. لم يحسّ بأجواء عيد الميلاد في المنزل مع امتلاء المطبخ بالملابس المجففة، وغياب شجرة عيد الميلاد.

تساءل ساندي في قرارة نفسه بعد كل شيء؛ إن كان بابا نويل - بمصادفةٍ جميلةٍ ما- سيحضر له مزلجة غولدن فلاير في صبيحة عيد الميلاد. كم سيكون هذا الثلج القاسي رائعًا للتزحلق على التلة الطويلة في غابات هيكوري! كم كان سيطير بسرعة وخفة على مزلجته الجديدة! من المؤكد أنه كان ولدًا طيبًا، فقد كان يحمل ملابس الخالة هاغر، ويجلس بالقرب من والدته عندما لازمت الفراش، ويفرغ المياه القذرة ويقطع الخشب كل يوم. عندما تلا صلواته في الليل قال:

وبينما أخلد الآن إلى النوم.

أدعو ربي أن يحفظ روحي.

وإن كان لي أن أموت قبل الاستيقاظ،

فأدعو ربي أن يأخذ روحي...

قبل أن يضيف بجدّية كبيرة: «ودعْ بابا نويل يحضر لي مزلجة غولدن فلاير، أرجوك يا رب. آمين».

لكن ساندي أيقن تمامًا ألّا وجود لبابا نويل! علمَ أنّ هاغر ووالدته هما بابا نويل، وأنهما لا تملكان النقود. كانوا فقراء. كان يرتدي حذاء والدته كما فعل جيمي لاين من قبله. أما والده وهاريت، اللذان كانا يضفيان البهجة على المنزل بضحكهما وغنائهما، فكانا بعيدَين في مكان ما... لم يكن هناك بابا نويل.

«لا يهمّني» قالها وهو يدوس فوق الثلج عبر الشفق في طريق عودته من منزل آل راينهارت.

حلّت عشية عيد الميلاد. الشموع وزهور بنت القنصل. الأكاليل دائمة الخضرة. عُلّقت أشجار صغيرة بخيوط طويلة من الزينة وزخارف الزجاج الملون الرقيقة. مرّ ساندي بنوافذ الكثير من بيوت البيض التي أُسدلت ستائرها وانبعث منها فيض دافئ من النور الكهربائي الذي أضفى الحميمية على الغرف. في أكواخ الزنوج أيضًا، انبعث دفء خافت من مصابيح الزيت وشموع الميلاد المتوهجة. لكن لم يكن هناك أيّ إكليل في منزلهم. وكان الثلج على الأرض أكثر بياضًا وقساوة من أيّ وقت مضى.

حين دخل المطبخ لم تكن هناك ملابس ينتظرونها لتجفّ. وُضع لوح الكيّ خلف الباب، وقد نُظّف المكان ورُتّب بالكامل. اشتعلت النيران وطقطقت في الدائرة الصغيرة؛ لكن من دون أي شيء آخر يوحي بأنه عيد، لا ضحك، لا زينة، لا شجرة.

ظلّت أنجي طوال النهار منهكة، إلّا أنها خرجت بعد الظهر في مشوار إلى المتجر لتشتري بربع دولار حلوى ومكسرات وبرتقالة واحدة خبّأتها حتى الصباح. خبزت هاغر كعكة صغيرة، لكن من دون أن تغطيها بأي شيء كما كانت تفعل في السنوات المنصرمة، ولم يكن هناك أيّ علب غريبة مغلّفة بأوراق رقيقة مُعلّقة في زوايا الصناديق والأدراج.

على الرغم من أن المطبخ الصغير كان دافئًا بما يكفي، إلا أن غرفتَي النوم كانتا باردتين، والغرفة الأمامية قارسة البرودة. ظلت الخالة هاغر تردد أنّه من الصعب تحمّل تكلفة إبقاء النار متقدة في موقد واحد، ناهيكم عن اثنين، مع عدم وجود من يعمل سواها.

«أفكر في هاريت» علّقَتْ هاغر بعد عشاء عشية عيد الميلاد وهي ترتجف بالقرب من النار، «طالما حاولت تربيتها بشكل قويم».

قالت أنجي: «وأنا أفكر في... حسنًا، لا داعي لذِكره».

مرّت مزلقة برنين أجراسها وضحك راكبيها، قبل عبور مجموعة من الشباب في طريقهم إلى الكنيسة مؤدّين الترانيم. مرّت مزلقة أخرى مُطلِقةً صوتًا مبهجًا.

قالت أنجي مبتسمةً لابنها الصغير المتجهّم: «إنه بابا نويل! من الأفضل أن تسرع وتخلد إلى الفراش، لأنه سيأتي بعد قليل. ولا تنسَ أن تعلّق جوربَيك».

لكن ساندي كان يخشى أنها تخدعه، وحينما خلع ملابسه ترك جوربيه على الأرضية، عالقَين في الحذاء النسائي الذي كان يرتديه. ثم ترك باب غرفة النوم مواربًا حتى تدخل بعض الحرارة والضوء إليها. صعد إلى سرير والدته، لكنه لم يكن ينوي أن يغمض عينيه. اكتشف ساندي منذ زمن بعيد أنك تستطيع سماع ورؤية أمور عديدة حينما لا تنام في الوقت الذي تظنك عائلتك غاطًا في النوم؛ لذا ظلّ ليلتها مستيقظًا.

تحدّثت والدته وقتئذ إلى الخالة هاغر: «لا أعتقد أنه سيأخذ منّا نقودًا، أليس كذلك يا أمي؟»، فأجابتها المرأة العجوز: «لا يا صغيرتي، فالأخ لوغان يحاول التودّد إليّ منذ عشرين عامًا، ولن يتقاضى منّا شيئًا».

دخلت أنجي إلى غرفة النوم شبه المظلمة ونظرت إلى ساندي الذي استلقى على جانب السرير ووجهه إلى النافذة. قبل أن تنزل معطفها السميك عن الحائط لتجلس على حافة كرسي، وتبدأ في ارتداء جزمتها المطّاطية. سمع الباب الأمامي يُغلق بهدوء بعد لحظات قليلة. كانت والدته قد خرجت.

تساءل أين قد تذهب في هذا الوقت من الليل؟ سمع خطواتها وهي تسحق الثلج القاسي، فتدحرج إلى قرب النافذة، سحب الستارة جانبًا بعض الشيء ونظر إلى الخارج. رأى أنجي في ضوء القمر تمضي ببطء عبر الشارع متجاوزةً منزل الأخت جونسون، وهي تمشي بحذر على الجليد كأنها امرأة ضعيفة جدًا.

قال الطفل في قرارة نفسه، فيما كان أنفه مضغوطًا على زجاج النافذة البارد: «ما زالت أمي مريضة. أتمنى لو كنتُ أستطيع أن أشتري هدية لها اليوم».

سرعان ما عرف من الشخير المتقطع القادم من المطبخ أن هاغر غفت بسلام في كرسيها الهزاز بجانب الموقد. جلس على سريره، ولفّ كتفيه باللحاف، من دون أن تفارق عيناه النافذة.

تلألأ الثلج الأبيض في ضوء القمر، وبرزت من الأشجار ظلال سوداء على طول الفناء. عمّت الظلمة والسكون منزل عائلة جونسون المجاور، لكن على الجانب المقابل من الشارع، حيث يعيش البيض، أُنيرت الأضواء وانتصبت شجرة ميلاد كبيرة بكل شموعها المتّقدة عبر النافذة العريضة بينما ملأتها امرأةٌ بالألعاب. عرف ساندي أن أربعة أطفال يعيشون هناك،

ثلاثة أولاد وفتاة، فقد شاهدهم كثيرًا يلعبون في الحديقة. تمنى أحيانًا لو كان لديه أخًا أو أختًا ليلعب معهم أيضًا، فقد عمّ المنزل سكونٌ رهيب مع وجود الكبار فحسب. شعر وقتها بالحزن والوحدة لوجوده بمفرده وهو ينظر عبر نافذة غرفة نوم باردة عشية عيد الميلاد.

عادت هيئة المرأة المتلحفة ببطء متجاوزةً منزل الأخت جونسون في ضوء القمر. رأى ساندي والدته عائدة ورأسها منحنيًا إلى الأسفل، فيما سواد ظلّها يعبر الثلج. وتمكّن من سماع صوت صرير كعبها الجاف على البياض المتجمد وهي تمشي منحنيةً بينما تسحب شيئًا ثقيلًا خلفها. استعدّ ساندي للاستلقاء في السرير مجددًا، إلّا أن عينيه لم تفارقا النافذة ليرى ما تسحبه أنجي، وحين اقتربت من المنزل، استطاع بوضوح تام تمييز مزلقة صلبة منزلية الصنع ترتطم بحدّة على الجليد خلفها.

قبل أن تطأ قدما أنجي الشرفة، كان مستلقيًا بركود كما لو غطّ في النوم منذ وقت طويل.

كان ضوء الشمس يتدفق مشرقًا عبر النوافذ عندما فتح ساندي عينيه متجاهلًا العالم الأبيض في الخارج.

«ألن تستيقظ أبدًا؟» سألته أنجي وهي تبتسم بحياء فوقه. «إنه صباح عيد الميلاد يا عزيزي. تعال وانظر ماذا جلب لك بابا نويل. انهض بسرعة».

لكنه لم يرغب في النهوض. عرفَ ما الذي أحضره بابا نويل، ورغب في ملازمة السرير مديرًا وجهه إلى الحائط. لم تكن مزلجة غولدن فلاير، والآن لم يعد في استطاعته أن يأمل في الحصول على واحدة حتى. أراد سحب الأغطية فوق رأسه والبكاء. «يا فتى! ألم تستيقظ بعد؟» من المطبخ نادته الخالة هاغر مبتهجةً. «الرب يسوع في مزوده يغمر كل

العالم بنوره. وقد جاء بابا نويل العجوز إلى هنا وذهب! انهض من سريرك يا صغيري وانظر!».

«أنا قادم يا جدتي»، قالها ساندي ببطء، وهو يمسح عينيه اللتين امتلأتا بالدموع، وتدحرج خارج السرير وهو يُرغم فمه على إبراز ابتسامة واسعة ورصينة أمام الهدايا الصغيرة القليلة التي رآها على الأرض، فالطفل عرف أنهما تنتظران منه أن يبتسم.

«أوه! مزلجة!» صرخ بنبرة تُحاكي المفاجأة لم تكن تشبه صوته في شيء؛ فقد انتصبت هنا، ثقيلة وغريبة، وقد أُسندت إلى الحائط وإلى جانبها على الأرض كتابان مصوّران من متجر العشرة سنتات، وزوجًا من القفازات القطنية البيضاء. وفوق المزلجة عُلّق جورَباه على الجدار، وقد مُلِئا جزئيًا بالحلوى، وبرزت تلك البرتقالة الوحيدة من أعلاه.

لكن المزلجة! صُنعت من قبل نجّار جلف، مع شرائح من القصدير الصّدِئ المسمّرة على طول الزلّاجتين الخشبيتين، وقطعة من حبل الغسيل لسحبها!

«إنها رائعة» كذب ساندي، وهو يحاول رفعها ووضعها على الأرضية كما تفعل عندما تتزلج؛ إلّا أنها كانت ثقيلة جدًا، وأعرضَ بكثير من أن يجول بها صبي وهو يحملها في يديه. لا يمكنك الانطلاق بها بسرعة. وظهر لوحٌ معوجّ في منتصفها.

كذب: «إنها مزلجة جميلة يا جدّتي. أحببتها يا أمي».

أجابت والدته بفخر، وهي سعيدة لفرحته: «صنعها السيد لوغان لك. علمت أنك رغبت في مزلجة».

«إنها مزلجة جميلة» كرّر ساندي، مبتسمًا برصانة وهو يحمل القطعة الثقيلة في يديه. «إنها مزلجة جميلة إلى حدّ رهيب».

«حسنًا، أسرع وانظر إلى القفازين، والحلوى، وهذين الكتابين الجميلين أيضًا»، قالت هاغر من المطبخ حيث كانت تقلي شرائح لحم الخنزير المملح. «يا للهول! يا لك من طفل كسول في صباح عيد الميلاد! تعال إلى هنا لأقبّلك». مشت إلى غرفة النوم وحملته بين ذراعيها. «هدية الميلاد إلى طفل هاغر المدلل! هيا يا أنجي، أحضري ملابسه من خلف الموقد وكتابَيه أيضًا... هذه حكاية ذات الرداء الأحمر والذهب، وهذان هانسي وغريتزل على الغلاف، أعتقد أنك تستطيع قراءتهما أفضل منّي... يا ابنتي، حضّري الطاولة. سيجهز الإفطار بعد قليل. انظري في الفرن وتفقّدي خبز الذرة ذاك... يا رباه، يبدو ساندي هنا مثل طفل، وهو يدع هاغر العجوز تحمله وتلبسه ثيابه.... ضع قدمك في هذا الجورب يا فتى!».

بدأ ساندي يشعر بسعادة أكبر وهو جالس في حُجر جدّته خلف الموقد.

جاء باستر في فترة قبل الظهر، مُستعرِضًا حذاءه الجديد ومُحدّثًا صديقه عن القطار الذي حصل عليه ويمكنه تسييره على سكة حقيقية عندما ينتهي من تركيبه. ظهرت ويلي ماي حاملةً دمية عارية من الخِرق ومجموعة من الأطباق الصينية في صندوق أزرق. وأرسلت إليهم الأخت جونسون فطيرة لحم كهدية عيد الميلاد.

طرقَ جميع زوّار الخالة هاغر تقريبًا الباب الخلفي، حتى رنّ جرس الباب الأمامي في وقت متأخر من بعد الظهر، فأرسلت أنجي ساندي عبر الردهة ليردّ عليه. وقفت خالته تيمبي هناك على الشرفة، وهي تحمل عدّة علب ملفوفة وزاهية. بدت غريبة على ساندي، إلّا أنها قبّلته بلا تردّد على جبينه، قبل أن تدخل باتجاه المطبخ، وقد ظهرت حولها هالة سيدة القصر القادمة إلى مساكن الخدم!

«يا إلهي!»، قالت هاغر، وهي تنهض لتقبيلها.

عانقت تيمبي أنجي أيضًا قبل جلوسها، بتصنّع، وكأن المنزل الذي حضرت إليه لم يكن منزلها قَطّ. لم تقل شيئًا لويلي ماي السوداء الصغيرة.

بدأت تيمبي تشرح لوالدتها وأختها: «آسفة لأنني لا أستطيع دعوتكم إلى عشاء عيد الميلاد اليوم، لكنكما تعرفان وضع السيد سيليز. بالكاد يحضر زوجي إلى المنزل، ولا يحب أن يكون المنزل مزدحمًا، لكن بالطبع سينضم إلينا الدكتور غلين ميتشل وزوجته هذا المساء، فهما يزوراننا في أي وقت، لكن توجّب عليّ القدوم وإحضار بعض الهدايا لكم، لم تري البيانو الجديد الخاص بي، أليس كذلك يا أمي؟ عليّ القدوم واصطحابك إلى المنزل معي بعد ظهر يوم لطيف». ابتسمت بشكل لائق، إلّا أن نبرتها ظلّت جامدة.

سألت هاغر، وهي محرجة قليلًا في حضور ابنتها التي تنتمي إلى مجتمع المتأنقين: «ما وضع الكنيسة الجديدة بالنسبة إليك؟».

أجابتها تيمبي: «إنها رائعة! إنها رائعة! الأب هيل مبجّل للغاية، والقداديس راقية جدًا! لا شيء زنجي فيها، لذا كما تعرفين يا أمي، إنها تناسبني».

قالت هاغر: «يسعدني أنك أحببتها».

عمّ صمت غريب؛ ثم وزّعت تيمبي هداياها، قبّلتهم جميعًا كما لو أن ذلك واجبها المسيحيّ، ومضت في طريقها قائلةً إن عليها زيارة منزل المحامي مور وزوجته، ومنزل البروفيسور بوث، ومنزل مدام تيمبل قبل عودتها إلى المنزل.

حينما رحلت شعر الجميع بالراحة، كما لو أن شخصًا أبيض قد خرج من المنزل. عاودت ويلي ماي اللعب، وخلعت هاغر الحذاء من قدميها مرة أخرى، فيما دخلت أنجي إلى غرفة النوم واستلقت.

جلس ساندي على الأرضية ليفتح هديته التي لُفّت بعدّة طبقات من ورق اللفّ الوردي، ووجد داخل صندوق لامع مخصص لعيد الميلاد مجلّدًا مصوّرًا كبيرًا لحكايات أندرسن الخيالية زُيّن بأحرف مذهّبة، بصفحاته الثقيلة وصوره الجميلة، جعل الكتابين الذين اشترتهما هاغر من متجر العشرة سنتات يبدوان رخيصين ورقيقين. جعل مزلجة والدته تبدو رخيصة أيضًا، وكأن حضوره يهين كل الهدايا الأخرى التي قدّمها له مَن أحبّهم.

«لا أريده»، قالها فجأة بأعلى صوته. «لا أريد كتاب تيمبي القديم!» ومن حيث كان يجلس رماه بكل قوته تحت الموقد.

شهقت هاغر في ذهول، صرخت مندهشة: «التقطْه يا سيد! اشترت لك خالتك تيمبي كتابًا فاخرًا وجميلًا فترميه في الرماد تحت الموقد! ارحمنا يا رب! قلت لك: التقطْه، فورًا!».

صرخ ساندي بعناد: «لن ألتقطه! لن ألتقطه! أعجبتني مزلجتي وهداياكم، لكنني لا أريد كتابًا قديمًا من تيمبي! لن ألتقطه!».

أمسكته هاغر المذهْولة من مؤخرة رقبته وجعلته يركع.

«هل عليّ أن أجلدك في هذا اليوم المقدّس؟ التقط الكتاب يا سيد!».

صرخ: «لا!».

ضربته على رأسه بقفا يدها، «لتتعلّم ألّا تتحدث بوقاحة إلى جدّتك وتقول لها لا!».

«ما الأمر؟» صاحت أنجي من غرفتها، بينما بدأ ساندي في النواح.

أجابتها هاغر: «لا شيء، باستثناء أن هذا الولد غضب كثيرًا وتوجّب عليّ ضربه، هذا كل ما في الأمر!».

إلّا أن ساندي لم يتأذّ من صفعة جدّته الضعيفة، فقد اعتاد تلقي الضربات على مؤخرة رأسه كلما ارتكب إثمًا، وهذه المرة رحّب بالضربة لأنها منحته أخيرًا ما كان يبحث عنه طوال النهار، عذرًا كافيًا للبكاء، فانهمرت دموعه المكبوتة بلا توقّف، بينما جلست ويلي ماي ضامّةً دميتها القماشية إلى صدرها، وهدية تيمبي باهظة الثمن ترقد في الرماد تحت الموقد.

عودة

ظلّ الطقس باردًا لفترة بعد عيد الميلاد، رغم انعكاس ضوء الشمس الساطع على الثلج الصلب. تزلّج الأطفال وتزحلقوا، وقد حُوّلت عربات التبن إلى مزالج كبيرة على زلاجات هائلة لتمضي مجلجلةً إلى من الريف إلى المدينة. لكن ساندي لم يخرج أبدًا بمزلجته، فقد خجل منها.

عادت أنجي إلى عملها في بيت السيدة رايس بعد رأس السنة، وهي ما تزال ضعيفة وتسعل بعض الشيء. لكن مع تراكم الفواتير التي يجب سدادها وحاجة ساندي إلى حذاء وجوارب وملابس ليرتديها في المدرسة؛ لم يعد في وسعها البقاء من دون عمل. حتى مع استمرار عمل والدتها في الغسيل والكيّ كل يوم باستثناء الأحد للراحة والعبادة، كان من الصعب تغطية النفقات، وبخاصةً أنّ سنّ الخالة هاغر المتقدّم لا يسمح لها بالعمل بكدّ كبير. ظنت أنجي أن على تيمبي مساعدتهم قليلًا، لكن كبرياءها منعها من أن تطلب منها. كما أن تيمبي لم تكن حنونة قَطّ تجاه شقيقتيها حينما كنّ جميعًا فتيات صغيرات معًا، لكن وجبَ عليها المساعدة في الاعتناء بوالدتها. ومع ذلك، حينما طرحت أنجي موضوع مساعدة تيمبي على هاغر، ردّت بأنها ما تزال تستطيع غسل الملابس والحمد لله، ولا تعتمد على بناتها في أي شيء، طالما أنّ البيض يرتدون الملابس.

اجتاز ساندي كل اختبارات منتصف العام، ومعه سادي بتلر، ليتم تصعيدهما إلى الصف الخامس أ. لكن الطفلة الثالثة الملوّنة، وهي فتاة صغيرة سمينة تُدعى ماري جونز، رسبت واضطرت إلى البقاء في الصف نفسه. والدة ماري، وهي امرأة ضخمة ذات بشرة صفراء كبريتية تعمل طبّاخة في فندق درامر، جاءت إلى المدرسة وقالت للمعلمة، أمام كل الأطفال،

رأيَها في سبب رسوب ماري، ولم تكن آراؤها مادحة جدًا للسيدة البيضاء القاسية متوسطة السنّ. ظهرت مسألة لون البشرة أيضًا خلال النقاش.

صرخت المرأة ذات البشرة الصفراء الكبريتية: «انظري إلى ابنتي وهي تجلس هناك خلف كل الأطفال البيض، أدفع الضرائب مثل أيّ شخص آخر! تتعاملين مع السود كما لو أننا لسنا مواطنين، هذا ما تفعلينه!» توجّبت تسوية الخلاف في مكتب المدير، حيث ذهبت المعلمة مع الأم الغاضبة، بينما ضحك الأطفال البيض على تلك السيدة السمينة الملوّنة صفراء البشرة التي اضطرت أن تحضر إلى المدرسة لتتشاجر حول عدم ترقية ابنتها. إلّا أن الطفلين الملونين لم يستطيعا الضحك.

حلّ عيد الفالنتاين وأرسلت سادي بتلر قلبًا أحمر كبيرًا إلى ساندي. لكن بالنسبة إلى أنجي، «مرّ ساعي البريد ولم يحمل لنا أيّ خبر»، لأن جيمبوي لم يرسل إليها أي رسالة بعد، ولم تشكرها هاربيت على الثلاثة دولارات التي أرسلتها بالبريد إلى ممفيس قبل عيد الميلاد. لم تصل أيّ رسالة من أحد.

أصبح العمل لدى السيدة رايس عسيرًا للغاية، لأن شقيقة السيدة رايس جاءت مع طفلين من إنديانا لقضاء الشتاء، واضطرت أنجي إلى أن تطبخ لهم وتنظف غرفهم أيضًا. لكنها كانت تستطيع ادخار بعض المال كل أسبوع. اشترت لساندي بدلة زرقاء جديدة من الصرج[1] ومعطف نورفولك[2] وسروال نكربوكر[3] ، ارتدى ملابسه، ثم جلس متخشّبًا في استوديو ستيرنر لتُلتقط له صورة.

---

(1) نوع من الأقمشة صوفيّ النسيج. (المترجم).

(2) سترة فضفاضة تتميز بطيات واضحة على الظهر ومن الأمام بالإضافة إلى حزام عند الوسط وصف واحد من الأزرار، وتُصنع من قماش التويد، وهو نسيج صوفي خشن. (المترجم).

(3) تصميم للسراويل قصير وفضفاض، له تصميم مميز.(المترجم).

الصبي الأبيض ذو الوجه المنمّش، بول بيغرز، الذي يجلس إلى جانب ساندي في المدرسة، كان يوزّع صحيفة ديلي ليدر في عدة شوارع ضمن حيّ ساندي، فأخذ ساندي يذهب معه أحيانًا، ليساعده في طيّ الصحف ورميها في مداخل المنازل. وفي مرة عاد تأخر في العودة إلى المنزل حتى السابعة مساء.

قالت الخالة هاغر التي جهزت طاولة العشاء منذ وقت طويل: «فكّرت كثيرًا في ألّا أنتظرك. اغسل وجهك ويديك يا سيد! وأزِل الثلج عن معطفك بالفرشاة قبل أن تعلّقه».

أخرجت الجدّة صينية خبز ذرة من الفرن ووضعتها على الطاولة، حيث أُشعل مصباح زيت صغير يشعّ بدفء، وبدت الأطباق البيضاء البسيطة نظيفة وجذّابة. وُضعت على الموقد مقلاة مليئة بالتفاح ولحم الخنزير المقليّين، فيما كانت هاغر تحضّر إبريقًا من الشاي.

قال ساندي متحدّثًا عن كل شيء دفعة واحدة وهو ينزلق على كرسيه: «مم! الرائحة شهية! اسكبي لي الكثير من التفاح يا جدّتي».

«أهذه طريقة لائقة للطلب يا سيد؟ ألا يمكنك القول من فضلك يا سيدتي؟».

«من فضلك يا سيدتي»، قالها الصبي وهو يبتسم، لأن صرامة هاغر لم تكن جدّية، وكانت عيناها الكبيرتان تلمعان.

بينما كانا يتناولان طعامهما جاءت أنجي من العمل حاملةً وعاءً صغيرًا من حساء المحار. قاموا بتسخينه وأضافوه إلى سفرة العشاء. جلست والدة ساندي أمام الموقد، وقد أسندت قدميها إلى نافذته لتجفّا بسرعة. عمّ المطبخ الصغير شعور كبير بالراحة ذلك المساء.

قالت أنجي: «يبدو أن الثلج يذوب. إنه زلِق وكريه عندما تمشي عليه، لم تصل أي رسالة اليوم، أليس كذلك؟».

أجابت هاغر: «لا يا عزيزتي. على حدّ علمي، كنت منهمكة في غسيل الملابس فلم يتسنّ لي الوقت لأتفقّد صندوق البريد. ساندي، اذهب وتفقّد الصندوق. لكنني أعلم ألّا شيء فيه على أي حال».

«ربما وصلتنا رسالة»، قالت أنجي بينما أخذ ساندي عود ثقاب وعبر غرفة النوم المظلمة والردهة وصولًا إلى الشرفة الأمامية. لم يكن هناك أي رسائل. إلّا أن ساندي رأى هيئة هيفاء تقترب في الظلمة، وهي تعبر الثلج الأبيض القذر والموحل باتجاه المنزل. انتظرَ وهو يرتجف في المدخل ليتبيّن الشخص؛ قبل أن يصرخ فجأة بأعلى صوته: «الخالة هاري هنا!».

شدّها من يدها، بعدما قبّلها وعانقها حتى كاد يخنقها، ركض عائدًا إلى المطبخ. صرخ: «انظرا، الخالة هاري هنا! عادت الخالة هاري إلى المنزل!». قامت هاغر عن الطاولة، ساكبةً فنجان شايها، وفتحت ذراعيها لتأخذ ابنتها في حضنها.

صاحت: «صغيرتي! عادت إلى المنزل! ابنتي الصغرى عادت إلى المنزل!».

عانقت أنجي هارييت وقبّلتها، بينما جلست أختها على ركبتيّ هاغر، وعمّت الأصوات في المطبخ وسادَ الدفء لعودة الابنة الضالّة.

«ابنتي عادت إلى المنزل!»، قالتها والدتها مرارًا وتكرارًا. «الحمد للربّ! ابنتي عادتي!».

«أتريدين بعض التفاح المقليّ يا هاري؟»، سألها ساندي عارضًا عليها طبقه. «أترغبين في بعض الشاي؟».

«لا، شكرًا لك يا عزيزي»، ردّت عندما انحسر الانفعال وأطلقت الخالة هاغر سراحها، وقد مالت قبعتها السوداء الصغيرة فوق رأسها ومحت القُبل البودرة عن إحدى جانبيّ وجهها.

نهضت، نفضت نفسها، وخلعت قبّعتها لتمشّط شعرها، لكنها ظلّت ترتدي معطفها الباهت فيما حقيبتها المعدنية الصغيرة ملقاة على الطاولة. ثم جلست على الكرسي الذي قرّبته لها أنجي بالقرب من النار. صارت أكثر نحولًا وازداد شعرها تموّجًا، مما أعطاها مظهرًا صبيانيًا، كالسّود في اللوحات الفينيسية القديمة. لكن شفتاها كانتا حمراوين وقد وضعت بعض اللون الأحمر على كلّ خد، على الرغم من أن السواد الذي طغى على جفنيها السفليين جعلها تبدو كما لو كانت مريضة.

تسرّب القلق إلى هاغر. سألتها: «هل مرضتِ يا صغيرتي؟».

قالت هاريت: «لا يا أمي، أنا بخير، لكنني مررتُ بوقت عصيب، هذا كل ما في الأمر. غضبتُ، وانسحبت من فرقة العروض في ممفيس، فلم يدفعوا لي مستحقاتي، هذا ما حدث! غادر مؤدّو عرض المنسترل الكرنفال مع بداية الشتاء وبدؤوا يؤدّون عروضهم على المسارح، وكان المدير الجديد رجلًا بخيلًا. لم أستطع تحمّله».

سألتها أنجي: «هل وصلتكِ رسالتي والنقود؟ لم يكن لدينا المزيد من المال لنرسله إليك، وبعد ذلك لم ترسلي شيئًا إلينا، فلم أعرف إن وصلتكِ».

«وصلتني وأردت أن أشكرك يا أختي، لكن لا أعرف، لم أفعل ذلك. لكن، على أي حال، لن أعود إلى الجنوب. إنه أشبه بجحيم، أعني أنه مكان مريع إن كنتم لا تعرفون أحدًا هناك! يوجد زنوج جائعين هناك أكثر من هنا! أتساءل مَن كتب تلك الأغنية عن أرض الجنوب القديمة العزيزة. لا شيء عزيز فيها. يا إلهي! إنه مكان مروّع!... لكنني عدتُ». ابتسمت. «أين جيمبوي؟... أوه، صحيح يا أنجي، أخبرتني في الرسالة. لكنني أفتقد وجوده هنا. يا رباه، آمل ألا يكون قد ذهب إلى ممفيس!».

سألتها أنجي، وهي تنظر إلى يدي أختها الرقيقتين: «هل وجدتِ عملًا هناك؟».

ردّت هاريت بنبرة جعلت أنجي تكفّ عن طرح الأسئلة: «بالطبع، وجدت عملًا لا بأس فيه. الوظائف كأسنان الدجاجة، إن بحثتِ عنها ستجدينها». وهزّت كتفيها بالطريقة نفسها التي رآها ساندي كثيرًا من قبل، لكنها لم تعد تبدو له كفتاة صغيرة. فقد كبرت وقسَت وصارت غريبة، لكنه ما زال يحبها.

أعلن بفخر: «خالتي هاري، وصلتُ إلى الصف الخامس أ».

ردّت عليه: «هذا رائع. يا إلهي، أنت ذكي! ستصير رجلًا عظيمًا يومًا ما، هذا مؤكد يا ساندي».

قاطعتها هاغر، وقد منعتها سعادتها من لمس طعامها على الطاولة أو إبعاد ناظريها عن وجه طفلتها العائدة: «أين حقيبتك يا عزيزتي؟ ألم تعيديها معك؟ أين هي؟».

«بالطبع، إنها معي، لكنني سأعيش في منزل مودل هذه المرة يا أمي، تركتُها في المحطة. لا أظن أنكم ترغبون في وجودي هنا». حاولتْ جعل نبرتها تبدو لامبالية، لكنها كانت متكلّفة بشكل مثير للشفقة.

صرخت أنجي، وانهمرت دموعها: «أوه، عزيزتي!».

عبر طيف الألم الذي اختلج صدر هاغر وجهها الأسود، إلّا أن ردّها الوحيد كان: «أنت ناضجة الآن يا ابنتي، أظنك تعرفين ما تفعلينه، بعدتِ عشرة آلاف ميل عن أمك، وأظنك تعرفين ما تفعلين... هيا يا ساندي، لنأكل». عادت المرأة العجوز ببطء إلى الطعام الذي برد في طبقها. «ألن تأكلي معنا شيئًا يا ابنتي؟».

خفضت هاريت ناظريها وتدلّى كتفاها. «لا يا أمي، شكرًا لك. أنا... لستُ جائعة».

تبع ذلك صمت طويل محرج بينما ارتشفت هاغر شايها، حاول ساندي ابتلاع قطعة خبز بدا أنها تخنقه، وحدّقت أنجي بنظرة غبية في الموقد.

قالت هاربيت أخيرًا: «عليّ الذهاب الآن». وقفت لتزرّر معطفها وتلبس قبعتها. ثم أخذت حقيبتها المعدنية عن الطاولة.

«مودل تنتظرني، لكن أظن أنني سأراكم جميعًا عمّا قريب. وداعًا يا عزيزي ساندي! عليّ الذهاب... أنجي، عليّ الذهاب الآن... وداعًا يا ماما!»، كانت ترتجف، عندما انحنت لتقبّل هاغر انزلقت حقيبتها من يديها وسقطت مشكّلة كومة معدنية على الأرضية. انحنت لتلتقطها.

«عليّ الذهاب الآن».

تحطّمت زجاجة عطر صغيرة في الحقيبة بسبب السقوط، وبينما كانت تعبر الغرفة الأمامية الباردة باتجاه الباب، انبعثت رائحة البنفسج الصناعية الرخيصة واللاذعة في أنحاء المنزل.

واحدة تلو الأخرى

كان باستطاعتكم تنشّق رائحة الربيع.

قالت هاغر: «لن يصبح الطقس دافئًا قبل أسابيع!».

ومع ذلك، كان باستطاعتكم تنشّق رائحة الربيع. كان الأطفال الصغار يركضون في الشوارع بلا معاطفهم بالفعل، ورأى جرذ الأرض ظلّه[1]. ظلّ الثلج في زوايا السياج، لكنه ذاب على الأسطح. كانت الساحات مبللة وموحلة، لكنها لم تعد بيضاء.

وصلت رسالة بعد ظهيرة يوم مشمس في نهاية مارس. توقّف ساعي البريد خلال توزيعه الأخير للرسائل، وألقى بها في صندوق البريد، فرآه ساندي. كانت الرسالة موجّهة إلى والدته وعلم أنها لا بد أن تكون من جيمبوي.

حالما رأت جدّته الصبي قادمًا والرسالة في يده، قالت له: «اذهب وخذها لها. أعلم أن هذا ما تريد فعله. اذهب وخذها لها». وانحنت لتتابع كيّ الملابس.

ركض ساندي تقريبًا طوال الطريق المؤدي إلى منزل السيدة رايس، وقد وقعت الرسالة منه عدة مرات على الرصيف الموحل، فحماسته الشديدة لم تدع له مجالًا للتفكير في وضعها في جيبه. أسرع في دخول الفناء الكبير

(1) هناك تقليد شائع في الولايات المتحدة وكندا يحتفلون فيه بيوم جرذ الأرض «Groundhog Day» الموافق للثاني من فبراير. وبحسب الأسطورة والتقليد، في حال خرج جرذ الأرض من جحره ورأى ظله في حال كان الطقس مشمسًا يومها، فهذا يدلّ على استمرار الشتاء لستة أسابيع أخرى، أما إن خرج ولم يرَ ظله في حال كان الطقس غائمًا يومها، فهذا يدلّ على حلول الربيع مبكرًا.

والالتفاف إلى الباب الخلفي لمنزل السيدة البيضاء، فكان مقفلًا! طرقَ الباب بشدة لوقت طويل، قبل أن تُفتح في النهاية نافذة علوية لتطلّ منها أنجي وقد ربطت خِرقة حول رأسها، وهي تحدّق في ضوء الشمس.

نادت بنبرة صارمة: «مَن يطرق الباب؟»، وهي تظن أن بائعًا متجوّلًا أو تاجرًا متأخرًا هو من يعوقها عن متابعة التنظيف.

رفع ساندي الرسالة بلهفة ولم يكد أن يقول شيئًا حتى أُغلقت النافذة مُصدِرةً ضجّة. استطاع سماع خطوات والدته التي أوشكت تسقط على الدرج الخلفيّ، وهي قادمة بسرعة كبيرة. ثم أُدير المفتاح داخل القفل، فُتح الباب، ومن دون أن تغلقه أخذت أنجي الرسالة وفتحتها في مكان وقوفها.

«إنها من جيمبوي!».

وقف ساندي على الدرج ناظرًا إلى والدته، صدرها ينتفخ، أكمامها مرفوعة، والقماشة البيضاء التي ربطتها حول رأسها قد تضاعف بياضها فوق وجهها الأسمر الداكن.

«كتب أنه في ديترويت... مم! لم أره يكتب رسالة طويلة كهذه قطّ. يقول: (مررتُ بأوقات عصيبة هذا الشتاء حتى وصلت إلى هنا، لكن الأمور جيدة جدًا الآن، فهناك الكثير من المباني التي تُشيد، والعديد من فرص العمل في مصانع العربات... يوجد الكثير من الملوّنين هنا... آمل أن تكوني أنتِ وساندي بخير. آسف لأنني لم أرسل إليك شيئًا في عيد الميلاد، لكنني كنتُ مفلسًا في سانت بول... قبّلي ابني نيابةً عني، وبلّغي أمّك تحياتي حتى لو لم ترغب في سماع شيء منّي. زوجك المحب، جيمبوي روجرز)».

بذلت أنجي قصارى جهدها لتمسك الرسالة بيد وتحمل ساندي باليد الأخرى، لكنه كبر كثيرًا خلال الشتاء فيما ظلّت ضعيفة بعض الشيء من مرضها؛ لذا انحنت وقبّلته مرات عدّة قبل أن تقرأ الرسالة مرة أخرى.

قالت: «إنها من أبيك! مم... ادخل ودفّئ نفسك. دعني أعيد قراءتها مرة أخرى!». أشعلت فرن الغاز في المطبخ الأبيض وجلست أمامه وهي تحمل رسالتها، ناسيةً الساعة واقتراب وقت عشاء السيدة رايس، ناسيةً كل شيء. «رسالة من daddy! من daddy الحلو البعيد!».

صحح ساندي كلامها: «إنها من my daddy[1]... حسنًا، أعطني نيكلًا لأشتري بعض الدحل يا أمي. أريد الذهاب للعب».

ومن دون أن تبعد ناظريها عن الرسالة الغالية، فتّشت أنجي في مئزرها لتجد عملة معدنية. قالت: «خذها واذهب!».

أعطته دايمًا. دار ساندي حول المنزل ومضى عبر الشارع تحت أشعة الشمس الباردة. قرّر أن يمرّ على منزل باستر قليلًا قبل العودة إلى المنزل، لأنه كان مضطرًا إلى المرور من هناك على أي حال، فوجد صديقه في المنزل يحاول نحت القوارب من ملاقط الملابس بسكّين جيب صدئ.

كانت والدة باستر خياطة، وبعدما فتحت الباب الأمامي استقبلت ساندي بترحاب مبهج. عادت إلى ماكينتها مع إحدى صديقاتها التي كانت تنادي عليها. كانت امرأة خلاسية طويلة القامة، ببشرة يشبه لونها العاج القديم. ربما لهذا السبب كان باستر شديد البياض. لكن زوجها كان رجلًا أسودَ عمل في شاحنات القمامة التابعة للبلدية ونشِط سياسيًا في أوقات الانتخابات، مشجّعًا الرجال الملونين على التصويت للجمهوريّين. قال الجميع إنه جنى الكثير من المال، لكنه لم يكن والد باستر فعلًا.

---

(1) تعني كلمة Daddy في اللغة المحكية الحبيب، أما في معناها الأصلي، فهي الأب.

عمل الطفلان معًا على حزّ ملاقط الغسيل. كان باستطاعتهما سماع حديث المرأتين في غرفة الخياطة الصغيرة بوضوح، حيث كانت تعمل الماكينة بين أطراف الحديث.

كانت والدة باستر تقول: «نعم، أعاني كثيرًا ليستوعب هذا الصبي أنه ملوّن! يتصرّف كما لو كان أبيض. أتعرفين ماذا فعل الأسبوع الماضي؟ اقتلع كل أزهار نباتات إبرة الراعي التي زرعتها هنا في المنزل، ليأخذها إلى المدرسة ويقدّمها إلى دوروثي مارلو، زميلته في الفصل. تعلمين من هي دوروثي، أليس كذلك؟ إنها ابنة السيناتور مارلو! قلت له: (باستر، إن اقتلعت أزهاري لتقدّمها إلى أي فتاة مرة أخرى سأعاقبك بشدة، لكن إن اقتلعتها لتقدّمها إلى فتاة بيضاء فلا أعرف ما الذي سأفعله بك... ألا تعلم أنهم يشنقون الأولاد الملوّنين على أفعال كهذه؟)، أردت إخافته، لأنك تعلمين أن مشكلات قد تنشب حتى بين الأطفال في المدرسة بسبب مثل هذه الأمور، لكنني لم أستطع كبح ضحكتي».

ضحكت صديقتها أيضًا قبل أن تضيف: «إنه يحب الفتيات، فهو يقدّم الأزهار لهن بالفعل، ناهيك عن كونها فتاة بيضاء! عليّ القول إن ابنك فتى مبادر يا إلفيرا... لكن، أتعلمين؟ حينما انتقلتم إلى هنا ورأيتك والصبي تدخلان وتخرجان، ظننتكما من البيض. لم أعرف أنك ملوّنة حتى قال لي زوجي: (هذه زوجة إيدي!)، بدوتما من البيض تمامًا بالنسبة إليّ».

بدأت الآلة في الطنين، ليغيب صوت المحادثة خلف طنينها لبضعة دقائق، وحينما استطاع ساندي سماع كلماتهما مجدّدًا، كانتا تتحدّثان عن نادي (إلك) الذي كان الملوّنون يخططون لبنائه.

سأل ساندي باستر: «أيمكنك الخروج؟»، بعدما لم يحرزا أي تقدم مع ملاقط الغسيل القاسية والسكاكين غير الحادة.

قال باستر: «ربما، سأذهب لأرى». ودخل إلى الغرفة الأخرى ليسأل والدته.

أمرته: «البس معطفك. لم يحِن الصيف بعد. وعد إلى المنزل قبل حلول الظلام».

قال الطفل: «حسنًا يا فيرا».

ذهب الطفلان إلى متجر السيدة رامفورد عند زاوية الشارع واشتريا حلوى بثلاثة سنتات ودحلًا بسبعةِ سنتات ليلعبا بها حينما يصبح الجو دافئًا. لعبا في الشارع لبعض الوقت، قبل أن يعود ساندي راكضًا إلى البيت.

كانت الخالة هاغر تحضّر العصيدة للعشاء. وسبق أن أرسلته إلى المتجر ليجلب نصف لتر حليب حال وصوله، لكنه نسي أخذ القارورة واضطر للعودة من أجلها.

«ستنسى رأسك لو لم تكن معلّقة بك!»، ذكّرته المرأة العجوز.

وصلت أنجي إلى المنزل حينما كانا قد انتهيا من تناول العشاء توًا ومعها قطعتا حلوى إيكلير بالشوكولا في جيب معطفها، وقد هُرستا إلى جانب رسالة جيمبوي.

قالت: «لقد جننتُ!»، وهي تمرر يدها للأسفل في تلك القطعة اللزجة. «لكن اسمعي يا أمي! كتب جيمبوي أنه حصل على عمل وهو في حال جيدة في ديترويت... وسأذهب إليه!».

«ماذا ستفعلين؟»، شهقت هاغر، تاركة ملعقتها تهوي في وعاء العصيدة. «ماذا تقولين؟».

«قلت إنني سأذهب إليه يا أمي! عليّ فعل ذلك!» وقفت أنجي وهي ما تزال تلبس معطفها وقبعتها، حاملةً الرسالة الدبقة. «سأتبع قلبي يا أمي! أوه، لا أقصد أنني سأفعل ذلك اليوم». لفّت رقبة والدتها بذراعيها. «لا

أقصد أنني سأفعل ذلك اليوم أو الأسبوع المقبل يا أمي. عليّ ادّخار بعض المال أولًا. ليس لديّ سوى القليل من النقود. لكنني أقصد أنني سأذهب إليه حالما أستطيع. لا يمكنني تمالك نفسي يا أمي، أنا أحبه!».

صرخت هاغر: «يا ربي، أأنتِ حمقاء؟ ماذا سيحدث لهذا الطفل، إن لحقتِ بجيمبوي؟ ماذا ستفعلين إن تركك في ديترويت أو أيًا كان مكانه؟ ماذا ستفعلين؟ تحبّينه إذًا! آها!».

قالت، وعيناها تلمعان: «لكنه لن يتركني في ديترويت، لأنني سأرافقه أينما ذهب. لن يتركني مرة أخرى!».

«وساندي؟».

«ألا يمكنه البقاء معك يا أمي؟ وبعدها قد نعود في وقت ما ونعيش هنا، أنا وجيمبوي، إن ادّخرنا بعض المال، نستطيع سداد الرهن العقاري للمنزل، لكن لا نفع من الجدال يا أمي، عليّ الذهاب إليه!».

لم ترَ هاغر أنجي بهذا الحماس من قبل؛ جلست عاجزة عن الكلام وهي تحدّق في وعاء العصيدة.

«عليّ الذهاب إلى حيث لا أشعر بالوحدة وإلى حيث أجد سعادتي، إلى حيث يكون جيمبوي! عليّ الذهاب في أقرب وقت ممكن».

نهضت هاغر لتضع بعض الماء على الموقد حتى يسخن لتغسل الأطباق.

قالت: «تغادرون واحدة تلو الأخرى، تيمبي، ثم هاربيت، ثم أنت، لكن ساندي سيظل معي، أليس كذلك يا بني؟ لن يترك جدّته».

نظر الفتى إلى هاغر وهي تتحرك ببطء في أرجاء المطبخ وترفع أغراض العشاء.

تمتمت: «سأجعل منك رجلًا رائعًا يا ساندي. سأربي طفلًا بطريقة صحيحة، إن أطالَ الربّ في عمري، سأربّي طفلًا واحدًا بطريقة صحيحة!».

بدأت رياح مارس تهبّ ليلتها واهتز زجاج النوافذ. استيقظ ساندي في الظلمة، مستلقيًا بالقرب من والدته وقد غمره الشعور بالدفء. حينما عاود النوم حلم بأن الكتاب الذي أهدته إياه الخالة تيمبي في عيد الميلاد قد تحوّل إلى عربة، وأنه يحلق بها في السماء، وتيمبي تقف إلى جانبه بشكل مبجّل للغاية بينما يقود العربة. لم يستطع رؤية أحد على الأرض، ولا حتى هاغر.

مع نهوض والدته في السادسة استعدادًا لعملها، استيقظ مرة أخرى، وبينما كانت ترتدي ملابسها، رقد مراقبًا أنفاسه تخرج ضبابية في الغرفة الباردة. كان الجو قاتمًا ورماديًا خارج النافذة مع هبوب رياح مارس، التي همهمت عبر أغصان الأشجار العارية، مطلقةً صوتًا مريعًا. سمع الخالة هاغر في المطبخ وهي تحرّك نيران الموقد، وتزيد اشتعالها لتبدأ القهوة في الغليان. ثم أُغلق الباب الأمامي مع خروج والدته، وحينما صُفق الباب هبّت الرياح بشدة. كان السرير لطيفًا ودافئًا، لذا استلقى تحت الأغطية الثقيلة نصفَ حالم، نصفَ مفكر، حتى هزّته جدّته لينهض. كانت الكثير من الأفكار التي سبحت في ذهنه غريبة ونعِسة، ليس في ذلك الصباح فحسب، بل كلّ صباح تقريبًا بينما يستلقي تحت الأغطية الدافئة حتى تناديه هاغر ثلاث مرات أو أربع ليستعد للمدرسة.

تساءل أحيانًا أنه في حال غسل يديه ووجهه كثيرًا، هل سيصبح أبيضَ؟ أخبره أحدهم مرة أن السواد ليس سوى بشرة سميكة. وهل سيكون لديه منزل كبير بأضواء كهربائية مثل خالته تيمبي؟ لكن معظم الذين امتلكوا هذه الأشياء الرائعة كانوا من البيض، وكانوا يُعاملون الملوّنين بلؤم، إلّا أنّ بعض البيض كانوا لطيفين، فإيرل زميله في المدرسة كان لطيفًا، أما

الأطفال الصغار الذي يسكنون قبالته وينادونه بالـ«زنجي» كلّ يوم فلا، وأليست السيدة رايس هي من وبّخت والدته؟ لم تحب الخالة هاري البيض إطلاقًا، ويسوع كان أبيض اللون ويلبس رداءً أبيض طويلًا، مثل أردية النساء، على بطاقات مدرسة الأحد، شتم جيمي لاين ذات مرة يسوع، حينما وبّخته المعلمة لأنه لم يحفظ درس الكتاب المقدّس. فعلها بصوت عالٍ في الكنيسة أيضًا، وما انهارت الكنيسة عليه كما ظنّ ساندي أنه قد يحدث، قالت جدّته إن اللعن والسبّ خطيئة، لكن كل زملائه في المدرسة كانوا يسبّون، وكذلك جيمبوي. إلّا أن ساندي كلما قال: «لعنة الله» انتابه شعور سيئ، لأن الخالة هاغر قالت إن الله خير مطلق، ومن الخطأ استخدام اسمه سدى. لكنه كان يريد تعلّم أن يقول: «لعنة الله» من دون أي يشعر بشيء، مثلما يفعل معظم الأولاد الذين يقولونها، مجرد «لعنة الله! لعنة الله! لعنة الله!» من دون أن يخجل من نفسه. على أي حال... أراد عندما يكبر أن يسافر مثل جيمبوي. أن يصبح سائق قطار، لكن هاربيت قالت إنه لا يوجد أيّ مهندس ملوّن يعمل في مجال القطارات. ماذا سيصبح إذًا؟ ربما طبيب؛ لكن أن يصبح مهندسًا ويسافر بعيدًا بدا خيارًا أكثر متعة بكثير.

تمنّى ساندي أن تأخذه أنجي معها حينما تذهب لتلحق بجيمبوي، لكن إن فعلت ذلك فستظلّ هاغر وحدها، والجدّة لطيفة جدًا معه، لذا كره أن يتركها وحيدة. من سيقطع الحطب حينها؟ لكن حينما يكبر قد يذهب إلى ديترويت. وربما إلى نيويورك أيضًا، حيث توجد أطول المباني في العالم ، ويمرّ القطار أسفل النهر، بحسب كتاب الجغرافيا. تساءل إن كان هناك أيّ أشخاص ملونين في نيويورك، كم بدا الناس الأفريقيون ذوو البشرة السمراء قبيحين في كتاب الجغرافيا، برؤوسهم الشعثاء وعيونهم البرية! قالت الخالة هاغر إن والدتها أفريقية، لكنها لم تكن قبيحة وبرّية؛ ولا الخالة هاغر كانت كذلك، ولا السمراء الصغيرة ويلي ماي، وكلهنّ كنّ

سود كالأفريقيين، وكانت بشرة القسّ براسويل بسواد الحبر، لكنه عرف الله، لا يهتم الله إن كان الناس سودًا، أليس كذلك؟ ما هو الله؟ أهو رجل أم حمل أم ماذا؟ قالت والدة باستر إن الله نور، لكن الخالة هاغر قالت إنه ملك يجلس على عرش ويرتدي تاجًا، أرادت أن تجلس إلى جانبه وبجواره. أكان والد باستر أبيض؟ كان باستر أبيض وملوّن في آن معًا. لكنه لم يبدُ ملونًا. ماذا جعل باستر غير ملوّن؟ وبم تختلف الفتيات عن الفتيان؟ ذات مرة حينما لعبوا (بيت بيوت) أخبرته ويلي ماي أن الفتيات يختلفن عن الأولاد، لكنه لم يعرف السبب. صارت ويلي ماي في الصف السابع وقد نضج ثدياها الصغيران قليلًا وبرزا، وقال جيمي لاين أشياء قذرة عن ويلي ماي، ذات مرة سأل والدته عن نفع سرّته فقالت: «إنها فخ للإمساك بالمتطفلين[1].» ماذا قصدت بذلك؟ ولمَ تمرض السيدات ويبقين طريحات الفراش حينما ينجبن؟ من أين يأتي الأطفال؟ وكيف يأتون؟ بالتأكيد لا تُحضرهم اللقالق، هذه قصة خيالية مثل بابا نويل. هل يحب الله من يحكي للأطفال قصصًا خيالية مثل اللقالق وبابا نويل ويكذب عليهم؟ على أيّ حال لم يكن بابا نويل طيبًا! لعنة الله على بابا نويل الذي لم يحضر له المزلجة التي أرادها في عيد الميلاد! كلّ ما قيل بشأن بابا نويل كذب!

الأصوات التي أصدرتها هاغر وهي تسكب الفحم على النار وتسحب أحواض الغسيل عبر أرضية المطبخ استعدادًا للعمل؛ اقتحمت أحلام يقظة ساندي النعسة، وبينما تدحرج في السرير، نادت جدّته التي سمعت صرير النوابض بصوت عالٍ: «يا ساندي! انهض من السرير! الساعة تجاوزت السابعة! هل تريد التأخر على مدرستك؟».

(1) عبارة كان البالغون يستخدمونها لتفادي الإجابة عن أسئلة الأطفال بشكل مباشر.

قال من تحت اللحاف: «حاضر يا سيدتي، أنا قادم يا جدّتي! لكن الغرفة باردة».

«لا ترتدِ ملابسك في الغرفة! أحضر ملابسك وتعال إلى جانب الموقد يا سيد».

«حاضر يا سيدتي». وبركلة من قدميه أبعد أغطيته وركض إلى دفء المطبخ الصغير، حيث ارتدى ملابسه، اغتسل، وتناول طعامه. عادة كان ينادي ويلي ماي حينما يرغب في ذلك، أو يمضي إلى المدرسة من دونها، لينضم إلى بعض الأولاد في طريقه.

إذًا كان الربيع على الأبواب، وعملت أنجي بجدّ في منزل السيدة رايس يومًا تلو الآخر. غالبًا ما قامت بأعمال إضافية لشقيقة السيدة رايس وأطفالها، حيث كوت ثيابهم أو جواربهم، لذا جنت بضعة أرباع أو حتى دولارًا إضافة إلى أجرها الأسبوعي، ادّخرتها كلّها لتتمكن من السفر إلى جيمبوي في ديترويت.

ظلّت لعشر سنوات تطبخ وتغسل وتكوي وتنظّف، ومن أجل ماذا؟ من أجل بضعة أسابيع، أو ستة أشهر يعود فيها جيمبوي من مكان غريب إلى المنزل ليحضنها بذراعيه القويتين ويقبّلها ويغمغم: «أنجي، حبيبتي!»، هذا ما كانت تعمل من أجله. ثم تحلّ الأشهر الكئيبة فارغة، وتتلاشى السنوات. لكنه غاب طوال هذا الشتاء، وبحسب رسالته قد لا يعود عمّا قريب، لأنه قال إن ديترويت مكان جيد للناس الملوّنين، على عكس سانتون. حسنًا، ظنت أنجي أن هناك مدنًا أفضل منها بالتأكيد، حيث لا تقاسي المرأة لتعيش، وحيث يوجد جيمبوي.

لذا قبل تفتّح البراعم الأولى على شجرة التفاح في الفناء الخلفي، كانت أنجي قد ذهبت إلى ديترويت، تاركةً ساندي مع جدّته.

وحينما تفتحت أزهار التفاح بالكامل، لم يكن هناك من يعيش في المنزل الصغير سوى امرأة عجوز رمادية الرأس وحفيدها.

«يتركونكِ واحدًا تلو الآخر»، قالت هاغر ببطء. «يذهب أطفالكِ واحدًا تلو الآخر».

لا شيء سوى الحب

«قبل عام من اليوم كانت الليلة التي عصف فيها الإعصار بشرفتي! أتتذكرها يا عزيزي؟ يبدو أن هذا العام لم يعصف بشرفتي فحسب. تركت ابنتي الصغرى المنزل لتستقر هناك في قاع المدينة مع عائلة سموثرز الوضيعة، حيث لا يتوقف عزف البيانو ليلًا ونهارًا. وذهبت والدتك لتلحق بجيمبوي... حسنًا، أحمدُ الرب أنك لم تذهب أيضًا. قد تكون صغيرًا ويافعًا، لكنك سنَدي، أنت كل ما لديّ، ولن تترك جدّتك العجوز، أليس كذلك؟».

لجأت هاغر إلى ساندي في هذه الأيام الموحشة بحثًا عن الراحة والصحبة. وجلسا معًا خلال أمسيات الصيف الطويلة على الشرفة الأمامية لتروي قصصًا لحفيدها. أحيانًا كانت تأتي الأخت جونسون وتجلس معهما قليلًا وتدخن. وفي أحيان أخرى مدام دي كارتر، بثرثرتها الكثيرة وكلماتها المبهمة حول المحفل والعِرق. لكن في أغلب الأحيان ظلّا وحيدَين، المرأة السوداء غاسلة الملابس بشَعرها الرمادي، والصبيّ الأسمر الصغير.

امتلأت ليالي الصيف بأحاديث الخالة هاغر عن قصص زمن العبودية، الأساطير، الحكايات الشعبية مثل الأرنب وطفل القطران؛ الحرب، أبي لينكولن، الحرية؛ رؤى الربّ؛ سنوات الإيمان والعمل، الحبّ والكفاح، والكثير من الأحاديث في حين توهّجت الحشرات الوضّاءة وأومضت، وتعالت زقزقة الجنادب الأميركية، وتلألأت النجوم في السماء البعيدة.

كان ساندي قد أصبح أكبر من أن يجلس في حضن جدّته لتهدهده حتى ينام كما كانت تفعل في الصيف الماضي؛ فأصبح الآن يجلس على

كرسيّ صغير بجانبها، ويتكئ برأسه على ساقيها حينما يتعب. أو يستلقي على أرضية الشرفة منصتًا، وهو يحدّق في النجوم العالية. تحدثت هاغر ليلتها عن الحب.

«يسمّينا الشباب الذين يكبرون الآن عجائزَ رجعيّين، وأصحاب مناديل الرأس، وزنوج البِيض لأننا لا نغضب ونحتجّ على صعوبة الأوضاع كما يفعلون ، لكن يا عزيزي حينما تكبر ستدرك ألّا مغزى من الغضب وإنهاك روحك بكراهية الناس. سيظلّ البِيض على حالهم، ولن يتغير الملوّنون، ولا أحد منهما بالسوء الذي يدّعيه الطرف الآخر. عاشرتُ البيض والملونين منذ سبعين عامًا، ولا يوجد متّسع في قلبي لكراهية أبيض أو ملوّن. حينما تبدأ في كراهية الناس تصبح أقبح منهم، وليس لديّ وقت للقبح، لأن فيه يكمن الشيطان.. في القبح!».

«يتحدثون عن زمن العبودية ويدّعون أنه كان أسوأ زمن لنا، لكن لا تصدّق ذلك يا صغيري، فهو لم يكن بذلك السوء. عاملَ بعض البيض زنوجَهم بلطف قدر استطاعتهم، ألطف من معاملة الكثير منهم للزنوج الآن، حيث يجعلونهم يعملون ليجنوا أقل مما يحتاجون لتناول الطعام. وفي ذلك الزمان توجّب عليهم إطعامهم. ولم يكن كل رجل أبيض يضرب عبيده أيضًا! بالطبع لا يمكنني القول إننا عشنا في النعيم، لكنه لم يكن جحيمًا أيضًا. وربما عشت في ظروف أفضل من التي عاشها غيري لأنني عملت في منزل كبير وليس في الحقول مثل معظم الزنوج. كانت أمي طاهية المنزل الكبير وقد كبرتُ في المطبخ ولعبتُ مع الآنسة الصغيرة جين. وعلّمتني الآنسة جين القراءة حتى تعلّمت ما أعرفه الآن. وحينما كبرت وكبرتُ، ظلّت تعاملني كصديقتها، أحببتها وأحبّتني. كانت الآنسة جين ابنة السيدة، لكن لم يكن هناك فرق بيننا سوى أنها تناديني هاغر بينما أناديها الآنسة جين. لكن ما الأثر التي قد تحدثه كلمة واحدة مثل (آنسة) على مشاعرك؟ لا شيء يا صغيري، لا شيء. لا تهمّ الكلمات إن وُجد الحب».

«لا أذكر في أيّ سنة اندلعت الحرب، لكن البيض كانوا خائفين، والزنوج أيضًا. لم أعرف ما قد يحدث، وسمعنا كلامَ أبراهام لينكولن هناك في الجنوب، والسيد العجوز وينفيلد أخذ سلاحه ومضى إلى الحرب، وكذلك ابنه الصغير، وكبار ضباط الشرطة والمراقبون، كلهم تبعوه، لم يبقَ سوى النساء والزنوج في المزرعة. كانت النساء تبكي والزنوج أيضًا، لأنهم شعروا بالأسى على البِيض المساكين المتفجّعين».

«هل أخبرتك من قبل كيف تزوجت الآنسة جين والسيد روبرت في ربيع زمن الحرب، مع تفتّح كل أزهار المغنوليا كالشموع في زفافهم؟ هل حكيت لك تلك القصة يا ساندي؟ حسنًا، لا بد أن أحكيها لك في وقت ما. وبعد زواجهما مضى السيد روبرت مع رجاله، لأنه كان ضابطًا كبيرًا في الجيش وسمعوا عن قدوم شيرمان. تركها واقفة وحدها وهي في ثوب زفافها، لتتكئ على عمود الشرفة البيضاء الكبيرة، من دون أن يكون هناك أحد سواي ليجفّف دموعها بعد وفاة السيدة العجوز وذهاب الرجال جميعًا إلى الحرب. ولم يكن هناك أحد في ذلك القصر الكبير سوى الخالة العجوز الصمّاء (غراني جونز) التي حافظت على نظافة وترتيب المنزل، أما أنا فقد بقيت مع سيّدتي».

«أوه! كان البيض بحاجة إلى الزنوج أكثر من أيّ وقت مضى، ولم يتركهم أيّ شخص ملوّن حين ذهب كل الرجال البيض إلى الحرب ولم تتوقف النساء البيض عن البكاء والإغماء. لكن دعني أحكي لك عن الآنسة جين، ظلّت جالسة في غرفتها تبكي، وهي تمسك إبريق السيد بوب، جلست وبكت، ولم تخرج من غرفتها لترى أي شيء؛ المنزل، الأحصنة، القطن.. لا شيء. لكن الزنوج لم يغشّوها ولم يسرقوها. ووصلت أنباء إصابة أخيها وموته في فرجينيا، وإصابة أقاربها بالحمّى الصفراء. ثم وصلت أنباء بأن السيد روبرت زوج الآنسة جين قد توفيّ! قُتل في المعركة! وظننتُ أن الآنسة جين ستجنّ. قالت الأنباء إنه مات كجندي، مات ببسالة وهو

يقاتل. لكن حينما سمعت النبأ توجّهتْ إلى الدّرج وأخرجت طرحة زواجها وحملت الزهور في يديها كما لو أنها ستذهب إلى المذبح للقاء عريسها. ثم وقعت أرضًا وظلت تبكي حتى انتشلتُها وحملتُها كما لو أنها طفلة».

«حسنًا، جاءت الحرية، وتفرّق الزنوج كالخردق، وذهبوا للعيش في المدن. ورأى الزنوج الذين عملوا في الحقول أنني عجوز حمقاء! فبعدما نلتُ حريتي لم أذهب معهم، قلتُ: لا، سأبقى مع الآنسة جين. وبقيت. ولأنني رأيت ألّا أحد من الملونين بحاجة إليّ مثل الآنسة جين، لم أذهب معهم».

«ومرّ الزمن؛ ومرّ الوقت، وأصبح المنزل القديم بلون الصدأ لأنه لم يُطلَ، والأشياء تناثرت إلى قطع. وقالت الآنسة جين: (هاغر، ليس لديّ أحد في العالم سواك). فقلت لها: (آنسة جين، ليس لديّ أحد في العالم سواكِ أيضًا). وشرعت بعدها تتحدث عن زوجها الشاب الذي مات وسيمًا وشجاعًا للغاية، زوجها الذي لم يتسنّ له الوقت في ذلك اليوم الأخير ليصحبها إلى الزفاف في الكنيسة، ولا ليحملها بذراعيه قبل وصول أوامر المغادرة. كنا نجلس على شرفة قديمة مرتفعة جدًا، بأعمدتها الحجرية الطويلة، في شفق المساء حتى تطير الخفافيش فوق رؤوسنا ويخبو نور الغروب، هي بفساتينها البيضاء العريضة التي تنتفخ حول خصرها النحيل، وأنا بمئزري وقبّعتي وهذه السلسلة الرفيعة جدًا التي أعطتني إياها وتراها حول عنقي طوال الوقت. كان هناك جذع قديم لشجرة مقطوعة في الفناء أمام الشرفة التي كانت بطول رجل، مع غصنين سوداوين يرتفعان مثل ذراعين في الهواء. اعتدنا الجلوس والنظر إليها، واستطاعت الآنسة جين رؤيتها من غرفة نومها في الطابق العلوي، وأحيانًا كان هذا الجذع يبدو كأنه رجل ينظر إلى الأعلى».

«بعد خلودها إلى النوم في وقت متأخر من ليلة ربيعية تألق فيها القمر، سمعتُ الآنسة جين تصرخ: (لقد جاء! هاغر... عاد حبيبي روبرت) قفزتُ من سرير في الغرفة المجاورة حيث كنت أنام وركضت إليها، وكانت هناك بثوب نومها الأبيض الطويل واقفة في ضوء القمر على الشرفة الصغيرة، وقد انتصبت في منتصف تلك الشرفة الحجرية الكبيرة. كانت تنظر إلى الفناء في الأسفل حيث الشجرة التي ترفع ذراعيها. وظنّت أنها السيد روبرت يناديها. ظنته يقف هناك بزيّه العسكري بعدما عاد من الحرب، يناديها. قالت: (أنا قادمة يا عزيزي بوب)، استطعت سماعها، قالت: (أنا قادمة!) وقبل أن أستوعب ما تفعله مشت الآنسة جين فوق درابزين الشرفة وكأنها تمشي على نور القمر. وقالت: (أنا قادمة يا بوب!)».

«لم تترك أيّ وصية، لذا ذهب المنزل وكل شيء إلى البلدية، وبقيتُ بلا شيء. لكنني لم أهتمّ لذلك، تبعتُها إلى القبر، ولازمتها طوال ذلك الوقت، لأنها صديقتي، وكنت أشعر بالأسى عليها، لأنني علمت أن الحبّ آلمَ روحَها، ولم يبق أحدٌ ليُعينها سواي».

«وقابلت منذ ذلك الحين العديد من السيدات والسادة البيض، بعضهم كان لطيفًا معي وبعضهم لا؛ بعضهم يلعنونني ولا يدفعون لي لقاء عملي؛ وآلمني بعضهم الآخر بشكل مروّع. لكنني طالما شعرت بالأسف على البيض، لأنني أعلم أنّ في داخلهم ما يسخط تلك الأرواح المسكينة. وقد احتفظت بحيز في قلبي لهم، لأن البيض بحاجة إلينا يا عزيزي، حتى لو لم يدركوا ذلك. إنهم مثل الأطفال المدللين الذين يحصلون على الكثير من كل شيء، وهم بحاجة إلينا نحن الزنوج، الذين لا نملك أي شيء».

«عشت ماضيًا طويلًا يا صغيري ساندي، وأعلم ألّا حيّز في العالم لشيء سوى الحب. أعلم ذلك يا صغيري! كل شيء سوى الحبّ ينهك روحك، والحبّ وحده كافٍ، يجب أن يكون هناك حيّز للجميع في قلبك،

كبارًا وصغارًا، بيضًا وسودًا، وللأخيار منهم والأشرار، لأن الحبّ لا يدخل الأماكن المحصورة على الطيّبين دون الأشرار، عدا ذلك لا يكون حبًا. ربما يسيء البيض معاملتك ويكرهونك، لكن حينما تردّ لهم الكراهية بمثلها فأنت من تتأذى، لأن الكراهية تجعل قلبك قبيحًا، هذا كلّ ما تفعله، إنها تغلق باب الحياة الجميل وتجعل كل شيء صغيرًا ولئيمًا وقذرًا. عزيزي، لا حيّز في العالم للكراهية، يكره البيض الزنوج، ويكره الزنوج البيض. لا مكان في هذا العالم لشيء سوى الحب يا صغيري ساندي. هذا كل ما يتّسع له، لا يتسع لشيء سوى الحب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

محل حلاقة

بعدما سمع السيد لوغان أن الخالة هاغر لديها غرفة فارغة بعد رحيل جميع بناتها، أرسل لها ذات ليلة وافدًا جديدًا إلى المدينة يبحث عن مكان ليمكث فيه. كان اسمه ويم دوغبيري وكان بنّاءَ طوبٍ وعتّالَ مواد بناء، رجل أسود طويل القامة هادئ منحني الأكتاف، ليس كبيرًا ولا صغيرًا. أخذ الغرفة التي كانت لأنجي مقابل دولارين ونصف أسبوعيًا، وأعطته هاغر مفتاح الباب الأمامي.

كان ويم دوغبيري في ذاك الوقت يحمل صناديق مواد البناء في مسرح الصور المتحركة الجديد الذي كان يُبنى. ينهض مبكرًا ويعود متأخرًا، ووجهه ويداه وثيابه مغطّاة بغبار الملاط، ليغتسل في حوض من الصفيح بجوار المضخّة ويخلد إلى النوم، وكل ما كان يقوله للخالة هاغر وساندي «صباح الخير»، و«مساء الخير»، وربما «كيف حالك؟» متلعثمة، وكانت هاغر غالبًا ما تدعوه لتناول الفطور في صباح الأحد إن استيقظ في الوقت المحدد، وفي ليالي السبت كان دوغبيري يحتسي الشراب ويعود إلى المنزل في وقت متأخر أكثر من أمسيات بقية أيام الأسبوع، لذا أحيانًا كان ينام حتى الظهر في أيام الأحد.

بلّل سريره في إحدى ليالي السبت، وعندما ذهبت هاغر لتسويته صبيحة يوم الراحة والعبادة، وجدت بقعة صفراء في منتصف السرير. شعر دوغبيري بالخجل الشديد بسبب هذا الفعل لدرجة أنه لم يقل «صباح الخير» لعدّة الأيام، وفي حال رأى من الزاوية الخالة هاغر وحفيدها جالسين على الشرفة في الغسق حين عودته؛ كان يجتاز الشارع ولا يعود حتى يظن أنهما خلدا إلى السرير. لكنه كان مستأجرًا هادئًا، لم يسبب

مشكلة لأحد، ويدفع إيجار غرفته بانتظام. وبما أن هاغر لم تكن في وضع يسمح لها بالاستخفاف بشأن الدولارين ونصف دولار أسبوعيًا، فقد أحبّت دوغبيري.

كانت هاغر تُبقي ساندي الذي يكبر بالقرب منها طوال الوقت ليساعدها بينما تغسل وتكوي، وليحدّثها بينما تجلس على الشرفة في الأمسيات. بالطبع يلعب أحيانًا في فناء منزله كلّما جاءت ويلي ماي أو باستر، أو في أيام الأحد، حينما يحضر جيمي لاين إلى المنزل. لكن جيمي لاين صار جامحًا منذ وفاة والدته، ولم ترغب هاغر أن يزور حفيدها بعد الآن. فقد كان سيئًا.

إذا رغب ساندي في الذهاب إلى الأرض الخالية للعب البيسبول مع أولاد الجيران، كانت جدته عادةً لا تسمح له بأن يتركها. فتقول: «ابقَ هنا مع هاغر يا سيد. أريدك أن تضخ الماء وتملأ هذه الأحواض». أو قد تصرخ: «ألم أقل لك إنك قد تتأذى هناك مع الأولاد البيض الكبار الفظّين؟ ابق هنا في فناء منزلك، حيث لن تتأذى قَطّ».

لذا كبر معتادًا على البقاء بالقرب من جدّته، وفي الليل حينما يلعب الأطفال الآخرون لعبة (البطّة فوق الصخرة)[1] تحت المصباح القوسي عند الزاوية، كان يجلس على الشرفة الأمامية وهو يستمع إلى الخالة هاغر تروي حكاياتها عن زمن العبودية وتتحدث عن شبابها البعيد. حينما فتحت المدارس أبوابها في الخريف، قالت المرأة العجوز: «لا أعلم ماذا سأفعل طوال النهار من دونك يا ساندي. فقد كنت رفيقي منذ رحلت كل

(1) لعبة يتم فيها وضع حجر كبير نوعًا ما «يُمثّل بطة» على جذع شجرة أو حجر أكبر، يقوم اللاعبون برمي الحجارة على «البطة» محاولين إسقاطها، بينما يظل لاعب واحد بالقرب من الحجر لحراسته. عند إسقاط الحجرة يندفع الرماة جميعهم لاستعادة أحجارهم، فيما يحاول الحارس إعادة الحجر إلى مكانه. وإن لمس الحارس لاعبًا قبل العودة إلى طابور الرماة حاملًا حجره، يصبح ذلك اللاعب هو الحارس.

بناتي». إلّا أن ساندي كان سعيدًا بالعودة إلى الفصل الذي يعجّ بالفتيان والفتيات مرة أخرى.

بعد ظهر أحد أيام الصيف الهندي[1] حين كانت الخالة هاغر تنشر الملابس في الفناء الخلفي بينما يحمل الصبي سلة ملاقط الغسيل، مرّ العجوز لوغان بعربة القمامة المتهالكة وانحنى بإتقان لهاغر. ذهبت إلى السياج الخلفي لتمزح وتثرثر معه كالمعتاد، بينما ظلت بغلته البيضاء تبعد الذباب اللحوح بذيلها.

قبل أن يبتعد العاشق العجوز، قال: «أخبريني يا هاغر، أتريدين أن يعمل ذلك الشاب؟ أعرف وظيفة بسيطة يمكنه الحصول عليها إن أردتِ»، مشيرًا إلى ساندي.

سألته هاغر: «وما هي هذه الوظيفة؟».

«حسنًا، (بيتر سكوت) بحاجة إلى صبي في محل الحلاقة أيام السبت ليكنس الشّعر المتساقط، ويلمّع أحذية الزبائن. لا شيء صعب في ذلك، ورأيتُ أنها وظيفة مناسبة لساندي. سيجني بعض النقود كل أسبوع ليساعدك في شؤون المنزل».

قالت هاغر: «هذا صحيح. سأجعله يذهب لرؤية (بيتر)».

لذا مضى ساندي تلك الليلة لرؤية السيد بيتر سكوت في محل حلاقة الملوّنين في شارع بيرل، وحصل على أول وظيفة منتظمة له. كل سبت، والذي كان اليوم الوحيد المزدحم في محلّ الحلاقة، حينما يتقاضى العمّال أجورهم، يذهب ساندي إلى عمله عند الظهيرة ويظلّ حتى الثامنة أو التاسعة مساءً. كانت واجباته هي كنس الشعر في المحل الذي تَشاركَه ثلاثة حلاقين، وتلميع حذاء أي زبون يطلب ذلك. لم يسمح سوى بضعة

(1) الصيف الهندي: هو نوبة من الطقس المشمس تحدث في شهر أكتوبر وأوائل شهر نوفمبر في الولايات المتحدة وبريطانيا.

زبائن لأنفسهم بتلك الرفاهية، فقد جاء الكثير منهم إلى المتجر بأحذية العمل المغطاة بالطين أو الجير، على أن يلمّعوا أحذيتهم في المنزل صباح الأحد قبل الذهاب إلى الكنيسة. لكن في بعض الأحيان كان كادج ويندزور الذي يمتلك صالة البلياردو، أو بعض المهربين المتأنقين يصعدون إلى الكرسي ويطلبون تنظيف أحذيتهم من الفتى الأسمر، الذي كان يسأل بخجل: «تلميع يا سيدي؟».

كان محل الحلاقة عالمًا جديدًا بالنسبة إلى ساندي الذي عاش طوال حياته مقيّدًا بخيوط مئزر الخالة هاغر. كان فتى بعينين حالمتين وصل إلى سنّه الحالي تحت التأثير الطاغي للنساء، أنجي وهاريت وجدّته، لأن جيمبوي نادرًا ما مكث في المنزل. إلّا أن محل الحلاقة كان عالمًا رجاليًا، وفي أيام السبت، بينما ينتظر عشرة من العمّال الكبار أو أكثر دورهم، يعمّ المكانَ حديثُ الرجال بصوت عال ودخانهم وضحكاتهم. البيسبول، جاك جونسون، خيول السباق، البيض، تيدي روزفلت، النميمة المحلية، بوكر واشنطن، النساء، فرص العمل في توبيكا، كانساس سيتي، أوماها، الدين، السياسية، الله... تستمر النقاشات والجدالات منذ بعد الظهر وحتى الليل، فيما تتساقط خصل الشعر المجعّدة على الأرضية، وتُلقى أعقاب السجائر والسيجار على الموقد النقّال، وساندي يستمر في سؤاله: «تلميع يا سيدي؟».

يكسب الصبي أحيانًا دولارًا أو اثنين من تلميع الأحذية، لكن في الأيام الماطرة أو المثلجة قد لا يجني شيئًا سوى الخمسين سنتًا التي يدفعها له (بيت سكوت) لقاء الكنس. أو ربما يرسله أحد الحلّاقين، إن كان منشغلًا فلا يتسنى له الذهاب لتناول العشاء، كي يحضر ساندي له شطيرة وزجاجة حليب، فيجني من ذلك خمسة أو عشرة سنتات إضافية.

أحبّه الزبائن، وكثيرًا ما مازحوه بشأن شعره رمليّ اللون. «يا فتى، بشرتك داكنة أكثر بكثير من أن يكون شعرك هكذا. لا يجب أن يكون شعر أحد رمليَّ اللون سوى البِيض. حتى أن شعرك ليس مجعّدًا!» فكان ساندي يحمّر خجلًا، إن أمكنَ تسمية تحوّل لون بشرته من الشوكولاتيّ الجاف إلى الشوكولاتيّ الرطب احمرارًا، بينما ترتفع حرارته ويتعرّق، لأنه لم يحبّ أن يمزح أحد معه بشأن شعره. ولم يختلط مع شبان غير مهذبين مدة كافية ليتعلّم فنّ ردّ النكتة بمثلها.

لكنه اكتشف بالفعل، على الرغم من ذلك، أن ما تُسمّى بالنكات غالبًا لا تكون نكاتًا على الإطلاق، بل حقائق بغيضة تؤلمك ما لم تستطع التفكير في شيء مضحك وبغيض بالقدر نفسه لتردّ عليها. لكن الرجال الذين يتردّدون على محل بيت سكوت للحلاقة نادرًا ما غضبوا من النكات القاسية التي غُلّفت بالفكاهة، وكان في استطاعتهم إلقاء العشرات منها بلا غضب، ما لم يحتدّ أحد الأطراف، عندها كان يُقال لهم أن يخرجوا ليحلّوا الأمر. وحتى ذلك الشجار كان مضحكًا أيضًا.

بعد قضاء ليالي السبت الشتوية في محل الحلاقة أصبح ساندي نفسه بارعًا في «المزاح»؛ لكنه كان بدايةً خجولًا جدًا بشأن ذلك ويخاف المزاح مع الكبار، أو الردّ بطريقة ذكية على الغرباء حينما يضايقونه بشأن شعره رمليّ اللون. ومع ذلك، ذات يوم، أعطاه أحد الحلاقين علبة (مدام ووكر) وقال له: «ضع هذا على شعرك ليكفّ هؤلاء الرجال عن السخرية منك». وعمل ساندي بنصيحته.

(مدام ووكر) هو مرهم أصفر كثيف، أثبت فعالية أكبر عند ترطيب شعره جيدًا بالماء، حينما استخدم شبكة الشعر التي صُنعت من جورب نسائي بعد قطع طرفه وربطه في عقدة حتى يشدّ على رأسه، وينعّم شعره. ظهر ساندي بعدها بشعر لامع وبرّاق. وقد جعله المرهم والماء معًا يبدو

بنيًا داكنًا، كلون بشرته تمامًا، بدلًا من لونه الرمليّ الغريب الذي كان عليه في حالته الطبيعية. كما أنه سرعان ما تطوّر كفايةً في فنّ «المزاح» ليقول: «شعر والدك مثله»، للناس الذين قالوا له إن شعره كان مجعّدًا.

حضرت هاربيت إلى المنزل مرة خلال الخريف لرؤية والدتها، وقالت إنها كانت تعمل كخادمة غرف نوم مع مودل في الفندق. لكن ساندي سمع اسم خالته يُذكر في محل الحلاقة في ذلك الشتاء ضمن أحاديث أقلّ أخلاقية. تظاهرَ الصبي أحيانًا بأنه لا يسمع، وإن كان (بيت) حاضرًا فإنه دائمًا يمنع الرجال من الحديث عنها.

قال لهم ذات ليلة سبت: «سئمت أحاديثكم القذرة هذه عن النساء. من الأفضل أن تهتموا بأمر نسائكم إن كنتم متزوجين».

«كل نساء العالم لا يساوينَ سِنْتَين بالنسبة إليّ»، قال أحد الرجال المنتظرين الذي جلس في الكرسي الأوسط، وقد غُطي وجهه بالرغوة. «لا أحترم أي امرأة سوى والدتي».

«ولا أنا»، ردّ عليه غرينسبري جونز. «كلهنّ شريرات، خاصةً إن كنّ من السود ولئتهنّ داكنة».

قال (بيت سكوت) من خلف الكرسي الأول، حيث كان يقص شعر جاب لوغان: «قلت لكم أن تصمتوا. زوجتي نفسها سوداء، لذا لا تتطرقوا إلى الحديث عن النساء السوداوات! سئمت كلّ هذا الكلام عن النساء على أي حال. هذا محلّي، وموس الحلاقة يمكنه أن يقص أشياءً أخرى غير الشّعر، لذا كفاكم كلامًا عن النساء السوداوات!».

قال غرينزبري جونز: «أرى أن براينت سيترشح إلى الانتخابات مجدّدًا».

لكن ذات يوم سبت، بينما خرج صاحب المحل لتناول الطعام، دار نقاش حول أجمل فتاة ملوّنة في المدينة. هل كانت من ذوات البشرة الفاتحة أو الشوكولاتية أو السوداء؟ بالطبع، لم يكن هناك اتفاق، لكن ذُكرت الأسماء ووُصفت الخصائص. فتاة لديها عينان مثل عيني حواء نفسها؛ وأخرى لديها ردفان مثل ردفَي كليوباترا؛ فتاة بشرتها سمراء ناعمة لديها سيقان مثل... مثل... مثل...

قال أحدهم حينما فشل في تذكّر اسم جميلة معروفة: «أوه، يا رجل! تمثال الحرية!».

جادل سائق شاحنة شابّ العمّ دان غيفنز، الذي كان يفضّل الزنجيات ذوات البشرة الفاتحة: «لكن يا رفيقي لا توجد فتاة جميلة بشرتها بألوان قوس قزح. لا يوجد أجمل من الفتيات السوداوات على الإطلاق! بشرتهنّ أكثر دكنةً من أن تبهت، وحينما أقول الجميلات، أقصد الجميلات فعلًا! أتحدّث عن هاريت ويليامز أيضًا! هي التي أعنيها بكلامي! جد فتاة أجمل منها!».

قال العجوز: «أعترف بأن هاريت جميلة، إنها تسرّ الناظرين لكن... أخخ!» وبصق على الموقد باحتقار.

قال سائق الشاحنة: «أعلم ذلك! لكنني لا أتحدث عن أخلاقها! أتحدّث عن شكلها. ومغنّية مثلها تنتمي إلى ذلك العالم لا تكترث إن كانت...!».

لكز أحد الرجال المتحدّث: «صه! اهدأ يا أخي. هناك واحد من عائلة ويليامز هنا، ذلك الفتى الذي يلمّع الأحذية هو ابن أخت هاريت أو شيء من هذا القبيل».

وأضاف أحد الحلّاقين: «أنتم تستطردون في الحديث كثيرًا على أي حال. سيشق أحدٌ شفتيك يومًا ما. يا لوقاحة العمّ دان غيفنز وهو يتحدّث

عن النساء فيما أصبح عجوزًا إلى حدّ لم يبق على رأسه سوى بضعة شعيرات كالجبنة المهترئة».

صرخ العم دان محتدًا: «لا بأس أيها الشاب الصّفيق. ربما لدي بضعة شعيرات حول رأسي، لكنني لستُ مهترئًا!».

ملأ الضحك والدخان المحل الصغير، بينما هبت رياح الشتاء مطقطقة النافذة الزجاجية ومصفّرةً عبر شقوق الباب، لتجعل الأضواء الغازية تضطرب فوق الرؤوس. صفق ساندي قماشة التلميع على مقدمة حذاء بنيّ بأزرار لرجل غريب في المدينة، ثم نظر إلى الأعلى بابتسامة عريضة وقال: «نعم يا سيدي!»، بينما أعطاه الرجل ربع دولار.

قال الوافد الجديد بغرور: «احتفظ بالباقي».

قال أحد الحلاقين عندما خرج الرجل: «إنه ممثل، إنه يشارك مع سمارت سيت في دار الأوبرا الليلة. أراهن أن الشرفات العلوية ستمتلئ بالزنوج بما أنه عرض كوميدي غنائي، لكنني لن أذهب إلى هناك وأخضع إلى قوانين جيم كرو، لأنني لا أؤمن بالذهاب إلى أي مكان لا يُسمح لي فيه بالجلوس مع بقية الناس. إن لم أستطع أن أكون مفرش مائدة، فلن أكون خرقة، هذا شعاري. وإن لم أستطع حجز المقاعد التي أريدها في العرض، فلعنة الله عليه!».

أجاب حمّال صغير أحمر العينين: «نعم، وتفوّت على نفسك كل العروض الممتعة. هذا أشبه بقولك إن لم تستطع تناول الطعام في مطعم يأكل فيه البيض، فلن تأكل».

صاح ساندي وسط الجلبة: «أيرغب أحد في تلميع؟ وإن كنت لا ترغب في تلميع حذائك، فابتعد عن كرسيي وجادل واقفًا على الأرضية!».

دخلت إلى المحل فتاة سمراء من المؤدين، في طريقها إلى المسرح، وسألت إن كانت جريدة شيكاغو ديفندر متوّفرة لديهم. دلّها الحلاق إلى مطعم الملوّنين، بينما توقف جميع الرجال فجأة عن التحدث ليحدّقوا فيها وهي خارجةً.

«يا لهما من ساقين!»، صاح سائق الشاحنة بينما انغلق الباب على منظر جوربيها الحريريين. «كيف تريد تلميع حذاء تلك الفتاة السمراء الطويلة الجميلة يا فتى؟».

قال ساندي: «لن أتقاضى منها أجرًا!».

صرخ جاب لوغان: «ووبي! سواءً على الشرفة أو غيرها، سأحضر ذلك العرض! لا أكترث إن كانوا يطبقون قوانين جيم كرو على السود في دار الأوبرا المخصصة للبيض!».

تمتم أحد الحلاقين: «نعم، هذا كل ما يهمكم الآن، لا تكترثون بشأن اعتزازكم بعرقكم! أنتم بلا حياء!».

يوم الأطفال

عندما حلّ عيد الفصح في ذلك الربيع، كان ساندي قد ادّخر ما يكفي من المال لشراء بدلة وقبعة جديدة مما جناه في محلّ الحلاقة. كان فخورًا جدًا بهذا الإنجاز وكذلك كانت الخالة هاغر.

«أنت فتى مجتهد بلا شك! ستصبح رجلًا ذكيًا حتى لو كان والدك نكرة. ستنهض بنفسك وبعِرقنا، نعم يا سيد!».

حلّ الربيع مبكرًا، ومع توالي الأيام المعتدلة الصافية امتلأ الفناء الخلفي لمنزل هاغر بالملابس البيضاء النظيفة التي نُشرت على الحبال في الشمس. غادر المستأجر عندما انتهى بناء المسرح وذهب للعمل في سدّ في مكان ما أعلى النهر، لذا فرغت غرفة أنجي مجدّدًا. نام ساندي مع جدّته في الجو البارد، لكن عاد في الصيف للنوم على فراش القشّ.

لم يفتقد الصبي والدته. حينما كانت في المنزل عملت أنجي في الخارج طوال النهار، وظلت هادئة ليلًا لأنها كانت متعبة دائمًا. كانت هارييت هي التي تُبقي المرح والضحك مستمرًا، وجيمبوي متى ما حضر إلى المدينة. تمنّى ساندي لو كانت هاري تعيش في المنزل بدلًا من إقامتها في منزل مودل، لكنه لم يقل شيئًا عن ذلك الأمر لجدّته قَطّ. ذهب إلى المدرسة بانتظام، ومحلّ الحلاقة في أيام السبت ومدرسة الأحد أيام الأحد، وأمضى بقية وقته مع الخالة هاغر. كانت تقلق دائمًا إن لم تعرف أين هو.

كانت تقول: «حينما يبلغ الأولاد الملونون سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر، يصبحون سيئين للغاية يا ساندي. أريدك أن تظلّ لطيفًا وتحقق شيئًا. إن ظلّت هاغر على قيد الحياة، فلن تراك تفشل. ستجعل منك رجلًا

رائعًا يعمل من أجل مجد الله والعِرق الأسود. ستصبح ذا شأن في هذا العالم. أتسمعني؟».

سمعها ساندي، وفهم ما تقصده. قصدت أن يصبح رجلًا مثل (بوكر تي. واشنطن)، أو (فريدريك دوغلاس)، أو مثل (بول لورانس دنبار) الذي كان يكتب الشعر. أو ربما (جاك جونسون). لكن قالت هاغر إن جاك جونسون كانت عظمته من الشيطان، وليس من الله.

«هذا ما تظنه حينما تعمل في محلّ الحلاقة القديم ذاك، حيث لا يتحدثون سوى عن الملاكمة وسباقات الخيل. لكن جاك جونسون تزوج امرأة بيضاء! فما همّه بشأن عرقنا؟».

تساءل الصبي الصغير إن كان أطفال جاك جونسون يشبهون باستر. لكن ربما لم ينجب أطفالًا. توجب عليه أن يسأل (بيت سكوت) عن ذلك حينما يذهب إلى العمل يوم السبت.

افتُتحت مدينة ملاهي جديدة في سانتون صيفًا، لتكون الأولى من نوعها في المدينة مع دوامة خيل، أفعوانية فوق الماء، دولاب دوّار، قاعة رقص، ومنصة في الهواء الطلق لحفلات نهاية الأسبوع. من أجل الترويج للمنتزه، الذي كان في أقصى الطرف الشمالي من المدينة، أعلنت ديلي ليدر عن إطلاق ما سَمّته حفلة يوم الأطفال المجانية، تحت رعايتها، لجميع قرّاء تلك الصحيفة الذين قصّوا الكوبونات المنشورة في كل عدد. تلك الكوبونات في 26 يوليو، التي تقدّم عند الباب، تمنح كل طفل في سانتون حقّ الدخول مجانًا إلى المنتزه، فُشار مجاني، عصير ليمون مجاني، وجولة واحدة في كلّ من ألعاب المنتزه؛ الدولاب الدوّار، الأفعوانية المائية، ودوامة الخيل. كل ما عليكم فعله هو أن تكونوا من قرّاء ديلي ليدر وتبرزوا الكوبونات المقصوصة من تلك الجريدة.

تلقّت كلٌّ من الخالة هاغر والأخت جونسون الليدر بشكل منتظم، وكذلك كل سكّان سانتون تقريبًا، لذا بدأ ساندي وويلي ماي في قصّ الكوبونات. فعل كل أطفال الحيّ الشيء نفسه. سيكون يوم الطفل حدثًا كبيرًا لجميع الصغار في المدينة. لم يسبق لأيّ منهم أن رأى أفعوانية مائية قَطّ، وهي اختراع يسحب عاليًا في الهواء عربات صغيرة مليئة بالناس قبل أن يتركها تنزل في منحدر إلى بركة اصطناعية، حيث تطفو العربات مثل القوارب. تطلّع ساندي وويلي ماي إلى إثارة ما بعدها إثارة.

عندما حلّ اليوم العظيم أخيرًا، مرّت ويلي ماي على ساندي، وهي ترتدي أكثر فساتينها البيض بياضًا وحذاءها الجلدي الجديد واللامع، الذي آلم قدميها بشدة. فيما كانت جدّة ساندي تطلب منه أن يغسل أذنيه.

قالت هاغر: «ستذهب إلى هناك مع كل أولئك الأطفال البيض، أريدك أن تبدو نظيفًا على الأقل!».

مضيا في طريقهما.

«تعال!»، نادته الخالة هاغر. «ألن تأخذ كوبوناتك؟». نسيها ساندي في غمرة اندفاعه للذهاب.

كان المسير إلى المنتزه طويلًا، وتوقفت ويلي ماي لتخلع حذاءها وجوربيها وحملتهما بيديها حتى اقتربت من البوّابة؛ ثم ارتدتهما مجددًا ودلفت إلى البوابة بشجاعة، ممسكةً بمقصوصات جرائدها الثمينة. كان بإمكانهما سماع عزف الفرقة الموسيقية وصراخ الأطفال وضوضائهم بينما تنحدر عربات الأفعوانية المائية إلى الأسفل وتنثر رذاذ الماء في البركة. أمكنهما رؤية الدولاب الدوّار العملاق يدور عاليًا في الهواء، وقد كان أكبر من الموجود في الكرنفال.

قال ساندي: «ستكون هذه أول لعبة أركبها».

كان هناك حشود من الأطفال تحت السقيفة الخشبية الحمراء والبيضاء عند مدخل المنتزه. كانوا مصطفين عند البوابة؛ أطفال بيض صغار ضاحكون، مسرورون، نظيفون، يتدافعون ويصرخون ويقهقهون بسعادة. ترك ساندي ويلي ماي تسبقه ووقف خلفها في الطابور. كانت الفرقة الموسيقية تعزف بابتهاج في الداخل، كانا على وشك الوصول إلى المدخل، لم يتبق سوى ولدين أمامهما، بسطت ويلي ماي يدها السمراء الصغيرة التي أمسكت الكوبونات بها، تقدّما، نظر الرجل إلى الأسفل.

قال: «عذرًا.. هذه الحفلة للأطفال البيض».

لم تفهم ويلي ماي. وقفت ممسكة الكوبونات، بانتظار أن يأخذها الرجل الأبيض الطويل.

«تراجعا، أنتما الاثنان»، قال الرجل، وهو ينظر إلى ساندي أيضًا. «قلت لكما أيها الزنجيان الصغيران إن هذه الحفلة ليست لكما، هيا.. الفتاة التالية». وتدافع طابور الأطفال البيض متجاوزًا ويلي ماي وساندي، متّجهين إلى المنتزه. بذهول تنحّى صاحبا البشرة الداكنة جانبًا، قبل أن يلحظا مجموعة من عشرة أطفال أو أكثر من الملونين تقف جانبًا في الشمس، بعيدًا عن سقيفة المدخل الزاهية، ومن بينهم سادي باتلر، زميلة ساندي في الفصل. كان ثلاثة أو أربعة من الأطفال الملونين يبكون، لكن معظمهم بدا حزينًا وغاضبًا، ومضى بعضهم عائدًا إلى المنزل.

«أبي يأخذ جريدة ليدر»، كانت سادي بتلر تقول «ويمكنكم قراءة ما كُتب على الكوبونات أيضًا (دخول مجاني لكل أطفال سانتون). ألا يمكنك قراءتها يا ساندي؟».

«بالطبع يمكنني قراءتها، لكن أظنهم لم يقصدوا الملونين»، أجابها، فيما راقب الفتى الأطفال البيض يدخلون عبر البوابة. «لن يسمحوا لنا بالدخول».

أما ويلي ماي، فبين ألم حذائها الذي أوجعها وألم خيبة أملها، أوشكت على البكاء. أحد الأولاد الصغار في الحشد، وهو فتى صغير خشن المظهر من شارع بيرل، كان يشتم بطريقة طفولية.

«لعنة الله على أولاد الأوغاد، هذه طبيعتهم! أتمنى لو كنتُ رجلًا كبيرًا، تبًا لهم، كنت لأطلق النار عليهم جميعًا، هذا ما كنت لأفعله!».

قال ساندي مرة أخرى: «أعتقد أنهم لم يقصدوا الأطفال الملونين».

«دخل باستر من دون مشكلات»، قالت سادي. «رأيته بنفسي، لكن أظنهم لم يدركوا أنه ملوّن. حينما ذهبت إلى البوابة، قال الرجل: (مهلك! أين تظنين نفسك ذاهبة؟)، كما لو كنتُ حصانًا... سأعود إلى المنزل الآن وأخبر بابا».

مشت مبتعدةً، وتبعتها خمس فتيات أو ستّ مرتديات فساتين أيام الأحد. جلست ويلي ماي على الأرض لتخلع حذاءها مرة أخرى، والعَرق والدموع ينهمران على خدّيها الأسودين. رأى ساندي (أيرل) زميله الأبيض في الصف يقترب.

«ما الأمر يا ساندي؟ ألن تدخل؟»، سأله أيرل ناظرًا إلى وجه صديقه القلق. «هل آذت الفتاة الصغيرة قدمها؟».

قال ساندي: «لا. لن ندخل... خذ يا أيرل، يمكنك الحصول على كوبوناتي. إن كان لديك كوبونات إضافية، كُتب في الصحيفة أنك تستطيع الحصول على المزيد من عصير الليمون... لذا خذها».

قبلَ الصبي الأبيض الكوبونات التي عُرضت عليه بارتباك، ووقف صامتًا متسائلًا عمّا يقوله لصديقه الأسمر، قبل أن يدخل إلى المنتزه.

«إنها حفلتكم أيها الولد الأبيض!» نادته فتاة سمراء البشرة، مقلّدةً طريقة كلام الرجل الواقف عند البوابة. «واه! ابتعد! أنت زنجي!» قالت لساندي.

الأطفال الآخرون ضحكوا من دقة تقليدها الهزلي. بعد ذلك تردّد صوت موسيقى دوّامة الخيل من خلف السياج المرتفع لتتبعها أصوات ضحك الأطفال السعداء، بدأت مجموعة من الأطفال ذوي البشرة الداكنة في المضيّ على الطريق الترابي معًا، وهم يقولون لكل الأولاد والبنات الملونين الذين يصادفونهم في الطريق: «لا داعي للذهاب أيها الزنجي! هذه الحفلة للبيض!».

حينما وصلت ويلي ماي وساندي إلى المنزل وحكيا قصّتهما، جنّ جنون الأخت جونسون كدجاجة دُلق عليها الماء.

صرخت: «البيض شياطين! أتوقع منهم كل شيء! لن تكفي نار الجحيم نفعًا في إحراق أولئك البيض الملاعين، لأنهم الشياطين أنفسهم! أولئك الأوغاد القذرون!».

إلّا أن هاغر لم تقل سوى: «أولئك الأوغاد المساكين الذي يملكون المنتزه لا يعون ما يفعلونه، يؤذون مشاعر الأطفال، لكننا سنغفر لهم! لا تضايقي نفسك أيتها الأخت جونسون. ما نفع أن تتضايقي؟ تعالوا إلى هنا، سنقيم حفلة بأنفسنا». خرجت إلى الفناء وأخرجت بطيخة من حوض ماء حيث وُضعت لتبرد، وقَطعتها إلى أربع شرائح مرطبة؛ ثم جلسوا على العشب في الجانب المظلل من المنزل وأكلوها، وهم يحاولون أن ينسوا أمر البِيض.

«لا تهتمي لهذا يا ويلي ماي»، قالت هاغر للفتاة السوداء الصغيرة التي ظلت تبكي. «أنتِ ملوّنة يا عزيزتي، ومن المحتمل أن تمرّي بوقت عصيب في هذه الحياة، لكن لا تبكي. اذهب يا ساندي إلى أمام المنزل وتأكّدْ إن كان ما سمعته هو صفير ساعي البريد».

قال ساندي حينما عاد: «كان ساعي البريد بالفعل، ومعي رسالة من أمي». جلس الصبي على العشب ليقرأها، متلهفًا لمعرفة ما كتبته أنجي. ولاحقًا، بعدما ذهبت ضيفتاهما، قرأها بصوت عالٍ لهاغر.

ولدي الصغير العزيز:

كيف حالكم؟ كيف حال جدّتك؟ قلقت لأنني لم أتلقّ منكما أي رسالة. تعرف أن الخالة هاغر كبيرة في السن ولا يمكنها أن تكتب كثيرًا، لذا عليك الكتابة نيابةً عنها لأنها ليست معتادة على كتابة الرسائل، وآخر رسالة استغرقت أسبوعين حتى وصلت إلى هنا بعدما ذهبت إلى كل مكان. يرسل والدك تحياته. حصلت على وظيفة في نزل للبيض النزقين فيما يتعلق بترتيب أسرّتهم. هناك بيض وملونون يعملون في مجال العربات، ونساء أيضًا. أخبر مدام دي كارتر أنني سأردّ مستحقات المحفل لأنني لا أريد تحويلها إليّ بينما قد أعود إلى المنزل في وقت ما. لم أركم جميعًا منذ أكثر من عام. يغير جيمبوي وظيفته باستمرار متنقلًا من واحدة إلى أخرى، لكنه يحب هذه المدينة كثيرًا. كسر غيتاره وهو يحمله في ترام مزدحم. تقول أمي إنك تكبر واشتريت لنفسك بدلة جديدة في عيد الفصح الماضي. من المؤكد أن أمي تكافح لتتابع عملها في غسيل الملابس والكيّ في سنّها هذا، بالإضافة إلى اهتمامها بشؤونك. على تيمبي مساعدة أمي، لكن يبدو أنها لا ترى ذلك. هل رأيت خالتك هاري؟ آمل أن تستقر. لو لم تكن أمي لوحدها ربما لأرسلت إليك لتأتي وتعيش معنا في ديترويت، لكن ربما سآتي إلى المنزل لأراك إن توفّر لديّ بعض المال. الإيجارات مرتفعة جدًا هنا، ولم أشهد هذا العدد الكبير من الأشخاص في منزل واحد قَطّ، حيث يقطن خمسة أو ستة أفراد معًا، ولا يستطيع أحد توفير عشرة سنتات. هل ما زلت تعمل في محل الحلاقة؟ علمت أن الأخت جونسون أُصيبت بوعكة، لكن لم أفهم من خربشة أمي ما علّتها. هل استشارت طبيبًا؟ تصرّفْ بتهذيب مع ويلي ماي لأنك فتى كبير الآن وهي أكبر سنًا منك. سأرسل لك سروالًا حينما أذهب في المرة القادمة إلى المدينة، لكنني أنتهي من العمل في وقت متأخر جدًا، فلا تتسنى لي الفرصة لفعل أي شيء، ووالدك يأكل في المطعم وليس في المنزل ويتركني أدفع الحساب،

أين ما ذهب الملونون فهم يواجهون المصاعب. أريدك أن تعتني بجدّتك وتساعدها في العمل. كبرتْ في السنّ إلى حدّ لم تعد تستطيع الضغط على المضخة لسحب المياه التي تغسل بها الملابس. اكتب لي رسالة فورًا. أحبكما أنتما الاثنان وسأطبع لك سبع قبلات xxxxxxx هنا على الورق.

والدتك المحبّة

أنجليكا روجرز.

ضحك ساندي من القبلات السخيفة المتقاطعة. كان سعيدًا لتلقي رسالة من والدته، وقد ذكرت فيها جيمبوي. وشعر بالأسف لأن والده كسر غيتاره. لكن حتى البطيخ والرسالة الطويلة لم يستطيعا مسح شعور التقزّز الذي أصابه بعدما حدث في الحديقة.

سأل ساندي جدّته عندما خرجا إلى الشرفة في ذلك المساء بعد العشاء: «أظن أن كانساس أصبحت مثل الجنوب، أليس كذلك يا جدتي؟ إنهم لا يحبّوننا هنا أيضًا، أليس كذلك؟» لكن الخالة هاغر لم تجبه. راقبا بصمت غروب الشمس وهي تتلاشى. سطع نجم المساء ببطء، نظرت هاغر إلى النجوم، وبدأت تغني، بهدوء شديد بدايةً:

من هذا العالم الخالي من المتاعب،

النجوم في العالم الآخر!

النجوم في العالم الآخر!

وساندي، الواقف إلى جانب جدّته على الشرفة، سمع جوقة عظيمة من ماضي السود، أجيال مغنية من الزنوج المنهكين، يتردّد صداهم في صوت هاغر وهو يزداد عمقًا وعلوًا:

هناك نجمة لك ولي،

النجوم في العالم الآخر!

عشرة دولارات والنفقات

وجد ساندي في الخريف وظيفة شغلته بعد ساعات الدوام المدرسي، بما فيها يوميّ السبت والأحد. بعد ظهر أحد الأيام، جاء حمّال الأمتعة تشارلي نوتر إلى محل الحلاقة، طلب من ساندي الخروج معه من المحل قليلًا. وحالما ابتعد عن مرمى سمع الحلّاقين والمتسكعين في الداخل، قال تشارلي: «اسمع يا فتى، أخرجتك إلى هنا لأحدّثك عن وظيفة. (جو ويليس) الرجل الأبيض مدير الفندق الذي أعمل فيه، يبحث عن فتى يكنس البهو كل يوم، ويمسح الغبار، ويساعد الحمّالين في بعض الأحيان. لا يوجد شيء صعب في هذه الوظيفة، وإن أردت يمكنك إحضار صندوق التلميع ومسح الأحذية في البهو أيضًا. ظننتُ أنك قد ترغب في هذه الوظيفة. ستجني نقودًا أكثر مما تجنيه هنا. وسيزيد دخلك أكثر حينما تدرك كل تفاصيل العمل. بالطبع عليك إعطائي بعض الدولارات لأنني أمّنت لك هذه الوظيفة، إن رغبتَ فيها فقط أخبرني وسأسوّي الأمر مع المدير. طلب مني البدء في البحث عن شخص ما، وهذا ما أفعله». تابع تشارلي نوتر حديثه، من دون أن يتوقف منتظرًا الإجابة. «بالطبع فتى مثلك لا يعرف شيئًا عن العمل الفندقي، لكنك لست صغيرًا على التعلم، وهذه بداية جيدة. ومن يدري؟ قد ترتقي إلى مستواي الوظيفي يومًا ما، لتصبح رئيس الحمّالين! فأنا لن أبقى في هذه المدينة طوال عمري؛ أظن أنني إذا ما استطعت حمل الأمتعة هنا، فإنني أستطيع حملها في شيكاغو أو في مكان ملائم للعيش. كما أن البقشيش ليس سيئًا في فندق درامر، هناك الكثير من بنات الهوى والناس الذين لن يمانعوا منحك ربع دولار

في أي وقت، ويمكنك أن تسعد نفسك بين الفينة والأخرى. ما رأيك؟ أترغب في هذه الوظيفة؟».

فكّر ساندي في الأمر سريعًا، فمع اقتراب عيد الميلاد، كادَ حذاؤه يهترئ، كما أراد مساعدة الخالة هاغر أيضًا، فقال له «أظنني سأقبل بها، لكن هل عليّ أن أدفع لك الآن؟».

«بالطبع لا، ليس الآن! ستظلّ تحت ناظريّ، ويمكنك أن تعطيني الآن مبلغًا بسيطًا وتكمل لي الباقي حينما تبدأ العمل. فالصبي الآخر لن يترك الوظيفة حتى الأسبوع المقبل على أيّ حال. أظن أنك تستطيع القدوم صباح الأحد وسأريك ما عليك فعله. ولا تكترث بشأن ويليس حينما يصيح عليك. إنه طيّب، لكن طريقته في المساعدة فظّة، هذا كل ما في الأمر، إلّا أنه ليس رئيسًا سيئًا. سأراك لاحقًا إذًا! تعال الأحد وأعلمني بقدومك بالطبع. إلى اللقاء!».

إلّا أن الخالة هاغر لم تسعد كثيرًا عندما عاد ساندي إلى المنزل ليلتها وسمعت الأنباء الجديدة. قالت له: «لم أرد قطّ أن يعمل أحد من أطفالي في تلك الفنادق الجديدة. إنها آثمة، تعجّ بالبذاءات، ولن تتعلم شيئًا خيرًا فيها. لا أريدك أن تذهب إلى هناك يا بنيّ».

احتجّ ساندي: «لكن يا جدّتي، أريد أن أبعث لأمي هدية في عيد الميلاد، وانظري إلى حذائي، إنه مهترئ تمامًا! لم أعد أكسب الكثير من المال منذ افتتاح محلّ حلاقة الملونين الجديد. إنه أبيض تمامًا من الداخل ولا يضطر الناس إلى الانتظار طويلًا لأن هناك خمسة حلاقين. حصل جيمي لاين على وظيفة حمّال هناك، وعليّ الحصول على وظيفة منتظمة في وقت ما، أليس كذلك؟».

«أظن أن هذا صحيح، لكنني أكره رؤيتك تعمل في الفنادق يا بني، حيث كل زنوج قاع المدينة الوضيعين، وحيث النساء السيئات. لكنني

أظنك بحاجة إلى عمل. الربّ أعلم منذ متى لم ترسل والدتك نقودًا، ولن أستطيع أن أشتري لك ملابس جميلة وكل ما تحتاجه للذهاب إلى المدرسة، لكن لا تنس يا عزيزي، أينما عملت كن طيبًا وافعل الصواب... أعتقد أنك ستفلح».

لذا ذهب ساندي إلى تشارلي نوتر يوم الأحد وأخبره أنه سيتولى الوظيفة بالتأكيد. ثم أخبر بيت سكوت أنه لن يعود إلى العمل في محلّ الحلاقة، غضب بيت وقال له أن يذهب إلى الجحيم، فهو يترك العمل حينما تردّى الحال بعد كل ما فعله من أجله، بالإضافة إلى سماحه له بتلميع الأحذية والاحتفاظ بكل ما يجنيه. لم يكن ليستطيع فعل ذلك في محلات أخرى؛ كما أنه كان ينوي تعليم ساندي الحلاقة عندما يكبر بما يكفي.

قال بيت سكوت: «لكن اذهب! اذهب! لستُ بحاجة إليك. يمكنني العثور على الكثير من الأولاد الآخرين ليعملوا لديّ. لكنني أراهنك أنك لن تبقى في فندق درامر ذاك طويلًا، أؤكد لك ذلك!».

امتد الصيف الهندي الطويل حتى عيد الشكر تقريبًا، وكان الطقس مشمسًا ودافئًا. قبل يوم من ذهاب ساندي إلى العمل في وظيفته الجديدة، رجع إلى المنزل من المدرسة، أحضرَ الحطب للموقد، وأوصل سلّة من الملابس المكوية حديثًا لأصحابها البيض. حينما عاد وجد جدّته واقفة على الشرفة الأمامية في الغروب تقرأ صحيفة المساء التي أوصلها إليها الصبيّ مؤخرًا. توقف ساندي في الشفق بجانب هاغر، مستنشقًا الهواء البارد النظيف ومتسائلًا ماذا سيتناولان على العشاء.

صرخت جدّته بشدة فجأة واتكأت على دعامة الباب، تاركةً الجريدة تسقط من يدها. ندبت: «أوه، يا ربي! أوه، يا ربي!» وقد جعل التعبير عن أقصى درجات الألم عيني المرأة العجوز تتسعان في رعب. «هل قرأت الاسم بشكل صحيح؟».

التقط ساندي الجريدة بخوف، ووجد في الصفحة الأولى الخبر الذي كُتب في أربعة أسطر وقرأته جدّته للتو:

زنجيتان تتعرضان للاعتقال

تم القبض على هاربيتا ويليامز ومودل سموثرز، وهما زنجيتان شابتان، الليلة الماضية في شارع بيرل بتهمة الفجور. مثلتا أمام القاضي برينتون وغُرّمتا بعشرة دولارات والنفقات.

سألها الطفل: «ما معنى هذا يا جدتي... الفجور؟»، لكن جدّته رفعت مئزرها إلى عينيها ودخلت إلى المنزل. توقف ساندي وهو محتار من معنى المقال، من اعتقال خالته، من رعب جدّته. ثم تبع هاغر، والجريدة ما تزال مفتوحة في يديه، ووجدها واقفةً عند نافذة المطبخ تبكي. هزّت الشهقات المتألمة جسدها والصبي، الذي لم يرَ شخصًا كبيرًا يذرف الدموع بهذا الشكل قَطّ، خاف كثيرًا. لم يعلم أنّ الكبار يبكون إلا في الجنازات، حيث يكون البكاء هو التصرف الملائم. لم يعلم أنهم يبكون بمفردهم، لوحدهم في منازلهم.

قال وهو يلقي بالجريدة على الأرضية: «سأحضر الأخت جونسون، سأحضر الأخت جونسون بسرعة!».

تمتمت المرأة العجوز: «لا يا عزيزي، لا تحضرها. لا تستطيع مساعدتنا يا بني. لا أحد يستطيع مساعدتنا سوى الربّ».

رأى ساندي جدّته في ضوء الغسق تحاول جاهدة التحدّث بوضوح والسيطرة على تنهيداتها.

«دعنا نصلّي يا بني، من أجل خالتك هاربيت المسكينة التائهة، من أجل طفلتي الصغيرة، التي انتقلت من النور إلى الظلام».

نزلت على ركبتيها بالقرب من موقد المطبخ، وضعت ذراعيها على كرسي، وأحنت رأسها. ركع ساندي على ركبتيه أيضًا، وبينما كانت جدّته تصلي بصوت عالٍ من أجل جسد وروح ابنتها، كرّر الصبي مرارًا وتكرارًا في ذهنه: «أتمنى أن تعودي إلى المنزل يا خالتي هاري. الوحدة عمّت المكان! يا للهول، كم أتمنى عودتك إلى المنزل».

يا ولد!

كان في بهو فندق درامر ستة مباصق نحاسية كبيرة، واحدة في منتصف المكان، واحدة في كل ركن، وواحدة بجانب مكتب السكرتير. وكانت إحدى واجبات ساندي تنظيف هذه المباصق. في كل ليلة من ذلك الشتاء يأتي إلى الباب الخلفي للفندق بعد المدرسة، ليضع كتبه في الخزانة حيث يحتفظ بمكانسه وخِرق التنظيف، ويكنس الردهتين العلويتين القصيرتين والدّرجين، يكنس البهو ويزيل الغبار، ثم يأخذ المباصق، مفرغًا محتوياتها اللزجة في الزقاق، يغسلها، ويلمّعها حتى تبرق كما لو كانت مصنوعة من الذهب. باستثناء الرائحة النتنة التي تفوح عند إفراغها، أحبّ ساندي هذه الوظيفة. شعر دائمًا بالفخر الشديد بنفسه في نهاية اليوم، حينما أمكنه النظر في أنحاء البهو الأغبر القديم ورؤية الأواني النحاسية الستّ تلمع أسطحها البرّاقة تحت وهج المصابيح الكهربائية قبل أن تُغطى مرة أخرى بالبصاق. التفكير في أنه خلق هذا اللمعان بيديه، بمساعدة علبة من ملمّع النحاس، لم يفشل قَطّ في إسعاد ساندي.

أحبّ تنظيف الأشياء، جعلها جميلة وتلمع. أحبّت الخالة هاغر ذلك أيضًا. عندما لم تكن تغسل الملابس، كانت دائمًا ما تنظّف شيئًا في المنزل، أو تزيل الغبار، أو تلمّع الفرن، أو تكشط أرضية المطبخ حتى تصبح بيضاء بما يكفي لتناول الطعام عليها. بالنسبة إلى هاغر كان الشيء النظيف جميلًا، وكذلك بالنسبة إلى ساندي، الذي افتخر كل مساء بمباصقه النحاسية الستّ التي لا تشوبها شائبة. ومع ذلك، حينما كان يأتي إلى العمل كل يوم، يجدها مغطّاة بلُعاب المدخّنين البنّي، أعقاب

السجائر، العلكة الممضوغة، والبلغم. لكن تنظيفها كان من مهمات ساندي، وقد بدت جميلة حينما تُنظّف.

كان تشارلي نوتر محقًا، لم يكن هناك أيّ شيء صعب في هذا العمل، وقد أحبّ ذلك لفترة من الوقت. أنماط الحياة الجديدة التي رآها في الفندق أثارت اهتمامه وأدهشته، لكن، ولأنه بطبيعته طفل صامت، لم يطرح أيّ أسئلة، وبعيدًا عن توجيهات العمل، لم يقل له أحد شيئًا. أبلى ساندي حسنًا في التنظيف ولم تسنح الفرصة لرئيسه ليصرخ عليه بعد، بينما كان يصيح كثيرًا على الحمّالين.

لم يكن فندق درامر فندقًا كبيرًا، ولا جميلًا. منشأة من ثلاثة طوابق، متهالكة ومتداعية، لم تُطلَ منذ سنوات. فصل البهو عن الشارع لوحان زجاجيان كبيران، وأمامهما صفوف من الكراسي الخشبية الصلبة. في الجزء الخلفي وُضع مكتب السكرتير، وصندوق سجائر، مُبرّد مياه، والباب الواصل إلى حمّام الرجال. توجّب على ساندي تنظيف هذا الحمام أيضًا.

كانت غرف النوم في الطابقين الثاني والثالث. ولم يستأجرها سوى أفقر الباعة المتجولين، عمّال السكك الحديدية العابرين، وأحيانًا بعض العاملين في العروض، وفتيات الشوارع مع زبائنهن. كانت الفترة الليلية هي الأكثر نشاطًا على الدوام في فندق درامر، لكن ساندي لم يعمل بعد الساعة السادسة سوى في أيام السبت. فلا يعود ليلتها إلى المنزل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، لكن الخالة هاغر كانت تنتظره دومًا، مبقية النار دافئة، وقد ملأت حوض الاستحمام بالماء لحمّامه الأسبوعي.

لم يكن هناك غرفة طعام ملحقة بالفندق، وبعيدًا عن ساندي، لم يكن هناك سوى خمسة موظفين. الرئيس نفسه، جو ويليس، الذي كان يجلس عادةً إلى المكتب. كان هناك خادمتان للغرف تعملان في الصباح، ورجل عجوز يقوم بأعمال التنظيف المجهدة وينظف الأرضية بفرشة خشنة مرة

أو مرتين أسبوعيًا، وعتّالان يُفترض أن أحدهما يعمل ليلًا والآخر يعمل نهارًا، لكن كان كلا العتالَين يواصلان العمل لساعات طويلة فينظّما ساعات العمل بحسب ما يناسبهما. بدأ تشارلي نوتر صغيرًا، مثل ساندي، وكبر هناك. أما العتّال الآخر لم يكن فتى على الإطلاق، بل رجل عجوز، عمل في الفندق منذ افتتاحه، وكان ساندي يخشاه بقدر ما يخشى رئيسه.

كان اسم ذلك العتّال السيد جورج كلارك. كان زيه باليًا وملوّثًا بالشحم، لكنه يلبسه كما لو كان رائدًا، ويتصرّف كما لو أن كل أعباء إدارة الفندق ملقاة على كاهله. عرف كيف يتم كل شيء، وأين يتم الاحتفاظ بكل شيء، وما يحبّ كل نزيل قديم من نزلاء الفندق. وأمكنه التنبؤ بأذواق كل نزيل جديد قبل أن يقضي في الفندق يومًا. كان متذللًا وبشوش الوجه للبيض، أما حينما يساعد الملونين فينقلب شريرًا ومتجبرًا، كان جورج السلطة الرئيسة بعد جو ويليس في فندق درامر. دأب كل يوم على كشف بعض العيوب في عمل ساندي حتى تعلّم محبّة الفتى، لأن ساندي لم يرد عليه أو يحاول التملّص قَطّ، كما كان معظم الشبان الزنوج يفعلون. بعد مرور بعض الوقت صار نادرًا ما يتفحص الرجل العجوز مباصق ساندي أو يبحث في الزوايا عن الغبار، لكنه، ومع ذلك ظلّ شخصًا يجب أن يُعامل بلطف ويُطاع إن رغب المرء أن يعمل في فندق درامر.

إلى جانب كونه اليد اليمنى للرئيس، كان جورج كلارك هو المهرّب الرسميّ في المكان أيضًا. يحتفظ بمؤونة الشراب الخاصة به في قبو الفندق. وعندما يكون خارج الخدمة يتولى تشارلي العتّال الآخر بيعها من أجله حين تكون هناك أي طلبات من الغرف في الأعلى. لا يبيعان شيئًا لغير نزلاء الفندق، لكن عمليات البيع هذه كانت متكررة. وتحصل بعض النساء البيض اللواتي يستخدمن الغرف على عمولة من جورج عن عمليات البيع التي ساعدنه في إتمامها لزوارهنّ من الرجال.

كان ساندي بحاجة إلى وقت طويل ليتعلّم حيل العمل الفندقي. وكان تشارلي يقول له باستمرار: «يا لك من أحمق صغير، لكن ابقَ معي لبعض الوقت وستتعلم كل شيء».

جاء عيد الميلاد وأرسل ساندي إلى والدته في ديترويت علبة حلوى كبيرة. كان على وشك شراء زوج طويل من حلقات الأذن الخضراء بخمسين سنتًا للخالة هاغر، لكنه خشي ألا تنال إعجابها، فاشترى بدلًا منها منديلَ بيضاء. وأرسل بطاقة معايدة رائعة إلى هاريت، ففي أحد أيام ديسمبر المثلجة، رأته خالته عبر النوافذ وهو يكنس بهو الفندق، ونادته إلى الباب لتتحدث إليه. حشرت قطعة ورقية صغيرة في يده وعليها عنوانها الجديد.

قالت له: «انتقلت مودل إلى كانساس سيتي. لذا لم أعد أمكث هناك. من الأفضل أن تحتفظ بهذا العنوان لنفسك وإن احتاجتني أمي، ستعلم مكاني».

ثم تابعت طريقها عبر الثلج، وهي تبدو جميلة جدًا في معطف الفرو الرخيص، والنعال السوداء ذات الكعب العالي، مع جوربين حريريين رماديين. رآها ساندي تمرّ بالقرب من الفندق بصحبة رجال مختلفين. وتذهب في بعض الأحيان مع كادج وينزدور، مالك صالة البلياردو، أو بيلي ساندرلي. كانت دائمًا مع رجال ذوي مظهر رياضيّ، يرتدون قبعات ديربي ولديهم أسنان ذهبية. لاحظ ساندي أنها لم تلحّ عليه لزيارتها في محلّ إقامتها الجديد الذي أعطته عنوانه، لذا وضع الورقة في جيبه وتابع الكنس، وهو سعيد على أيّ حال لرؤية خالته هاريت.

جلس العديد من الرجال البيض في الردهة يدخنون ويقرؤون الصحف بعد ظهر أحد أيام السبت. كنس ساندي حول كراسيهم، وأزال الغبار، ثم أخرج المباصق لتنظيفها. لم يتطلب هذا العمل تركيزه؛ بينما وضع

الملمّع ببعض الخرق الناعمة، ترك ذهنه يجول في أنحاء أخرى. فكّر في هاربيت. ثم فكّر في المدرسة وماذا سيفعل عندما يصبح رجلًا؛ في ويلي ماي التي عملت في غسل أطباق العشاء لعائلة بيضاء؛ فكّر في جيمي لاين الذي لم يكن لديه أم. وتساءل عمّا تفعله والدته ووالده في مدينة أخرى، وإن كانا يريدانه معهما. فكّر كم كبرت الخالة هاغر وتعبت وكم أصبح رأسها رماديًا؛ كيف تنفخ وتلهث على أحواض الغسيل الآن، لكنها لم تشتكِ قطّ؛ كيف تنتظره في ليالي السبت تاركةً موقد المطبخ مشتعلًا، حتى يشعر بالدفء بعد مشيه لمسافة طويلة في البرد؛ كيف تصلي أن يصبح رجلًا عظيمًا في يوم من الأيام... وهو يجلس هناك في الغرفة الخلفية للفندق، بينما يحول المباصق واحدة تلو الأخرى براقة وجميلة، كان يتساءل كيف يشق الناس طريقهم إلى العظمة؟

وجب عليه ليلتها العمل حتى ساعة متأخرة ليلتقط الأوراق في البهو، يقضي حاجات رئيسه، ويلمّع الأحذية. بعدما وضع المباصق في أماكنها، خرج ليحضر شطيرة هامبرغر وكوب قهوة للعشاء؛ ثم كان سيعود ويساعد تشارلي إن استطاع، كان تشارلي عجوزًا طيبًا. لم يأخذ منه سوى دولار واحد مقابل تأمين الوظيفة، وساعده كثيرًا في جني المزيد من البقشيش بسماحه لساندي بالذهاب إلى مكتب التلغراف أو إنجاز بعض الأمور البسيطة لنزلاء الطوابق العليا... بالطبع، كان تشارلي رجلًا لطيفًا.

انشغل كثيرًا ليلتها، طلب العديد من الرجال تلميع أحذيتهم وهم يجلسون في مقاعد البهو بينما سمح لهم ساندي بوضع قدم تلو الأخرى على صندوق تلميع الأحذية ليلمّعها. أعطاه مزارع طويل القامة ربع دولار وربت على رأسه.

رنّ جرس الآنسة مارسيا ماكاي الشقراء بحدود العاشرة صباحًا، وبسبب انشغال تشارلي أرسلَ جو ويليس ساندي إلى الأعلى ليرى ما تريد.

كانت الآنسة ماكاي قد دخلت الفندق قبل وقت قصير بصحبة رجل بدين قبيح. كان كلاهما ثملين. طرق ساندي الباب من الخارج بخجل.

«ادخل»، هدر صوت رجوليّ.

فتح ساندي الباب ورأى الآنسة مكاي واقفة عارية في منتصف الأرضية تمشّط شعرها. توقّف عند عتبة الباب.

قال الرجل: «هيا، ادخل، لن تعضّك! أين ذلك العتّال؟ نريد بعض الشراب! تبًا! أرسل تشارلي إلى هنا! يعرف ما أريد!».

هرع ساندي راكضًا، وعندما وجد تشارلي أخبره عن الآنسة مكاي. كان الطفل مذعورًا لأنه سمع كثيرًا عن إعدام الأطفال السّود بلا محاكمة بسبب نظرهم إلى النساء البيض، حتى إن كنّ مرتديات ملابسهنّ. لكن العتّال ضحك فحسب. مكتبة سُر مَن قرأ

قال له: «يا لك من أحمق صغير! إن بقيت هنا لفترة أطول سترى ما هو أكثر من هذا!» غمز ساندي ولكزه في أضلاعه. «يا للروعة، بعت عشر ربعيات شراب الليلة»، همس مبتهجًا «وبعضها كانت لي أيضًا!».

عاد ساندي إلى البهو وتلميع الأحذية. ناداه رجل ضخم أحمر الرقبة، كان يدخن ويحتسي الشراب مع مجموعة من الباعة المتجولين في أحد أركان الغرفة: «يا ولد! تعال لمّع حذائي!» لذا دخل إلى وسط ثلّة الرجال بصندوق تلميع الأحذية، نزل على ركبتيه أمام الرجل الضخم، أخرج علبه وخِرقه، وباشر العمل.

كان الرجال البيض يروون قصصًا قذرة، أقبح مما سمعه ساندي في محل حلاقة الملونين، من دون أن تكون مضحكة للغاية، وقد جعلته بعضها يشعر بالغثيان.

قال الرجل الضخم الذي كان يلمّع حذاءه: «سأخبركم قصة» تحدّث متشدقًا بالكلام على طريقة سكّان الجنوب مع ابتلاع نهايات الكلمات وكأنه عجوز ملوّن. كان يحتسي الشراب أيضًا «هذه القصة عن أسود ذهب لرؤية الخالة هانر ذات ليلة...».

تلقى هديرًا من الضحك على محاولته الأولى وشجّعوه على حكاية قصة أخرى.

بدأ يحكي: «أمسك زنجي عجوز بفتاة على الرصيف...».

أنهى ساندي تلميع حذائه ووضع الخِرق داخل صندوقه الأسود ووقف منتظرًا أجره، لكن المتحدّث لم ينتبه إلى الولد الملوّن حتى أنهى حكايته وضحك من قلبه مع الرجال الآخرين. ثم نظر إلى ساندي. فجأة ابتسم.

«أيها الأسود الصغير، ارقص قليلًا للرجال... في الجنوب حيث أعيش، كل السود يجيدون الرقص!... هيا يا فتى، أسرع!».

«لا أستطيع»، قالها ساندي وقد انقلبت ابتسامته إلى تجهّم، وارتفعت حرارة جسده بينما كان يقف هناك في دائرة دخانية من الرجال البيض المبتسمين. «لا أعرف كيف أرقص».

قال الرجل أحمر العنق باشمئزاز، وقد أثقل الويسكي لسانه: «أوه! أنت راكون عنيد من كنساس، هاه؟ أنتم الزنوج الجنوبيون أغبياء جدًا على أي حال!» ثم توجه إلى حشد المتسكعين المستمتعين في البهو، فقال: «في مسيسيبي، من حيث جئت، إن أعطيتم زنجيًا عشرة سنتات فسيرقص حتى يهلك... ومن الأفضل لهم أن يرقصوا، إن كنتم تفهمون قصدي!».

التفت إلى الرجال من حوله منتظرًا تصديقهم على كلامه، بينما كان ساندي لا يزال في انتظار أجره على التلميع. لكن الرجل تركه واقفًا هناك، ناظرًا إليه بثمالة، قبل أن يحوّل ناظريه إلى الحشد المسلّي من متسكّعي ليلة السبت.

«زنجي بحجمه في الجنوب لن يفكر في الرقص إن طلب منه رجل أبيض ذلك، بل سيفكر في الطيران. يحاول هذا الولد التذاكي، هذا كل ما في الأمر. هنا في الشمال أفسدتم الزنوج بدلالكم لهم، فصدّقوا أن لهم قيمة. أما حيث أعيش، فننزلهم منازلهم الحقيقية». قبل أن يتوجّه إلى ساندي مرة أخرى. «يا ولد! أريد رؤيتك ترقص!» قال بنبرة آمرة.

إلّا أن ساندي التقط صندوق التلميع وبدأ يمرّ عبر دائرة الكراسي من دون اكتراث بأجره، عندما نهض الجنوبيّ وأمسكه بقوة من ذراعه، وزافرًا أنفاسه الكحولية في وجه الصبي وهو يسحبه بسخرية إلى الخلف.

«تعال إلى هنا، أيها الصغير...»، لكنه لم يتعدّ ذلك، أما ساندي فقد استمد قوة من الغضب الذي استحوذ عليه فجأة بسبب لمس ذلك الرجل الأبيض له، فأطلق صرخة أمكن سماعها من بعيد.

استدار كل من في الردهة لرؤية ما يحدث، لكن قبل أن يخرج جو ويليس من خلف مكتب السكرتير وصل الصبي بعدما تملّص إلى باب الشارع. هناك استدار ساندي، رفع صندوق تلميع الأحذية فوق رأسه بغيظ، ورماه بكل قوته على مجموعة الرجال البيض الضاحكين حيث كان الجنوبي الثمل واقفًا. تناثرت من إحدى طرفي الصندوق الذي أحدث أزيزًا زجاجات التلميع، الفرش والعلب بينما اختفى ساندي عبر الباب، راكضًا بأسرع ما تستطيع ساقاه تحمّله تحت الثلج المتساقط. صرخ جو ويليس من مدخل الفندق: «أنت! يا ابن الزانية الأسود!»، لكن تلاشى صوته في الظلمة. وبينما كان ساندي يركض شعر بندف الثلج تتساقط على وجهه.

ملاحظة إلى هاريت

بعد عدة أيام، حينما أخرج ساندي من جيبه قطعة الورق التي أعطته إياها خالته هاريت ذلك اليوم أمام الفندق، لاحظ أن العنوان المكتوب هو مكان ما في قاع المدينة، شعر بقلق مبهم، لذا لم يُرها لجدّته، لأنه سمعها كثيرًا تردّد أن قاع المدينة مكان سيئ. وعندما كان يعمل في محلّ الحلاقة سمع الرجال يتحدثون عمّا يحدث هناك، وفهم عمومًا ما يقصدونه.

كان مكانًا يسوده المجون، يفعل الناس ما يحلو لهم، أو ما يضطرون إلى فعله من دون اكتراث، توقف الناس في قاع المدينة عن الكفاح أمام الحدود الفاصلة بين الخير والشر، أو الأبيض والأسود، واستسلموا بسعادة للفسق. خلف شارع بيرل، على امتداد السكك الحديدية، اجتمع الناس على اختلاف ألوان بشرتهم سعيًا إلى المتعة، ولم يفصلهم عن الطرف الآخر من السكة الحديدية حيث الكنائس ومبنى جمعية الشبّان المسيحيين الأبيض الكبير، سوى ستائر يسدلونها.

في ليل قاع المدينة تئنّ آلات الفيكتورلا وتصرخ آلات البانجو منتشيةً في الظلمة. وفي ليالي الصيف تقف الفتيات ذوات البشرة الصفراء والسمراء والسوداء بمآزرهن الوردية والزرقاء عند المداخل يضحكن بترحاب، ويُرمى النرد تحت دوي موسيقى الجاز المتقطعة على طاولات طويلة في الغرف الخلفية. يلعب القوّادون البلياردو؛ يتسكّع مهرّبو الخمور في عربات حمراء كبيرة؛ يركض الأطفال في الشوارع حتى منتصف الليل، من دون أي صوت لسُلطة أبوية تجبرهم على النوم مبكرًا؛ يتشاجر الشبان السود مثل الديوك ويستمتعون بذلك؛ يجول الشبّان البيض في

الشوارع وهم يغمزون الفتيات الملوّنات؛ يجيء الرجال في سيارات، وتأكل النساء المسنّات أقدام الخنازير ويشربن البيرة؛ يتدفّق الويسكي؛ كان (الجن) مثل الماء؛ ضحكات رقيقة متراخية لا تعبأ بشيء؛ وأصوات الزنوج الرخيمة تتعالى في الغناء، الأصوات التي كفّت منذ زمن بعيد عن التمرد على هذا العالم.

بالنسبة إلى أولئك الذين عاشوا على الجانب الآخر من السكة الحديدية ولم يدركوا قَط الغباء المطلق لكلمة «خطيئة»، كان قاع المدينة مكانًا حقيرًا وشريرًا. لكن بالنسبة إلى الفتيات اللواتي عشنَ هناك، والشبّان اللذين عملوا قوّادين وتشاجروا وباعوا الخمور، كانت «خطيئة» كلمة سخيفة لا تدخل رؤوسهم. فهم لم يروا الحياة قَطّ بنظارات مدارس الأحد. لم تلائم عيونهم النظارات التي ارتداها الناس الطيبون، لأنهم لم يسدلوا ستارة الكلمات بينهم وبين الواقع. بالنسبة إليهم كانت الأشياء على طبيعتها.

«فراشي قاسٍ، لكنني مستلقية فيه على نفس النحو!».

غنت مغنية البلوز ذات الصوت الأجش في أغنيتها؛

«اسمعوا!... اسمعوا! من يريد أن ينام معي؟».

كان ذلك في أحد شوارع قاع المدينة هذه التي وصل إليها ساندي لاهثًا في صباح مشرق وهو يحمل الملاحظة في يده. طرق باب منزل رماديّ كبير.

سأل وهو يلهث: «أهذا مسكن هاريت ويليامز؟».

سألته امرأة كبيرة وأنيقة صفراء البشرة ترتدي كيمونو حريريًا أزرق بعدما فتحت الباب: «أتقصد هاريتا؟ تفضل يا عزيزي واجلس، سأرى إن كانت قد استيقظت». ثم تركت ساندي في الردهة بينما صعدت الدرج وهي تنادي خالته بصوت واضح وكسول.

كانت هناك ستائر مخملية ثقيلة على النوافذ والأبواب في الغرفة الأمامية حيث جلس ساندي، وسجادة سميكة بالية على الأرضية. كان هناك متّكئًا، أريكة مغطاة بالوسائد، طاولة في المنتصف، وعدّة كَراسٍ. عبر ستائر الباب المزدوج المؤدي إلى الغرفة المجاورة، رأى ساندي بيانو، والمزيد من الأرائك والكراسي، وأرضية مزيتة نظيفة يمكن استخدامها للرقص. كانت الغرفتان غارقتان في فوضى كبيرة، وفاحت رائحة العفونة والبيرة من كل أنحاء المنزل. كانت زجاجات الخمور وبيرة الزنجبيل تحت الطاولة الموجودة في منتصف المكان، تحت الأرائك، وفوق البيانو. كانت المنافض في كل مكان تفيض بأعقاب السيجار، والسجائر على الأرضية، تحت الكراسي، مقلوبة بين وسائد الأريكة. احتوت صينية نحاسية صغيرة أسفل إحدى الأرائك على نصف دزينة من الأكواب الصغيرة التي ظلت بعضها مليئة جزئيًا ببعض الويسكي أو الجن.

جلس ساندي ينتظر خالته. كان الجو هادئًا جدًا في المنزل، على الرغم من أن الساعة قاربت العاشرة. نزل رجل على الدرج حاملًا معطفه على ذراعه، وهو يرمش نعسًا، اجتاز البهو وخرج إلى الشارع. تحرّكت أقدامٌ مرتدية خفّ النوم على رأس الدرج في الطابق الثاني، ونادى صوت المرأة الكسولة: «ستنزل في غضون دقيقة يا عزيزي. انتظرها هناك».

انتظر ساندي. سمع تدفّق ماء في الأعلى وصوت قرقرة أجشّ من حوض استحمام يفرغ. ظهرت هاربيت في ثوب غسيل كالذي يرتديه الأطفال، وصل الثوب إلى أعلى ركبتيها. فاحت منها رائحة صابون كاشمير بوكيه، ولم يكن وجهها قد غطّته البودرة بعد، ولا شعرها قد صُفّف، لكن ابتسامتها كانت عريضة، سعيدة برؤية ابن أختها، ولفّت عنقه بذراعيها.

«يا إلهي! أنا سعيدة لرؤيتك يا عزيزي؟ كيف جئت إلى هنا؟ كيف عثرت عليّ؟».

قال ساندي: «جدّتي مريضة، أعياها المرض وأرسلت لك الخالة تيمبي هذه الملاحظة».

فتحت الفتاة الرسالة وقرأت:

من المتوقع ألّا تعيش والدتك، من الأفضل أن تأتي لرؤيتها فقد طلبت ذلك. تيمبي.

قالت هاريت برقّة: «أوه! انتظر قليلًا.. سأسرع».

جلس ساندي مرة أخرى في الغرفة المليئة بمنافض السجائر وزجاجات الشراب. طقطقت أقدام كثيرة في الطابق العلوي، وبينما كانت الأبواب تُفتح وتُغلق، سُمع صوت نساء: «هل يمكنني مساعدتك يا فتاتي؟ هل تريدين أن أقرضك بعض المال؟ هل أنتِ بحاجة إلى خِمار؟».

حينما نزلت هاريت كانت تلبس معطفًا أمغر اللون، وترباناً أبيض، وقد شدّته بإحكام على رأسها. كان وجهها مغطى بالبودرة وقد وضعت القليل من أحمر الشفاه على شفتيها. والحقيبة التي تحملها مزيّنة بالخرز الأزرق والذهبي.

قالت: «هيا يا ساندي.. أظن أنني جاهزة».

حينما خرجا، سمعا صوت رجل من منزل رثّ في الجانب المقابل من الشارع يغني بهدوء ويرافقه بيانو:

حبيبتي، سأرحل

ولن يطول الغياب...

بينما في الخارج، على عتبة بابه الأمامي وقف طفلان أشعثا الشعر يرقصان بطريقة احتفالية.

قبل يومين عاد ساندي من المدرسة ليجد جدّته مستلقية على السرير، والأحواض الممتلئة لا تزال منتصبة في المطبخ من دون أن تُنشر الملابس حتى تجفّ.

سألها: «ما الأمر؟».

قالت المرأة العجوز وهي تلهث: «أشعر بالإنهاك يا بنيّ، أشعر ببعض التعب، هذا كل ما في الأمر».

لكن ساندي علمَ أن خطبًا ما قد أصاب الخالة هاغر، لأنه لم يسبق له رؤيتها قطّ مستلقية على السرير في وضح النهار، وملابسها لا تزال في الأحواض.

سألها الطفل: «هل يؤلمك ظهرك؟».

تنهدت الخالة هاغر: «أشعر ببعض الآلام، لكن أحس بها في جانبي أكثر من ظهري الآن، لكنه أمر بسيط، أنا متعبة فحسب».

إلّا أن ساندي كان خائفًا «هل تريدين بعض الصودا والماء يا جدتي؟».

«لا يا عزيزي». ثم أضافت بنبرة غضبها المتكلّفة المعتادة: «اذهب من هنا ودعني أريح جسدي، ألَمْ أقل لك إنني أشعر ببعض الإرهاق فحسب، وعليّ الاستلقاء قليلًا؟ اذهب وأحضر بعض الحطب... والعب مع باستر والأولاد.. هيا».

قاربت الساعة الخامسة عندما دخل الصبي إلى المنزل مرة أخرى، كانت الخالة هاغر تجلس في الكرسي الهزاز بالقرب من الموقد، ووجهها منهك وشاحب، كانت تحاول الانتهاء من غسيل الملابس.

«بنيّ، اذهب وأحضر الأخت جونسون، واسألها إن كانت لا تمانع عصر الملابس المغسولة لي، لم ترسل السيدة دانست الكثير من الملابس

لأغسلها هذا الأسبوع، ويمكنك مساعدتها في نشرها، أعتقد أنها لن تمطر خلال الليل، لذا يمكن أن تجفّ قبل الصباح».

ركض ساندي باتجاه الباب.

«لا تستعجل!» قالت المرأة العجوز. «لا داعي للركض».

لم تكتفِ الأخت جونسون بالحضور فورًا ونشر الغسيل، بل وضعت هاغر في الفراش، مع زجاجة ماء ساخن على جانبها المتألّم، وأعطتها جرعة كبيرة من النعناع الفلفليّ والماء.

قالت لها: «أظنها آلامًا في المعدة، أعرف أنك تتناولين الملفوف على العشاء!».

قالت هاغر: «ربما هذا هو السبب».

أخذت الأخت جونسون ساندي إلى منزلها لتناول العشاء في ذلك المساء، وأكلت معه ومع ويلي ماي خمس حبّات بطاطس حلوة لكلّ منهم.

قال توم جونسون: «ستنفجرون جميعًا!».

خلد الصبي مع جدّته إلى السرير في حدود الساعة التاسعة، وظلّت هاغر تتقلب وتئنّ طوال تلك الليلة، على الرغم من محاولتها أن ترقد بهدوء وألّا توقظ ساندي. قالت في الصباح: «بنيّ، أظن أن من الأفضل بقاءَك في المنزل بدلًا من الذهاب إلى المدرسة، لأنني أشعر بتوعّك كبير. يبدو أن ذلك الملفوف لم يُهضم بعد، أحسّ كما لو أنني تناولتُ حجرًا... اذهب وانظر إن أمكنك إشعال النار وتسخين كوب من الماء الدافئ لي».

جاءت مدام دي كارتر بحدود الساعة الحادية عشرة «لم ألمحكِ في الفناء هذا الصباح والشمس تشعّ مشرقة ومبهجة، لست بخير، صحيح؟ قال ساندي إنك مريضة بعض الشيء». واصلت ثرثرتها «ليس من المعتاد ألا أراك تنشرين الملابس قبل حلول الظهر».

قالت هاغر حينما سنحت الفرصة لها للكلام: «لست بخير أبدًا هذا الصباح، أشعر أنني في حالة سيئة، أعاني آلامًا في جانبي؛ يبدو أنها لن تخفّ أبدًا، دلّكت الأخت جونسون موضع الألم للتوّ، لكنني أعاني آلامًا رهيبة ولا يمكنني أن آكل شيئًا... يمكنك استخدام الهاتف، أليس كذلك أيتها الأخت كارتر؟».

«نعم! بكل تأكيد! عادةً ما أجري اتصالات من منزل السيد بيتيت، أتظنين أنك بحاجة إلى طبيب؟».

الخالة هاغر التي لم تئن بسبب آلام أقلّ حدّة؛ لم تكن تنوي أن تشتكي من هذا، لكنه الألم!

قالت وهي تلهث: «إنه يشقّني إلى نصفين، تَواصلي مع الطبيب العجوز ماكديلورز وسيأتي».

هرعت مدام دي كارتر إلى الخارج فخورة بشعورها بأهمية إمكانها استخدام هاتف جارتها البيضاء.

«لم أعرف أن المرض قد أعياك يا جدّتي!»، اتسعت عينا ساندي خوفًا وتعاطفًا «سأجعل السيدة جونسون تأتي وتدلّك موضع الألم مجدّدًا».

«أوه! أوه! ساعدني يا ربي!»، قالت وحيدة من دون أن يسمعها أحد، بعدما لم تستطع كتم أنينها. برزت قطرات عرق باردة على جبينها.

جاء الطبيب العجوز الأبيض اللطيف الذي عرفته هاغر لسنوات، وكانت تثق به.

قال: «حسنًا، من المفاجئ حقًا رؤيتك في السرير يا خالتي». ثم بدا جدّيًا ومهنيًا للغاية، وهو يقيس نبضها.

«اخرجوا وأغلقوا الباب»، قال بلطف للسيدة دي كارتر والأخت جونسون وويلي ماي وساندي، وقد احتشدوا جميعًا حول السرير في الغرفة

الصغيرة. «ليسخّن أحدكم بعض الماء». أبعدَ الأغطية عن جسد المرأة وفكّ أزرار ثوبها.

بعد عشر دقائق قال بصراحة؛ لكن بلطف كبير في نبرته: «أنت امرأة مريضة يا هاغر، امرأة مريضة للغاية».

جاءت تيمبي بعد ظهر ذلك اليوم، مثل شخص غريب إلى المنزل، وتولّت الأمور. شعر ساندي بالخجل وعدم الارتياح لحضورها. كان لدى خالته هذه أسلوبًا قاسٍ وبارد وصارم في الحديث، يشبه طريقة حديث السيدة رايس عند التحدث إلى والدته حينما كانت أنجي تعمل هناك. رتّبت تيمبي المنزل بسرعة، حمّمت والدتها، وغطّت الفراش بملاءاتٍ نظيفة ولحاف أبيض. قبل المساء بدأ أعضاء محفل هاغر في القدوم مُحضِرين الحساء. مرّ سكان الحيّ من البيض أيضًا للاستفسار إن كان يسعهم فعل شيء للسيدة العجوز التي رعتهم كثيرًا في مرضهم. جاء العجوز لوغان في عربته إلى الزقاق حوالي الساعة السادسة، وربط بغلته البيضاء بالسياج الخلفي.

كانت الشمس تغرب حينما نادت تيمبي على ساندي الذي كان في الفناء الخلفي، حيث كان يقطع الحطب للموقد. صاحت: «جيمس». كم كان وقع اسمه الحقيقي غريبًا على أذنيه حينما تلفّظت به خالته الباردة هذه!. «جيمس، عليك إرسال هذه البرقية إلى والدتك، خذ هذا الدولار ويمكنك إعادة بقية النقود، انظر إلى رسالتها الأخيرة واكتب عنوانها الصحيح».

أخذ ساندي الورقة المكتوبة والمال الذي أعطته إياه خالته، ثم بحث في أدراج المنزل المختلفة عن رسالة والدته الأخيرة. مرّ حوالى شهر منذ أن وصل إليهم شيء منها، لكنّ الصبي وجد الرسالة في الخزانة أخيرًا، تحت وعاء تقديم الحلوى المليء بالعملات المعدنية الذي احتفظت به جدّته هناك. حمل المغلّف معه إلى مكتب التلغراف، وهناك دفع تكلفة إرسال رسالة إلى أنجي في ديترويت:

أمّنا مريضة جدًا، تعالي على الفور. تيمبي.

عندما عاد الصبي إلى المنزل في غيهب الغسق، انتابه شعور غريب بأنه وحيد في هذا العالم، كما لو أن الخالة هاغر قد رحلت بالفعل، وحينما وصل إلى المنزل كان يعجّ بأعضاء المحفل الذين جاؤوا للمناوبة. ذهبت تيمبي إلى منزلها، إلّا أن الأخت جونسون بقيت في غرفة المريضة لتغير زجاجات الماء الساخن وتعطيها الدواء الذي تركه الطبيب كل ثلاث ساعات.

كان هناك الكثير من الناس في المنزل، فخرج ساندي إلى الفناء الخلفي وجلس على حافة البئر. كان الجو باردًا وصافيًا، وهلّ الهلال في سماء زرقاء فاتحة متلألئة بالنجوم. كانت أشجار التفاح تتبرعم والعشب ينمو. وساندي غدا صبيًا كبيرًا، حينما يحلّ عيد ميلاده المقبل سيبلغ الرابعة عشرة من عمره، وقد بدأ يصبح طويلًا وثقيلًا. قالت الخالة هاغر إنها ستبتاع له بنطالًا طويلًا في الصيف القادم. ووالدته بالكاد ستعرفه حينما ستراه مرة أخرى، هذا إن عادت إلى المنزل ثانيةً.

الليلة، في الداخل، حضرت الكثير من الأخوات المسنّات من المحفل، لدرجة أن ساندي لم يستطع التحدّث إلى جدّته بينما كانت مستلقية في سريرها. كنّ يدخلن ويخرجن باستمرار، يشربن القهوة في المطبخ، أو يثرثرن في الردهة. تمنّى لو يذهبن جميعًا، كان ليستطيع الاعتناء بجدّته بنفسه إلى أن تتحسن، هو والأخت جونسون، لم يكونا بحاجة حتى إلى تيمبي، التي شعر أنها لا ينبغي أن تحضر، لأنه لم يحبّها.

خرجت إليه ويلي ماي لتخبره بينما كان جالسًا بمفرده في البرد على حافة البئر: «إنهنّ يناديك في الداخل». صارت ويلي ماي أطول من ساندي الآن، وحصلت على عمل منتظم تعتني فيه بطفل سيدة بيضاء، لم تعد تضفر شعرها، وأصبحت تتزين وتحمل حقيبة يد جلدية كبيرة

على ذراعها مثل النساء. ويجيء الشبّان لاصطحابها إلى السينما في ليالي السبت. «يريدونك في الداخل».

نهض ساندي، ساقاه متيبّستان وخدرتان، ومضى إلى المطبخ.

امرأةٌ عجوز سمراء ترتدي ثوبًا حريريًا أسودَ يتلوى أثناء تحركها، فتحت باب غرفة نوم هاغر وهمست له بصوت عالٍ: «كن هادئًا يا بنيّ».

دخل ساندي بين صفّ من النساء المسنّات. نظرت إليه هاغر وابتسمت. بدا جليلًا ووقورًا للغاية.

سألته بنبرة واهنة: «هل يعتنون بك؟ ألم يحن وقت النوم يا عزيزي؟ هل تناولت شيئًا؟ تعال وقبّل جدّتك العجوز قبل أن تخلد إلى النوم. ستتحسّن في الصباح».

بدت كأنها لا تستطيع رفع رأسها، لذا جلس ساندي على السرير وقبّلها من دون أن يقول شيئًا سوى: «أنا بخير يا جدّتي»، لأنه لم يستطع التحدث في وجود الكثير من النساء المسنّات في الغرفة. ثم خرج إلى الغرفة الأخرى.

كان الهواء في المنزل خانقًا، وسرعان ما ترنّح الصبي نائمًا، ألقى بنفسه على السرير الذي كان لأنجي، وبعدها لدوغبيري، من دون أن يخلع شيئًا من ملابسه. قالت إحدى نساء المحفل في الغرفة: «من الأفضل أن تخلع ملابسك يا بنيّ، وتنام جيدًا». ثم التفتت إلى الأخوات الأخريات: «لنذهب إلى المطبخ جميعًا، ولْنتركْ هذا الطفل يخلد إلى الفراش».

أيقظته تيمبي في الصباح. سألته: «هل أنت واثق من صحّة عنوان أنجي الذي كتبتَه على الرسالة ليلة البارحة؟ يقولون في مكتب التلغراف إنهم لم يجدوا ذلك العنوان، لذا لم تُسلّم الرسالة. دعني أرى الرسالة».

عثر ساندي على الرسالة مجدّدًا وتأكّدا من صحة العنوان.

قالت تيمبي: «حسنًا، هذا غريب. أظنها أصبحت مهملة وغير مسؤولة مثل جيمبوي، فكتبا العنوان بشكل خاطئ، أو أنهما غيّرا مكان إقامتهما... أتعرف أين قد تكون هاريت؟ لا أظنك تعرف ذلك، لكن ظلّت والدتي تطلب حضورها طوال الليل، أظن أن علينا محاولة الوصول إليها، أينما كانت».

قال ساندي: «معي عنوانها، كتبته لي حينما كنت أعمل في الفندق هذا الشتاء، يمكنني إيجادها».

فقالت تيمبي: «إذن سأكتب لك ملاحظة، خذها إليها».

لذا مضى ساندي إلى المنزل الرماديّ الكبير في قاع المدينة هذا الصباح ليوصل رسالة تيمبي، قبل أن تنهض الفتيات هناك من أسرّتهنّ.

في عبر الأردن[1]

ذهبت نساء المحفل إلى أعمالهنّ في مطابخ ومطاعم ومغاسل المدينة العديدة خلال النهار. وتم استدعاء مدام دي كارتر إلى تولسا، أوكلاهوما، حيث هُدّدت منظمتها بالانقسام بسبب انتخابات كبار الضباط. كانت هاغر قد استرخت، بعدما زال الألم، لكنها ظلت واهنة للغاية.

قال لهم الطبيب: «إنها مسألة وقت فحسب. أعطوها الدواء حتى لا تقلق، لكنّ حالتها لن تتحسّن، لا يمكننا فعل شيء».

فكّر ساندي: «سوف تموت!».

جلست هاريت بجانب السرير ممسكة يد والدتها بينما انتشر نور شمس الظهيرة على غطاء السرير الأبيض. سعدت هاغر برؤية الفتاة مجدّدًا، لم تكنّ المرأة العجوز ضغينة لابنتها لأنها لم تعد تعيش في المنزل.

سألتها هاغر: «أأنت سعيدة يا صغيرتي؟» تبدين جميلة جدًا، ملابسك رائعة فعلًا، آمل أن تجدي ما تبحثين عنه في الحياة. أنت صغيرة يا عزيزتي، ويجب أن تكوني سعيدة... ساندي!»، نادته بصوت ضعيف بالكاد سمعه، على الرغم من أنه كان يقف عند رأس السرير، «ساندي، انظر في ذلك الدُّرج يا بنيّ، تحت أثواب النوم والأشياء، وأعطني ذلك الصندوق الصغير الذي ستراه في الزاوية».

---

(1) عبر الأردن هي المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن، وهو المكان الذي تعمّد فيه المسيح على يد يوحنا المعمدان، ويُعرف أيضاً باسم المغطس. (المترجم).

عثر الطفل عليه وأعطاها إياه، صندوق أبيض صغير من محلّ مجوهرات رخيصة، كان ملفوفًا بعناية في منديل ناعم. أخذته المرأة العجوز بلهفة وحاولت أن تمدّه إلى ابنتها. فكت هارييت المنديل وفتحت غطاء الصندوق، ثم رأت في داخله الساعة الذهبية الصغيرة التي أهدتها والدتها إياها في عيد ميلادها السادس عشر، والتي رهنتها قبل أشهر لتهرب مع طاقم الكرنفال. سرعان ما امتلأت عينا الفتاة بالدموع.

قالت لها هاغر: «دفعت رهنها من أجلك، لأنني أردتكِ أن تحصلي عليها يا صغيرتي. تعلمين أن أمّك اشترتها لك».

كانت ساعة صغيرة فعلًا! قديمة، مع دبوس صدر. سرعان ما وضعت هارييت منديلها على معصمها لتخفي الساعة الجديدة البراقة التي كانت ترتديها على سوار ذهبي.

ماتت هاغر في تلك الليلة.

جاء متعهّدو دفن الموتى بعربتهم عند الفجر، وأخذوا الجثة بعيدًا لتحنيطها. وقف ساندي في الشرفة الأمامية ناظرًا إلى نجمة الصباح، بينما تردّد صدى حوافر الخيول في الشارع. كان صبيٌّ أبيض نعِسٌ يقود عربة متعهّد دفن الموتى، وكان الحصان الذي يجرّها أبيض اللون.

بدأت النساء اللاتي كن يجلسن طوال الليل يعدن إلى منازلهن الآن لتحضير الإفطار لأزواجهنّ والاستعداد للذهاب إلى العمل بأنفسهن.

فكّر ساندي: «إنه يوم الأربعاء، من المفترض أن أذهب لأُحضر ملابس السيدة راينهارت، لكن جدّتي ماتت. أظن أنني لن أحضرها. لا يوجد من يغسلها».

دعته الأخت جونسون إلى المطبخ لشرب فنجان قهوة. كانت هارييت هناك تندب بهدوء. وكانت تيمبي في الداخل منهمكة في تنظيف الغرفة التي أخرجوا منها الجثة. وقد فتحت كل النوافذ لتهوية المنزل.

خفق الديك بجناحيه وصاح بصوتٍ عالٍ عند شروق الشمس في الفناء خارج المنزل. طقطقت النار، وأطلق غليان القهوة رائحة عطرة. فتحت الأخت جونسون علبة حليب مكثّف بضربها بواسطة سكين جزار. وضعت بعض الفناجين وأطباقها على المنضدة.

«تيمبي، ألن تتناولي شيئًا؟».

ردّت عليها مناديةً من غرفة نوم المرأة الميتة: «لا، شكرًا لك يا سيدة جونسون».

حينما أُرجعت الخالة هاغر إلى منزلها، كانت في صندوق طويل مغطى بالقطيفة السوداء. وضعوه على حامل قابل للطيّ بجانب النافذة في الغرفة الأمامية. كان هناك قماش كريب على الباب، أُبقيت الستائر مُسدلة، وتهامس الناس في المنزل كما لو كان أحدهم نائمًا. بدأ الأولاد في توصيل الزهور على درّاجات، وجاءت نساء المحفل للجلوس مرة أخرى ليلتها. حُدّد وقت الدفن، ونشرت صحيفة ديلي ليدر هذه الفقرة بأحرف صغيرة على صفحتها الخلفية:

هاغر ويليامز، غسّالة مسنّة ملوّنة تقطن في 419 شارع سيبرس، توفيت في منزلها ليلة البارحة. عرفتها العديد من عائلات البيض في المجتمع وكسبت احترامهم. لديها ثلاث بنات وحفيد.

حاولوا مرة أخرى الوصول إلى أنجي في ديترويت عبر برقية، لكن من دون جدوى. كان الجو باردًا وممطرًا بعد ظهر الجنازة، وعجّت الكنيسة المعمدانية الصغيرة بالناس. جاءت أخوات المحفل بملابسهنّ الرسمية الكاملة، حاملات رايات وشارات، وخرج الأخوان معهم. امتلأ نعش هاغر بالورود. العديد منها مصدرها العائلات التي غسلت هاغر ملابسها ومن الجيران البيض اللذين رعتهم في أثناء مرضهم. كانت هناك هِبات أيضًا من أصدقاء تيمبي المدّعين ورفيقات سكن هارييت في قاع المدينة.

أرسل العديد من حمّالي الأمتعة والعتّالين والمهربين أكاليل من الزهور وصلبان كُتب عليها بأحرف ذهبية: «في راحة يسوع»، «في عبر الأردن»، أو ببساطة: «إلى مسكنك». كانت هناك باقة بنفسج من والدة باستر ودثار من الورود أحضرته تيمبي نفسها. كان كل ذلك جميلًا، لكن بالنسبة لساندي، كان الشّذا مقززًا في الكنيسة الصغيرة القريبة.

ألقى القس المعمداني موعظته، وطلبت تيمبي من الأب هيل من كنيستها أن يلقي بضعة كلمات أيضًا. غنت الجوقة هل نلتقي في عبر النهر؟ ندب الناس وأُغمي عليهم. بدت القداديس بلا نهاية. ثم تحرّكتْ العربة إلى المقبرة تجرّها الخيول، مع بعض السيارات خلفها. عند البوابات العريضة وعبر المساحة الشاسعة من شواهد القبور، مرّ الموكب عبر المقبرة متجهًا إلى الركن البعيد المنعزل حيث رقد معظم الزنوج. هناك رأى ساندي القبر المفتوح. ثم رأى النعش ينزل إلى الأسفل... إلى الأسفل، إلى داخل الأرض.

وقف الولد على حافة القبر هادئًا بين خالته تيمبي وخالته هاربيت، بينما كانت تيمبي تحدقّ أمامها مباشرةً إلى المطر المتساقط، وبكت هاربيت، لترسم الدموع خطوطًا على خديها اللذين غطّتهما البودرة.

انتحبت هاربيت على الجثة في الصندوق الأسود الطويل: «لا بأس يا ماما، لن تشعري بالوحدة هنا، ستأتي هاري إليك كل يوم وتحضر لك الأزهار، لن تشعري بالوحدة يا ماما».

كانوا يهيلون التراب على التابوت، بينما كان المشيّعون يبتعدون وهم يعبرون الطين اللزج إلى عرباتهم. بدأت أخت عجوز عند القبر تغني في نغمة أحادية غريبة وعالية:

مظلمة كانت تلك الليلة،

باردة كانت الأرض...

انصرف آخرون، وبينما ابتعد المشيّعون بعرباتهم امتلأ الهواء بنحيبٍ خافتٍ لنساء مسنّات. كانت هاربيت ترتدي هدية هاغر، الساعة الذهبية الصغيرة، وقد ثبتتها تحت معطفها.

عندما عادوا إلى المنزل الذي عاشت فيه الخالة هاغر لزمن طويل، قالت الأخت جونسون إنّ ساعي البريد ترك رسالة تحت الباب موجّهة إلى المرأة الميتة بعد ظهر ذلك اليوم. كانت هاربيت على وشك أن تفتحها عندما أخذتها تيمبي منها. كانت من أنجي.

«أمي العزيزة»، بدأت بهذه العبارة.

انتقلنا إلى توليدو لأن جيمبوي ظنّ أنه سيكون في حالة أفضل هنا ولهذا لم أكتب إليك، وقد استغرقنا وقتًا طويلًا حتى استقرينا هنا. كنت عاطلة عن العمل، لكنّ كلينا لديه وظيفة الآن، وربما سأتمكن من إرسال بعض المال إليكِ قريبًا. آمل أن أمورك طيبة يا أمي، وبخير. قبّلي ساندي نيابةً عنّي واعتني بنفسك. مع محبة وبركات الله من ابنتك.

أنجي

قلبت تيمبي الرسالة على الفور وكتبت على ظهرها:

دفنّا والدتك اليوم. حاولت الوصول إليك في ديترويت لكنني لم أستطع ذلك، لأنك انتقلتِ من هناك وأهملتِ إرسال عنوانك الجديد إلينا. من المؤسف أنك لست هنا لتحضري الجنازة. سيبقى طفلك معي حتى يصلني ردّ.

تيمبي

ثم التفتت إلى الصبي الذي وقف في ذهول بجانب الأخت جونسون في المنزل القديم الصامت والمألوف. قالت له: «ستذهب معي إلى المنزل يا جيمس، سنقفل هذا المكان أولًا، حاولْ إغلاق كل النوافذ وأنا سأغلق الأبواب؛ ثم سنخرج إلى الأمام... سيدة جونسون، كانت مساعدتك لنا في مشكلاتنا لفتة طيبة. شكرًا لك».

مضت الأخت جونسون إلى منزلها، وتركت هاربيت في الردهة. عندما عاد ساندي وتيمبي بعدما أغلقا النوافذ والأبواب الخلفية، وَجَدا الفتاة ما تزال واقفة هناك، وتبادلت الشقيقتان النظرات في صمتٍ للحظة. قبل أن تقول تيمبي ببرود: «نحن ذاهبان».

خرجت هاربيت وحدها تحت رذاذ المطر. حرّكت تيمبي نوافذ الردهة لتتأكد أنها مغلقة بإحكام؛ ثم خرجت من الشرفة، أقفلت الباب ووضعت المفتاح في حقيبتها.

قالت: «هيا بنا».

نظر ساندي إلى طرفيّ الشارع، لكن كانت هاربيت قد اختفت في الشفق الكثيف من الضباب والمطر، لذا تبع خالته إلى سيارة الأجرة المنتظرة.

حينما انطلق صوت محرك سيارة الأجرة، أصابت الصبيّ قشعريرة لا إرادية.

سألته تيمبي، وقد تراخت قليلًا: «أتريد أن تمسك يدي؟».

قال ساندي: «لا». لذا ركبا السيارة بصمت.

منزل تيمبي

«جيمس، عليك الاستيقاظ في الوقت المحدد في هذا المنزل، الفطور جاهز منذ عشرين دقيقة، لا أستطيع الصعود إلى الطابق العلوي كل صباح لأناديك، أنت كبير بما يكفي لتستيقظ بنفسك، ولا بد أنك تعلم ما عليك فعله، لا يجب أن تظلّ مستلقيًا في الفراش، لأن عليك المشي مسافة بعيدة إلى المدرسة».

نهض ساندي من الفراش مترنحًا. غادرت تيمبي الغرفة لتمنحه الحرية في ارتداء ملابسه، وسرعان ما نزل إلى الطابق السفليّ لتناول الإفطار.

لم تكن لديه غرفة خاصة به من قبل، لم ينم وحده في غرفة حتى، لكن خالته منحته هنا حجرة صغيرة في الطابق الثاني، لها نافذة مطلة على فناء خلفي مرتّب، حيث هناك ممشى من الطوب يمتدّ إلى البوابة الخلفية. الغرفة التي النظيفة جدًا احتوت على سرير وكرسيّ وخزانة. كان فيها أيضًا زاوية صغيرة لتعليق الملابس، إلّا أن ساندي لم يكن لديه ما يضعه فيها.

أكثر ما أثار إعجابه في الطابق الثاني كان الحمّام، لم يسبق له العيش في منزل توجد به مياه جارية، وفي هذا الحمّام أيضًا، كان كل شيء نظيفًا للغاية لدرجة أن ساندي كان يخشى التحرك، خشية أن يبعثر شيئًا أو يلطّخ الجدار بالماء.

عندما نزل إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار؛ وجد الطاولة التي توسّطها طبق «الغريب فروت» قد جُهّزت لشخصين، السيد سيليز -بسبب عمله في دائرة بريد السكك الحديدية- كان قد خرج في رحلة. خطا ساندي بحياء إلى مكانه المقابل للمرأة ذات البشرة السمراء الداكنة التي أصبحت

وصية عليه بعد موت جدّته. أحْنتْ رأسها لقول صلاة طعام قصيرة؛ ثم أكلا.

سألته تيمبي عندما أوشكا على الانتهاء من تناول وجبتهما: «هل أنت معتاد على شرب الحليب في الصباح؟ إن كنتَ معتادًا على ذلك يمكن لبائع الحليب أن يترك لنا زجاجة أخرى. على الشبّان تناول الكثير من الحليب».

«نعم يا سيدتي، أودّ ذلك، لكننا لم نكن نشرب سوى القهوة في المنزل».

«لا يتوجب عليك قول (نعم يا سيدتي) في هذا المنزل، لسنا معتادين على ألفاظ العبودية في أحاديثنا هنا. إن كنت تحبّ الحليب فسأحضره لك... قل لي، ما هو وضع ملابسك؟ أرى ثقبًا في جوربك، وإحدى فردتيّ بنطالك متدلّية».

«لا يمكن تثبيتها».

«لا يمكن تثبيتها يا جيمس! سأشتري لك بنطالًا غدًا. ماذا تحتاج أيضًا؟».

أخبرها ساندي، وأخذته بعد بضعة أيام إلى محل ويرثيمر، أكبر متجر في المدينة، واشترت له كل ما يلزمه من ملابس. وفي أثناء تسوقهما أخبرته أنها المرأة الملونة الوحيدة في المدينة التي تشتري من ذاك المتجر.

«أريد أن يعرف البيض أن الزنوج لديهم ذوق؛ لهذا لا أشتري سوى من المتاجر الراقية. وإن كنت ستعيش معي فعليك تعلّم كيفية التصرف بشكل صحيح أيضًا».

قالت أنجي في رسالتها الباكية التي أرسلتها حينما علمت بوفاة والدتها؛ إن توليدو مكان يصعب الحصول فيه على وظيفة، وأنها لا تملك من النقود ما يكفي لترسل ثمن تذكرة القطار لساندي، لكنها ستحاول

إرسال المال بأسرع ما يمكن. كان جيمبوي يعمل على سفينة بخارية في بحيرة، ونادرًا ما يحضر إلى المنزل، ولا تستطيع استقبال ساندي على أي حال حتى يحصلوا على مسكن أفضل؛ لذا هل تستطيع تيمبي أن تبقيه معها قليلًا؟

قالت تيمبي في ردّها إنه لو فكرت أنجي بمنطقية قليلًا لتركت ساندي في سانتون، حيث يمكنه الحصول على تعليم جيد، وتجنّب اتباع والده عديم النفع في جميع أنحاء البلاد. لم يكن لديها والسيد سيليز أطفال، وبدا ساندي طفلًا هادئًا، لطيفًا، ذكيًا في دراسته. احتاج الملونون إلى تشجيع المواهب ليدرك العِرق الأبيض أن الزنوج ليسوا كلهم مجرد عازفي غيتار وخادمات في المنازل. ويمكن لساندي أن يصبح مفخرة إن تمّت تربيته بشكل صحيح. بالطبع، علمت تيمبي أنه لم يبدأ في بيئة ملائمة لذلك، فقد عاش مع جيمبوي وهاربيت وذهب إلى الكنيسة المعمدانية، لكن مما لا شك فيه أنه يمكن تدريبه. كان يافعًا. «وأظن أن بقاء الصبي معنا هو الخيار الصحيح يا أنجي، أنتِ بالتأكيد لستِ الشخص الذي ستربّيه كما ينبغي». وقعت الرسالة بعبارة: «أختك، تيمبي»، وكتبتها على الأصول بالقلم الحبر.

لذا جاء ساندي للعيش مع السيد والسيدة أركينز سيليز، لأن هذا هو الاسم الذي عُرفت به خالته وزوجها في مجتمع الزنوج في المدينة. كان السيد سيليز موظّف بريد في السكك الحديدية، وهو منصب اعتبره الملونون مرموقًا، لأنك تعمل لدى «العم سام». كان رجلًا ذا بشرة صمغية اللون في الثامنة والأربعين من عمره، ورث عن أبيه ثلاثة منازل.

تيمبي -حينما تزوجت- امتلكت منازلَ أيضًا، أحدها أوصت به لها سيدتها بار غرانت، التي عملت لديها لسنوات كخادمة شخصية. حصلت على وظيفتها بينما كانت لا تزال في المدرسة الثانوية، والسيدة بار غرانت التي سافرت كثيرًا دفاعًا عن حق المرأة في التصويت ومنع الخمور؛ كانت

تصطحب تيمبي شرقًا معها. سمحت للخادمة الملوّنة أن تتولى مسؤولية منزلها عندما رجعتا إلى سانتون، حيث وظّفت طاهية وخادمة. وهكذا تفرغت السيدة لكتابة الكراسات وتحضير المحاضرات حول مختلف شرور العالم التي تحتاج إلى إصلاح.

أسعدت تيمبي السيدة بار غرانت بسرعتها ودقتها في طاعة الأوامر، وبإظهارها تأليهًا لذكائها البيوريتاني. ألّهت تيمبي سيدتها في الحقيقة، فقد أصبحت الفتاة الملوّنة خبيرة في تدبير المنزل من خلال اتباعها توجيهات السيدة بار غرانت بسرعة؛ واكتسبت فيضًا لغويًا دقيقًا بمحاكاتها لأسلوبها في التخاطب؛ وأصبحت مهتمة بأشياء لم تفكر فيها معظم الفتيات الزنجيات. قالت السيدة لخادمتها مرات عديدة: «أنت ذكية جدًا، عاملة صغيرة جيدة ونظيفة وسريعة يا تيمبي، من المؤسف للغاية أنك لستِ بيضاء». وقد ترك هذا القول أثره عميقًا في قلب تيمبي، ليس كإهانة، بل كإطراء.

حينما ماتت السيدة البيضاء تركتْ أحد منازلها الصغيرة لخادمتها كعربون تقدير لخدماتها المخلصة. واستطاعت تيمبي -بفضل ادّخارها وإقامتها مع سيدتها من دون أن تتحمل نفقات معيشية- أن تشتري منزلًا آخر أيضًا. حينما طلب السيد سيليز منها أن تصبح زوجة له، قال الجميع إنه زواج مناسب، لامتلاك كلّ منهما عقارات، ولأن كليهما كان كبيرًا بما يكفي لمعرفة ما يريد، وكلاهما حظيَ باحترام كبير... فنجحا معًا.

توقفت تيمبي عن العمل، لكنها بقيت في المنزل، تولّت شؤونه، ولم تكن تخرج إلا مرة كل شهر لتحصيل إيجارات عقاراتها وعقارات زوجها. كانت لديها امرأة تغسل الملابس وتساعدها في التنظيف، لكن تيمبي نفسها كانت تطبخ، وقد كانت كل وجباتها نموذجًا للتدبير الاقتصادي. فتحضر في كل وجبة ما يكفي ثلاثة أشخاص تمامًا. لم يتناول ساندي

وجبة ثالثة من الحلوى في منزلها قَطّ. ولم تفُحْ رائحة اللوبياء وذيول الخنازير من أوعية كبيرة في بهوها الأمامي أيضًا. حصلت على وصفاتها من مجلة منزل السيدات، ولم تشتر بطيخًا مطلقًا.

كان البيض يرسمون دائمًا أشخاصًا ملونين يحملون شرائح ضخمة من البطيخ في أيديهم. حسنًا، كانت امرأة ملوّنة لا تحبّه! كانت فاكهتها المفضّلة اليوسفي والـ(غريب فروت)، لأن السيدة بار غرانت كانت تأكلهما دائمًا، وقد أُعجبت تيمبي بالسيدة بار غرانت أكثر من أي شخص آخر، وأكثر، بالطبع، من إعجابها بالخالة هاغر التي كانت تُمضي نهارها عند حوض الغسيل، وكانت تحبّ البطيخ.

رأت تيمبي أنّ الملونين بحاجة إلى الارتقاء في هذا العالم، للوصول إلى مستوى البيض، عليهم أن يلبسوا مثل البيض، وأن يتحدّثوا مثل البيض، وأن يفكروا مثل البيض، وعندها لن يُطلق عليهم «زنوج».

كان هذا الشعور في أعماق تيمبي ردّ فعل عاطفي، تولّد من إعجابها بالبيض، ولكن في أعماق السيد سيليز، الذي شارك زوجته وجْهات نظرها، تولّد الموقف نفسه من التفكير العملي. امتلك البيض المال، وإن أراد الزنوج المال، فعليهم أن يسرعوا في تعلّم أن يكونوا مثل البيض، وسيكون ذلك أفضل. وعليهم أن يكفّوا عن التكاسل والغناء طوال الوقت، وحضور اجتماعات الإحياء، وعليهم تعلّم كيف يجنون الدولار، لأن المال يشتري كل شيء، حتى احترام البيض.

كرهت تيمبي وزوجها موسيقى البلوز والروحانيات، لأنها كانت زنجية للغاية. لم يجرؤ ساندي على غناء كلمة من (انزلي إليّ أيتها العربة الجميلة)، فما علاقة أغاني العبودية الزنجية بالناس المحترمين؟ وأغاني الراغتايم يؤدّيها الخطّاؤون في قاع المدينة. (كانت المفارقة الغريبة والمضحكة أن قاع المدينة هو القسم الوحيد من سانتون حيث يختلط

الزنوج والبيض بحرّية على قدم المساواة). هذا الجزء من المدينة - بحسب ما قالته تيمبي- ضلّ طريقه إلى الله، ودفنت حقيقة أن لديها شقيقة تعيش هناك كسرطان مخفيّ في صدرها. لم تذكر هارييت أمام أحد.

كان أصدقاء تيمبي جميعهم من ذوي المكانة في العالم الداكن؛ أطباء، معلّمين، طبيب أسنان، محامي، مصفّفة شعر. وقد أمضت وقتها مع هؤلاء الأصدقاء كما كانت السيدة بار غرانت تمضي وقتها مع مجموعة مماثلة من أبناء العرق الأبيض. كان لدى الكثير منهم أمّهات تعملْنَ غسّالات، وآباء يشتغلون كعمّال باليومية؛ لكنهم لم يتطرقوا إلى ذلك قَطّ. وفي أثناء حياة الخالة هاغر، كانت تيمبي - بعدما حصلت على مكانتها لدى السيدة بار غرانت- نادرًا ما تُرى رفقة السيدة العجوز.

حتى أنها شعرت بخجل أكبر من صِلاتها العائلية بعد زواجها؛ أخت صغيرة هاربة، وأخت أخرى تزوّجت بدافع الحب، لم تستطع تيمبي أن تطيق جيمبوي، أو أن تفهم ما الذي جذب أنجي إلى متسكع قادم من الجنوب. إلا أن حديث المرء عن عائلته على أي حال لم يكن شائعًا في الأوساط المرموقة، لأن كثيرًا من أفراد مجتمع سانتون الأسمر يعود نسبهم إلى أشجار عائلة متواضعة ومجتمعات سوداء وضيعة.

قالت زوجة الطبيب ميتشل ذات مرة: «لكن بالعودة إلى واشنطن، حيث ولدتُ، كلّنا لدينا نسب! ينحدر أفضل الناس في العاصمة من أصل معروف؛ السيناتور بروس، جون إم. لانغستون، المحافظ بينشباك، فريدرك دوغلاس. إحدى عائلاتنا الملوّنة يرجع أصل جانبها الأبيض في نسبهم إلى جورج واشنطن! نعم، كلنا معروف نسبنا! لكن بالطبع نحن أرقى من أن نتفاخر بذلك».

فكّرت تيمبي في والدتها حينها، وتمنّت ألا ترتدي الخالة هاغر السمراء مئزرَها دائمًا في الشوارع، في الجزء العلوي من المدينة وفي كل مكان! بالطبع كان مئزرها نظيفًا وأبيضَ، وبدا لائقًا بالنسبة إلى السيدة العجوز، لكن المآزر لا يرتديها نخبة الناس.

عندما كانت تيمبي في المستشفى لتجري عملية جراحية بعد زواجها بفترة قصيرة، لم يسمحوا لهاغر بالدخول من الباب الأمامي، ولم تعرف تيمبي أبدًا إن كان ذلك بسبب لون بشرتها أو المئزر! كان المستشفى المشيخي متحيزًا ضد الزنوج ولم يحبّذ استخدامهم المصعد، لكن بالتأكيد لم يكن من المفترض أن تأتي والدتها إلى هناك مرتديةً المئزر!

حسنًا، رأت تيمبي أن نية الخالة هاغر حسنة، حتى لو لم تكن ترتدي ملابسَ لائقة. وهذا الطفل، ساندي، كان اسمه الصحيح جيمس. في أول إفطار يتناولانه معًا سألتْه إن كان لديه مشط وفرشاة خاصّين به.

قال ساندي: «لا يا سيدتي، لست كذلك».

«لا، ليس لديّ»، صحّحت له. «بالتأكيد لا أريد أن يسمعك الجيران البيض تقول (لستُ كذلك)... جئت للعيش معي وعليكَ التحدّث كرجل محترم».

رف كتب

في ذلك الربيع، بعد فترة وجيزة من ذهاب ساندي ليقيم مع تيمبي، كان هناك وباء نكافٍ منتشر بين تلاميذ المدارس في سانتون، وفي سنّه ذاك كان من بين ضحاياه الأوائل. مع تورّم فكيه ووَضع إشارة النكاف الحمراء على المنزل؛ كان مجبرًا على البقاء في المنزل لمدة ثلاثة أسابيع، عندها بدأ الصبي في قراءة كتب غير تلك التي كان عليه دراستها. لم يكن هناك كتب في منزل الخالة هاغر على أي حال، باستثناء الكتاب المقدّس وبضع قصص خيالية أُهديت إليه في عيد الميلاد؛ لكن تيمبي امتلكت خزانة مليئة بالمجلّدات المغبرة التي استُخدمت لتضفي الرفعة على غرفة جلوسها: صفّ من الكلاسيكيات الإنكليزية المجلّدة بلون أحمر، موسوعة المعارف العالمية في اثني عشر مجلدًا، كتاب عن الطبّ المنزلي مليء برسومات غريبة، وبعض الروايات الحديثة، الراعي الصغير للملكوت القادم، آخر روايات هارولد بيل رايت، وكل مؤلفات جين ستراتون بورتر كاتبة تيمبي المفضّلة. ومثّل الزنوج رواية المنزل خلف الأرز لشيستنات، والقصائد الكاملة لبول لورانس دنبار الذي تحمّلته تيمبي بسبب شهرته، لكنها أدانته لكتابته الكثير من أعماله باللهجة المحكية، وكذلك عن الطبقات الدنيا من الملونين في أحيان كثيرة. اشتركت تيمبي بمجلة هاربر أيضًا، لأن السيدة بار غرانت كانت تأخذها. وكان هناك أيضًا كومة من مجلّة الأزمة في خزانة غرفة الخياطة الخاصة بها، المجلة الشهرية الرقيقة الموجّهة إلى الزنوج، والتي اعتادت جمع أعدادها منذ بداية نشرها.

كان قد سمع عن تلك المجلة، لكنه لم يرَ نسخة منها قَطّ؛ لذا قرأ كل أعدادها، وهو ينظر إلى صور الزنوج البارزين ويقرأ عن النشاط العِرقيّ في جميع أنحاء البلاد، وعن الانتهاكات العنصرية في الجنوب. ووجد في كل عدد أيضًا مقالات افتتاحية مؤثرة ومكتوبة بشكل جميل عن رغبات العرق الأسود المحبَطة، والجمال الخفي في الروح الزنجية. كتبها رجل يُدعى دو بويز.

قالت تيمبي: «الدكتور ويليام إدوارد بورغاردت دو بويز، وهو رجل عظيم».

سألها ساندي: «في مثل عظمة بوكر تي. واشنطن؟».

«تعليم السود أن يكونوا خدمًا، هذا كل ما فعله واشنطن!» أطلقت تيمبي صوتًا لاذعًا كالشخير بنبرة جعلت ساندي يصمت. «يدافع دو بويز عن حقوقنا. يريدنا أن نصبح رجالًا ونساءً حقيقيين. يؤمن بالمساواة الاجتماعية. لكن واشنطن...!» كانت لعنة واشنطن في نظر تيمبي هي أنه أسّس مدرسة صناعية، فقد كان هناك عدد كافٍ من العمّال الملونين بالفعل. لكن دو بويز كان دكتورًا في الفلسفة ودرس في أوروبا!... هذا ما وجب على الزنوج فعله، أن يزدادوا ذكاءً، أن يقرؤوا الكتب، وأن يذهبوا إلى أوروبا! «لا تحدّثني عن واشنطن»، تابعت تيمبي بلهجة غامضة. «خذ دو بويز قدوة لك، وليس أحد زنوج البيض».

«حسنًا، قالت الخالة هاغر...» ثم توقف ساندي. رأت جدّته أن (بوكر تي) كان أعظم الرجال، لكنها ربما كانت مخطئة. على أي حال دو بويز هذا يكتب بشكل رائع! يا إلهي، يجعلك تتحرق شوقًا إلى قراءة ما كتبه عن الإعدام من دون محاكمة. إلّا أن ساندي لم يذكر اسم بوكر واشنطن مرة أخرى أمام تيمبي، على الرغم من أنه بعد أشهر قرأ كتابه المعنون (القيام من العبودية)، وكان متأكدًا أن الخالة هاغر لم تكن مخطئة. قال في قرارة نفسه: «أظن أن كليهما عظيم».

توسّع مجال قراءة ساندي أيضًا، عندما وجدت خالته وظيفة له في ذلك الشتاء لدى متجر السيد برنتيس لبطاقات الهدايا والطباعة، حيث حافظ على نظافة المكان وعمل كصبيّ توصيل. احتفظ هذا المتجر برفّ للروايات المعاصرة وبعض مجلّدات الشعر الجديد؛ ساندبرغ، ليندسي، ماسترز... الذي كانت تقرؤه شابّات نادي سانتون، مما خلف رعبًا صادمًا لدى السيدات البيض المسنّات في المدينة. عرف ساندي ذلك من ابنة السيد برنتيس، الطالبة في جامعة غوتشر، التي اعتادت الاهتمام بالمتجر، ودلّت الصبي على مجلدات ليقرأها، وأخبرته مَن هم مؤلّفوها، والأفكار التي تحملها الكتب. قالت إن لا أحد من الأولاد الملونين الذين وظّفوهم قبل ذلك كان مهتمًا بالقراءة؛ لذا كثيرًا ما أعارته -على سبيل التشجيع- نسخًا قديمة ليأخذها معه إلى المنزل ليلًا ويعيدها في اليوم التالي. وهكذا أمضى ساندي سنته الأولى مع تيمبي غارقًا في روايات كانت ناضجة جدًا بالنسبة إلى صبي في الرابعة عشر من عمره. لكن تيمبي كانت فخورة جدًا بابن اختها الشاب المجتهد. بدأت ترى أن إبقائه معها لم يكن خطأً، وحينما التحق بالمدرسة الثانوية اشترت له أول بدلة مع بنطال طويل تحفيزًا له على التعلّم أكثر.

طالت قامة ساندي أسبوعًا تلو الآخر، وبدا لتيمبي كما لو أن أكمام قميصه أصبحت قصيرة جدًا عليه بين عشية وضحاها. كان صوته يتغير أيضًا، وبدأ يحب كرة القدم، إلا أن عمله بعد المدرسة في محل برنتيس منعه من اللعب كثيرًا. كان يقرأ ليلًا، أو يذهب إلى السينما مع باستر في بعض الأحيان، لكن تيمبي أبقته في المنزل قدر استطاعتها. قابلَ من حين إلى آخر ويلي ماي، التي كانت تلازم الطاهية الثانية في فندق رايت، وقابلَ في بعض الأحيان جيمي لاين، الذي صار حمّالَ أمتعةٍ ويتسكع مع ثلة من المتأنقين في الغرفة الخلفية لصالة كادج وينزدور للبلياردو. لكن كلما ذهب ساندي إلى حيّه القديم كان يشعر بالحزن، يتذكر الخالة هاغر

وأمه، وجيمبوي، وهاريت التي رحلت عن سانتون هي الأخرى، وآخر ما سمعه عنها هو أقاويل عن صعودها إلى المسرح في كانساس سيتي. المنزل الصغير الذي كان يعيش فيه ساندي مع جدّته صار الآن لتيمبي، التي أجّرته لعائلة غريبة.

كان ساندي يأخذ في المدرسة الثانوية المقرر الدراسي الكلاسيكي، وذلك بناءً على طلب خالته، والذي تضمّن اللغة اللاتينية، التاريخ القديم، والإنكليزية التي تطلبت قدرًا كبيرًا من القراءة. كانت معلمة اللغة الإنكليزية امرأة ضخمة مسترجلة تُدعى مارثا فراي، ذهبت إلى أوروبا من قبل، وأحبّت التحدث عن روائع إنكلترا القديمة والقراءة بصوت عالٍ عميق وذكوري، معبّرة عن الكلمات المطبوعة بطريقة مسرحية. منها تعرّف ساندي على شكسبير، حيث درسوا في الفصل الربيعي تاجر البندقية. في الربيع أيضًا، وتحت إشراف الآنسة فراي، طُلب من تلاميذ السنة الأولى كتابة مقال لجوائز مقالات الطلاب المستجدين التي تضمنت المال والميداليات. وفاز ساندي بالجائزة الثانية في هذه المسابقة. كانت هذه أول مرة في تاريخ المدرسة يفوز فيها تلميذ من أصحاب البشرة الملوّنة بأي شيء من هذا القبيل، وابتهجت تيمبي لذلك كثيرًا. كان هناك خبرٌ في الصحف عن الجائزة، وأحضر ساندي الخمسة دولارات التي كسبها إلى خالته لتدّخرها. لكنه أهدى ميداليته البرونزية لفتاة تُدعى بانسيتا يونغ كانت زميلته في الفصل وصديقة جديدة.

منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها بانسيتا في المدرسة أدركَ أنه أُعجب بها، وكان يجلس لساعات ينظر إليها في كل فصل دراسي يُمضيانه معًا، لأنها كانت فتاة ناعمة، فتاة تشبه الدمية، بعينين سوداوين كبيرتين وبشرة بنية مائلة إلى الوردي، وكان شعرها مجعدًا فوق رأسها. عملت والدتها الأرملة طاهية في قاعة طعام جامعة غوتشر؛ وكانت فتاة صغيرة وحيدة، حيث لم يكن لبانسيتا إخوة أو أخوات. بدأ ساندي يمشي معها جزءًا من

طريقها إلى المنزل كل يوم بعد عيد الشكر. لم يستطع مرافقتها طوال الطريق لأنه اضطر إلى الذهاب إلى العمل في محل السيد برنتيس. لكنه اشترى لها علبة حلوى في عيد الميلاد وأرسلها إليها بالبريد. وأعطته بيضة شوكولاتة في عيد الفصح.

«لديك فتاة الآن، أليس كذلك؟»، مازحه باستر بعد ظهر أحد أيام أبريل عندما وجد ساندي واقفًا أمام المدرسة الثانوية في انتظار خروج بانسيتا.

فقال ساندي: «اغرب عن وجهي!»، لأن باستر كان يتحدث بطريقة قذرة عن الفتيات، وخشي ساندي أن يفعل ذلك مع بانسيتا؛ لكن صديقه يومها غيّر الموضوع بدلًا من ذلك.

«تعال إلى صالة البلياردو الليلة، وسأعلّمك كيف تلعب».

ردّ عليه ساندي وهو يهز رأسه: «لا أعتقد أنني يجب أن أفعل ذلك يا باس. قد يُغضب ذلك الخالة تيمبي. إضافة إلى ذلك عليّ أن أدرس».

سأله باستر ساخطًا: «هل ستجهد نفسك بالقراءة حتى الموت؟ عليك أن تخرج لبعض الوقت يا رجل! قل لها إنك ستذهب إلى السينما وسنمضي إلى صالة كادج بدلًا من ذلك».

فكّر ساندي للحظة.

«يجتمع كل الشبّان هناك ليلًا».

«حسنًا، ربما أذهب».

حاول باستر استفزازه: «صبيّ المريلة الصغير!».

«إن ضربتُك ستكتشف أنني لست كذلك!»، ضمّ ساندي قبضتيه متظاهرًا بالغضب «سأزرّق عينيك!».

«حقًا؟»، صاح صديقه، وهو يركض إلى أعلى الشارع. «أراك مساءً في صالة كادج، يا صبي المريلة الصغير!».

ولم ينته ساندي ليلتها من قراءة (موبي ديك) كما كان قد خطّط، موبي ديك التي أعارتها له ابنة السيد برنتيس، بدلًا من ذلك تدرّب على استخدام عصا البلياردو تحت توجيهات باستر.

صالة بلياردو

لم تكن هناك مراكز مجتمعية في سانتون ولا مراكز ترفيهية للشباب، باستثناء جمعية الشبّان المسيحيين التي ستوصد أبوابها في وجهك إن لم تكن شابًا أبيض؛ لذا، بالنسبة إلى الشبان الزنوج في المدينة، كانت صالة كادج ويندزور للبلياردو هي ملتقاهم الليلي. هناك أمكن للمرء لعب البلياردو، لعب القمار في الغرفة الخلفية، أو الجلوس على مقعدين طويلين في الخارج خلال الصيف، للتحدّث والنظر إلى الفتيات المارات. ظلّ هذان المقعدان مزدحمان طوال الوقت ما دام الطقس جيدًا.

كانت غرفة غداء كادج ويندزور بجوار صالة البلياردو. بالطبع لم تحتضن صالة كادج نخبة أصحاب البشرة الملوّنة، على الرغم من أنها لم تكن في قاع المدينة. كانت تقع في شارع بيرل، على بعد ثلاثة أو أربعة مربعات سكنية قبل انحدار الطرق عبر التضاريس المنخفضة حيث ترنّ نغمات البيانو وتقدّم السيدات حبّهن لقاء المال. لكن نظرًا إلى أن كادج كان يلبّي ما سمّاه السيد سيليز «الجوهر الرخيص»، فقد ابتعد نخبة الناس عنه.

بعد شهور من الانغماس في الكتب والخضوع لخطط تيمبي الأولية لتطويره، وجد ساندي في صالة البلياردو مكانًا سهلًا وممتعًا لتزجية الوقت. كانت أفضل من السينما، حيث لم يكن الناس على الشاشة سوى ظلالًا. وكانت أفضل بكثير من الكنيسة الأسقفية، مع كاهنها ذي الأكتاف المنحنية، فالجميع هنا في صالة كادج ينبضون بالحياة، والفتيات اللواتي يمررن أمامها مؤرجحات أذرعهن ومبتسمات للرجال؛ كنّ على قيد الحياة وضحوكات، بينما لعب الشبّان القمار في الغرفة الخلفية، أو البلياردو على

الطاولات بصوتٍ عالٍ وخالٍ من الهمّ. وقد حملوا الحياة بكل سهولة على أكتافهم القوية.

غالبًا ما نزل المغامرون والمتشردون الذين مروا على سانتون عبر طريقها الرئيسي إلى صالة كادج من أجل اللعب أو الحصول على لقمة طعام، وأمتع الشبّان السود المتهورون، البعيدون عن ديارهم، سكّانَ المدينة بحكاياتهم عن الطريق، أو الرحلات في البولمانات ذات الأبواب الجانبية، وعن مدن بعيدة حيث الأمور سهلة والنساء سخيات. كان لديهم أغنية تقول:

أوه! الفتيات في تكساس،
لسن قاسيات أبدًا.
يطعمن رجالهنّ
ويشترين لهم الجن والنبيذ.
لكن النساء في سانتون،
قلوبهنّ قاسية وباردة،
إن توقفتَ عن العمل،
فهنّ يحرمنك من حبّهن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم في أحيان كثيرة تبدأ الجدالات؛ التباهي، الأخذ والرد، أو رواية المآثر بالأسلحة والسكاكين والأمواس، مع رجال الشرطة والمحققين، مع النساء الآثمات والرجال الأشرار؛ يتفاخرون ويتكاذبون فيما بينهم، وهم يتحدثون جميعًا في وقت واحد. أحدثوا أحيانًا جلبة أمكنَ سماعها على بعد مربّعات سكنية. بدوا وكأنهم طوال الوقت على وشك الشجار بالنسبة إلى المبتدئين. لكن في الحقيقة كان كل شيء لطيفًا وودودًا، ومرت كل الأمور بضحك. مهما كان حديثهم عدائيًا وبذيئًا، أو مهما كانت دناءة

القصص التي يروونها عن المتع الخطرة وأنواع الشذوذ الغريبة؛ ظل أولئك الرجال السود يضحكون. «لا بد أن ذلك كان السبب» قال ساندي في قرارة نفسه، في أنّ السود العجائز المبتلين بالفقر مثل العم دان غيفنز يعيشون مديدًا، فبالنسبة إليهم مهما كانت قسوة الحياة فهي لا تخلو من ضحك.

كان كادج وينزدور يقول: «إن العم دان بطل العالم في الكذب»، وكان الدفق اللامتناهي من الذكريات الرائعة للرجل العجوز الظريف؛ ممتعًا بما يكفي ليحصل على وجبة منتظمة في غرفة الغداء في صالة كادج، أو ليحتسي شرابًا على حساب زبائن صالة البلياردو، والذين أحبّوا دفع الرجل العجوز إلى الحديث.

عندما ذهبت تيمبي لحضور مؤتمر لنوادي النساء الملونات في الغرب الأوسط في إحدى أمسيات شهر أغسطس؛ جلس ساندي وباستر والعم دان وجيمي لاين وجاب لوغان حتى وقت متأخر أمام صالة البلياردو يتفرّجون على الفتيات المارات. مرّت فتاة زنجية فاتحة البشرة تلبس ثوبًا رقيقًا رائعًا من قماش الفوال المزهر، ناشرةً رائحة البودرة والعطر خلفها.

«يا روحي!»، صاح جيمي لاين. «أعطني عظمة ودعيني أصير كلبك.. أقصد رجلك!»، لكن الفتاة التي تظاهرت بأنها لم تسمع، سارت على مهل، وتبعها قطار من الإطراءات من مقعدي صالة البلياردو.

صاح فتى هزيل طويل القامة، وهو يحدّق فيها بشوق: «يا آلهتي فينوس!».

صرخ جاب: «إن كانت الملائكة هكذا، فدعوني أذهب إلى الجنة، وإن لم تكن كذلك، فدعوني أتوه في المجد!».

سأل العم دان، متكئًا على عكّازه ليقاطع التعليقات: «اخرس يا جاب! ماذا تعرف عن النساء؟ كلكم هنا، ألستم صغارًا جدًا على التحدث عن النساء! اخرسوا جميعًا! لا أحد منكم تجاوز السابعة عشر من عمره، لكن

حينما كنتُ في مثل سنّكم... يا رباه! أتعرفون ماذا كانوا يلقبونني حينما كنت في مثل سنّكم؟»، استعدّ الرجل العجوز لحكايته «كانوا يلقبونني (الزنجي الفحل)! أجل، هذا صحيح! لأنني في زمن العبودية حينما كنتُ أعمل؛ كنتُ أنجب الصغار لبيعهم!».

قال جاب: «هذه كذبة أخرى!».

«لا، ليس كذبًا يا ولد! اسمع ما سأحكيه، كنت الزنجي الوحيد الذي يتمتع بصحة جيدة فعلًا في مزرعة الناس البيض الذين عملت لديهم، وكانوا أولئك البيض المساكين لا يمكنهم تحمّل تكلفة شراء الكثير من العبيد، لذا فكروا في تربية الكثير من الأطفال الزنوج وبيعهم لاحقًا، لهذا جعلوني مستولدًا... هيه! هيه!... وأنجبت العديد من الأطفال السود أيضًا بالتأكيد! كنتُ شابًا حينها، مثلكم جميعًا، ولم يكن لديّ أي إحساس وأنا أنام مع النساء طوال الليل، كلّ ليلة».

قال جيمي متشدقًا: «نعم، نحن نصدّقك».

«لم يمض الكثير من الوقت حتى امتلأ الفناء بالأطفال الخلاسيين والأطفال السود والأطفال الحمر والأطفال من كل نوع، الذين كانوا يركضون وينادونني أبي... وها أنا اليوم سأبلغ الثلاثة والتسعين من عمري وقد عشتُ كل ذلك. نعم، عشتُ كل ما استطعت عيشه وأنا أتابع ما بعد الحرب، لأننا نحن الزنوج تفرّقنا حالما تحرّرنا بالتأكيد! أجل! لكنني صرتُ أبًا لثمانية وأربعين طفلًا قبل انتهاء الحرب، وثلاثة وثلاثون منهم كانوا أولادًا!».

ضحك جيمي: «تأكّدت أنك تكذب الآن أيها العم دان».

«لا، لستُ أكذب يا سيدي! هيه! هيه!... كنت عظيمًا حينما كنتُ شابًا! أجل يا سيدي!»، تابع العجوز من دون هوادة: «ذهبت متسللًا إلى حفلة ذات ليلة برفقة فتى مجنون، ذهبنا إلى مزرعة العجوز (ليرد) في

مقاطعة ماكون، الذي كان عدوًا لدودًا لأسيادنا البيض. هل أخبرتكم عن ذلك؟ أخذنا أحد أفضل أحصنة السيد العجوز من الحظيرة لنركبه، بعد ما خلد إلى سريره... حسنًا يا سيدي! كان الوقت متأخرًا حينما انطلقنا، وامتطينا ذلك الحصان على الفور صعودًا ونزولًا، عبر الجدول والطاحونة، جلستُ وصديقي، كلانا على ظهره، اجتزنا أجمة القصب وصعدنا تلة أخرى، حتى ظهر الزبد على فم الحصان كما لو أنه على وشك السقوط. حينما وصلنا إلى الحفل، حوالى منتصف الليل، قفزنا عن ذلك الحصان وربطناه بعمود ودخلنا إلى الكوخ حيث كانت الموسيقى، وكان الحفل رائعًا. يا رجل! تعرّفنا إلى فتاة ورقصنا، قضينا وقتًا ممتعًا مع فتيات مثيرات، وحظينا بوقت ممتع. يا رب! رقصنا بشكل رائع!... حسنًا، حينما صارت الساعة الثانية تقريبًا، غادر جميع الناس، وخرجنا إلى الفناء لنمتطي ذلك الحصان الذي تركناه بجانب العمود... ورحمتك يا رب! كان الحصان ميتًا! نعم يا سيدي! سقط أرضًا حيث كان واقفًا، ولم يظهر في عينيه سوى البياض، ظهر الزبد على فمه، وكان قد مات متحجّرًا!... حسنًا، لم نعرف كيف سنعود إلى المنزل ولا ما سنفعله بحصان السيد، وكنا خائفَين، يا ربي! لأننا كنا نعلم أنه سيضربنا حتى الموت إذا اكتشف أننا ركبنا أفضل أحصنته على أيّ حال، فضلًا عن أننا امتطينا ذلك المخلوق حتى الموت... وكل زنوج ماكون المنحطّين الذين كانوا في الحفل استحقوا القتل، فقد ضحكوا لرؤيتنا نستعد لامتطاء الحصان بينما كان الحصان ميتًا!... حسنًا يا سيدي، لم نضيّعْ أنا وصديقي الوقت. أمسكنا بأرجل الحيوان الخلفية وسحبناه طوال الطريق إلى مزرعة السيد قبل بزوغ النهار! بالتأكيد فعلنا ذلك! صعودًا ونزولًا، لستة عشر ميلًا! نعم يا سيدي! ووضعنا ذلك الحصان في حظيرة السيد كما كان قبل أن نغادر. وحينما أشرقت الشمس كنتُ وصديقي في مأوى العبيد نائمين بسلام، ونبدو وديعَين كأننا لم نذهب إلى أي مكان... تفاجأ السيد العجوز في

النهار كيف مات ذلك الحصان وهو مربوط ورسنه موضوع عليه! وتفاجأنا نحن الزنوج أيضًا حينما علمنا أن حصان السيد ذاك قد مات، لأننا لم نعرف شيئًا عن ذلك. لا يا سيدي! لم يعرف أي أحد منّا، نحن الزنوج، شيئًا عن ذلك! هيه! هيه! لا شيء!».

سأله ساندي: «ألم تخافوا؟».

قال العم دان: «بالتأكيد، كنا خائفين، لكننا لم نتصرف على ذلك النحو، كان الزنوج أذكياء في ذلك الزمن».

«ما زالوا أذكياء»، قال جاب لوغان، «إن كانوا يستطيعون الكذب مثلك».

قال باستر: «بالفعل!».

«العم دان بطل العالم في الكذب» قال صبيّ طويل نحيل متشدقًا. «هيا لندخل ونشتري له شطيرة، لأنه كذب بما يكفي لهذه الليلة».

سرعان ما احتشدوا في غرفة الطعام وجلسوا على المقاعد إلى المنضدة طالبين الصودا أو الآيس كريم من النادلة البدينة الطيبة. بينما كانوا يأكلون دخل مقامر من الغرفة الخلفية حاملًا حفنة من العملات المعدنية التي كسبها للتو.

صرخ: «سأملأ بطني بينما النقود في يدي. لا أعرف متى قد أخسر، لأن النرد يسير على هواهم الليلة. حسنًا يا ماتي»، صاح: «أخبري الشيف أن يعطيني شريحة لحم بقريّ مهترئة من شدة الطّهو مثل جيم جيفريز ، وفنجان قهوة قويّ النكهة مثل جاك جونسون، وتعالي طائرةً مثل منطاد لكي يتسنى لي العودة إلى اللعبة. وأخبري ذلك التافه الذي يعمل في المطبخ أن ستينغاري هنا!».

قالت ماتي: «حسنًا، أبقِ ياقتَك مزرّرة. فيجب أن تُطهى شريحة اللحم».

صاح المقامر للرجل العجوز: «ماذا تريد أيها العم دان»؟ بما أنني أفوز سأطعمك أيضًا. تناول بعض لحم الخنزير أو الملفوف أو شيء من هذا القبيل. تلك الشطيرة لن تكفيك لتشبع».

قبِل العم دان طبقًا من الضلوع الرقيقة، وألقى ستينغاري كومة من العملات على المنضدة.

قال بصوتٍ عالٍ: «الأميركيون الأصليون والبوفالو، شيئان قتلهما البِيض، لذا وضعوهما على ظهر النيكل... أسرعي في تجهيز شريحة اللحم تلك يا فتاة، أنا جائع!».

أنهى ساندي شرابه واشترى نسخة من شيكاغو ديفندر، أعظم جريدة أسبوعية في العالم للزنوج، التي كانت تُباع على المنضدة. وعلى الصفحة الأمامية كان هناك عنوان كُتب بأحرف حمراء كبيرة: إعدام فتى زنجي من دون محاكمة. كان هناك تقرير أيضًا عن أعمال شغب عِرقية في مدينة صناعية شمالية. ظهرت صورة الجميلة أليس ويتمان مؤدّية الرقص النقري، فاسترعت انتباهه، وقرأ بعض المقالات المتعلقة بعروض الملونين؛ لكن حينما كان على وشك قلب الصفحة، جعله مقال صغير في الزاوية السفلية يتوقف ويضع الجريدة على المنضدة.

ممثلة تحقق نجاحًا باهرًا

سانت لويس، ميزوري، 3 أغسطس: شغلت هارييتا ويليامز -مغنية البلوز الشابة الحساسة- مسرحَ بوكر واشنطن تمامًا هذا الأسبوع. على الرغم من أن جونز وجونز من أبرز نجوم عروض فودفيل[1] الملونين، إلّا أن غناء الآنسة ويليامز ظل العنصر الأكثر جاذبية في العرض. تم مدّ فترة عروضها بسبب الإقبال المستمر عليه، مع بيلي ساندرلي الذي يعزف على البيانو.

(1) نوع من العروض ظهر في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، وكان شائعًا في الولايات المتحدة خلال مطلع القرن العشرين، ويضم مزيجًا من الكوميديا الهزلية والأغاني والرقص.

قال باستر الذي كان ينظر من فوق كتف ساندي: «بيلي ساندرلي. إنه الشاب فاتح البشرة ذو الوجه المنمّش الذي كان يعزف في الحفلات هنا، أليس كذلك؟! إنه يستطيع عزف البيانو حتى الموت!».

ردّ ساندي: «هذا مؤكد. يا إلهي، لا بد أنهما يشكّلان فريقًا رائعًا معًا، لأن خالتي هاري تجيد الغناء والرقص فعلًا!».

«هذا ليس الشيء الوحيد الذي تجيده!»، صاح المقامر وهو يبتلع قطعة كبيرة من اللحم. «خالتك هاري صفيقة يا بنيّ!».

قال العم دان: «أغلقْ فمك!».

أبواب الحياة

انهمكت تيمبي في الخياطة لجمعية الصليب الأحمر المحلية وتنظيم نوادي رابط الحرية بين الناس الملونين في سانتون خلال السنة الثانية لساندي في المدرسة الثانوية. آمنت بصدق أن العالم سيصبح آمنًا فعلًا وديمقراطيًا، حتى في أميركا، عندما تنتهي الحرب، ولن يتم معاملة الملونين بازدراء في السرّ والتحيّز ضدّهم علنًا.

قالت: «الشبّان الملونون يحاربون هناك. رجالنا يشترون سندات بمئات الدولارات، والنساء الملونات يساعدن الصليب الأحمر، ونوادينا ترسل الصناديق إلى المعسكرات والجبهات. سيرى البيض أن الزنجي يُمكن الوثوق به في الحرب وكذلك في السّلم. ستكون الأزمنة القادمة أفضل بالنسبة لنا جميعًا».

وصلت ذات يوم رسالة من أنجي التي كانت قد انتقلت إلى شيكاغو. قالت إن والد ساندي لم يمكث طويلًا في المعسكر، بل تم إرساله إلى فرنسا فور تجنيده تقريبًا، ولم تكن تعرف ماذا ستفعل، كانت قلقة ووحيدة للغاية! لم تصل إليها سوى رسالة واحدة من جيمبوي بعد رحيله. وصارت الآن بحاجة إلى وجود ساندي معها، لكنها لم تكن قادرة على الإرسال في طلبه بعد. قالت إنها تأمل وتصلي ألّا يصيب والده مكروه على الجبهة، حيث ظلّت أسماء الجنود الملونين تظهر على قائمة الضحايا كل يوم.

صاحت تيمبي عندما قرأت الرسالة بينما كانا جالسَين إلى مائدة العشاء: «من الجيد أنه رحل». ثم غيرت الموضوع فجأة، فسألت ساندي: «هل قرأت مقالة دكتور فرانك كرين الجميلة هذا الصباح؟».

قال الولد: «لا، لم أقرأها».

اشتكت خالته: «لم تعد تقرأ بقدر ما قرأت في الشتاء المنصرم. وأنت تبقى في الخارج حتى وقت متأخر إلى حد لا يلائمني، كما أنني واثقة أنك لا تُمضي كل ذلك الوقت في السينما، أريدك أن تكفّ عن التأخّر أيها الشاب، تظل خارج المنزل في مكان ما على مدار الأسبوع حتى الساعة العاشرة والحادية عشرة!».

عارضها السيد سيليز: «حسنًا، على الشبان التسكّع قليلًا يا تيمبي. تغيرت الأمور عن زماننا».

«أنا أربّي هذا الفتى يا سيد سيليز»، صرخت تيمبي «متى تدرس يا جايمس؟ هذا ما أريد معرفته».

قال ساندي: «حينما أعود إلى المنزل». وكان ذلك صحيحًا، كان نوره يظلّ مضاءً حتى بعد الساعة الثانية عشرة من كل ليلة تقريبًا. وحينما لا يدرس إلى وقت متأخر، لم تفارقه عادة الاستلقاء صاحيًا من دون أن يستطيع الخلود إلى النوم باكرًا.

قال باستر له ذات مرة: «أنت تفكر كثيرًا، توقّف عن كونك ذكيًا جدًا؛ حينها ستنام بشكل أفضل».

فأضاف جيمي لاين: «نعم، من الأفضل أن تكون بصحة جيدة وأحمق على أن تكون ذكيًا ومريضًا مثل زنوج الجامعات الذين أراهم يرتدون نظارات على أعينهم ورائحة أنفاسهم كريهة».

اعترض ساندي: «لا، لستُ مريضًا، لكنني أفكر في الأمور ليلًا، الحرب، والناس البيض، والله، والفتيات، و... أوه! لا أعلم؛ كل شيء في العموم».

قال باستر ساخرًا: «بالطبع، استمر في التفكير وستصبح باهتَ اللون بعد فترة ومنحنيَ الأكتاف مثل الأب هيل». (قيل إن كاهن الكنيسة الأسقفية هو أذكى رجل ملوّن في المدينة). «لكنني أنا نفسي لن أهتم بأن أكون ذكيًا، بضع سنوات أخرى يا فتى، وسأكون في مدينة كبيرة أعيش مع البيض، أجني المال، وأتعايش معهم. ولن أحتاج إلى الذكاء أيضًا، سأكون أبيضَ! لذا إن رأيتني في وقت ما في سانت لويس أو شيكاغو وأحمل صغيرًا أشقر على ذراعي؛ فلا تأتي إليّ! أريد أن يكون أطفالي شُقرًا إلى حدّ ألا يضطروا إلى التفكير في قيود الملونين».

عرف ساندي أن باستر يعني ما قاله، لأن صديقه فاتح البشرة كان من الأشخاص الذي يمضون مباشرةً إلى ما يبتغون، كما لو أن الدرب أمامهم مستقيم ويمكنهم الرؤية بوضوح على طول الطريق. في المقابل، لم يبد أي شيء بهذا الوضوح إطلاقًا بالنسبة إلى ساندي نفسه. لمَ تتجه بلاده بغباء صوب الحرب؟ لمَ كانت الفوارق بين البيض والملونين كبيرة؟ لمّ كان من الخطأ اشتهاء أجساد النساء؟ ظلت دوّامة أفكار تدور في ذهنه ليلة تلو الأخرى بينما يرقد في فراشه غير قادر على النوم بسرعة، تساءل ساندي عن أمور عديدة وطرح على نفسه أسئلة كثيرة.

كان يفكر أحيانًا في بانسيتا يونغ، زميلته في الفصل ذات البشرة السمراء الناعمة، والثديين البارزين، في جسدها الذي يشبه الدمية. لكن لم ينفرد أبدًا ببانسيتا، ولم يقبّلها قَطّ، إلّا أنها كانت «فتاته» وأُعجب بها كثيرًا. ربما أحبّها! لكن ما معنى أن تحبّ فتاة؟ أيعني ذلك الزواج بها والعيش معها إلى الأبد؟ تزوّج والده بوالدته، جيمبوي اللطيف الذي يعزف على الغيتار، لكنهما لم يكونا معًا دائمًا، وعرف ساندي أن جيمبوي يستمتع بالحرب الآن، كما استمتع على الدوام بكل شيء آخر.

قال في قرارة نفسه: «يا إلهي، لا بد أنه تزوج مبكرًا حتى يكون والدي ولا يزال يبدو صغيرًا جدًا! أظن أن عليّ الزواج من بانسيتا فورًا!»، لكن ما الذي كان يعرفه فعلًا عن الزواج بخلاف الشذرات القذرة التي سمعها من جيمي وباستر والشبّان في صالة البلياردو؟

في عيد ميلاده الخامس عشر أهدت إليه تيمبي كتابًا للشبّان حول موضوع الحبّ والعيش، كان بعنوان أبواب الحياة، وهو موجّه إلى جميع الشبّان المسيحيين في سن المراهقة، لكن كتبه كاهن أبيض في نيو إنجلاند من أتباع المشيخية الذين وقفوا مذعورين أمام الجسد؛ لذا فإن النصائح انحصرت تقريبًا في كيفية الصلاة بالطريقة الأرثوذكسية، وكيف لا تحبّ.

«تجنّبْ صحبة الأشرار لئلا يكونوا هلاكك (انظر المزمور المائة والتاسع عشر من سفر المزامير، 115-20)، واحذر الداعرات، فمسالكهنّ تؤدّي إلى الجحيم (انظر الأصحاح السابع من سفر الأمثال، 25-7)»، هكذا قال الكتاب، وكان ذلك حدّ تعليماته عن الجنس، إلا أنه حثّ الجميع على الزواج باكرًا وعيش حياة مسيحية صحية وأخلاقية. لكن كيف يمكنك الزواج باكرًا إن كنت لا تملك مالًا ولا منزلًا لتأخذ زوجةً إليه، تعجّب ساندي. ومن هم الصّحبة الأشرار. لم تقل الخالة هاغر أو أنجي شيئًا لساندي عن الحب بمعناه الجسدي؛ رحل جيمبوي قبل الوقت الملائم ليتحدث إليه أكثر؛ وكانت تيمبي وزوجها أخلاقيَّين أكثر كثيرًا من مناقشتهما في مثل هذه المواضيع؛ لذا تكونت معرفة الصبي الجنسية من الأفكار المشوّهة التي يتهامس بها الشبّان فحسب؛ القصص القذرة التي سمعها في بهو الفندق حيث كان يعمل؛ وحقيقة أنهم باعوا في الصيدليات موادّ لم يرتبط ذكرها بالناس المهذبين.

لكن مَن هم المهذبون على أي حال؟ كره ساندي كلمة «مهذّب». كانت خالته تيمبي تستخدمها دائمًا، جميع أصدقائها مهذبون، كانت تقول «محترمون وراقون»، كانوا يجولون وأنوفهم مرفوعة في الهواء من دون أن يتحدثوا إلى الحمّالين أو الغسّالات، على الرغم من أنهم لم يكونوا مسلّين إطلاقًا بقدر الأشخاص الذين حاولوا ازدرائهم. أحبّ ساندي كادج ويندزور أو جاب لوغان أكثر مما أحبّ الدكتور ميتشل الذي كان يعمل في الجامعة، ولم ينس ذلك قَطّ.

تساءل ساندي إن كان بوكر تي. واشنطن مثل أصدقاء تيمبي؟ أو إن كان الدكتور دو بويز متعجرفًا لمجرد أنه يدرّس في الجامعة؟ تساءل إن كان هذان الرجلان يقضيان وقتًا ممتعًا لكونهما عظيمين. (مات بوكر تي.) لكنه ترك مدرسة حية في الجنوب، ربما يمكنه التدريس في الجنوب أيضًا إن نال كفايته من التعليم، هكذا فكّر ساندي. هل احتاج الملوّنون إلى معرفة الأشياء التي كان يدرسها في الكتب الآن؟ هل الفرنسية واللاتينية وشكسبير جعلوا الناسَ حكماء وسعداء؟ لم يتجاوز جاب لوغان الصف السابع وكان سعيدًا، ولم يذهب جيمبوي إلى المدرسة كثيرًا أيضًا. ربما لم تكن المدرسة مهمّة، لكن لتحصل على وظيفة جيدة يجب أن تكون ذكيًا، وأبيضَ أيضًا. تلك كانت المشكلة، عليك أن تكون أبيض!

«لكنني أريد أن أتعلم!» فكّر ساندي وهو يرقد مستيقظًا في الظلام بعدما خلد إلى الفراش ليلًا. «أريد الالتحاق بالجامعة، أريد الذهاب إلى أوروبا والدراسة. (اعمل واستعد وربما ستأتي فرصتك)، كُتب ذلك تحت صورة لنكولن في التقويم الذي وزّعه بنك فيرست ناشيونال، حيث حصل إيرل -صديقه الأبيض- على وظيفة قد وُعد بها بالفعل حينما ترك المدرسة. لم يكن في الأمر صعوبة على الإطلاق تقريبًا بالنسبة إلى الشبان البيض. أمكنهم العمل في أي شيء، في المتاجر، في الجرائد، في المكاتب. كان في استطاعتهم أن يصبحوا رؤساء الولايات المتحدة إن

كانوا أذكياء كفاية، لكن بالنسبة إلى صبيّ ملوّن؛ لا عجب في أن باستر سيندمج مع البيض حينما يترك سانتون.

قال ساندي في قرارة نفسه: «أنا لا ألومه، أحيانًا أكره البيض أيضًا، مثلما كانت الخالة هاري تقول إنها تكرههم. ومع ذلك بعضهم لطفاء للغاية، مدرس الإنكليزية، السيد برينتيس الذي أعمل لديه. إلا أن السيد برينتيس أيضًا لن يجعلني بائعًا في متجره. كل ما يمكنني فعله هو قضاء الحاجات وتنظيف الأرضية عندما يرحل الجميع. لا يوجد تقدّم بالنسبة إلى الملونين. إن بدؤوا كحمّالين، فسيبقون حمّالين إلى الأبد من دون أن ينهضوا. كونك ملونًا أشبه بالولادة في قبو الحياة، والباب إلى النور مقفل ومغلق بالقضبان، بينما البيض يعيشون في الطوابق العليا. لا يريدوننا أن نكون في الأعلى معهم، حتى إن كنا محترمين مثل الدكتور ميتشيل، أو أذكياء مثل الدكتور دو بويز، وشبّانًا مثل جاب لوغان، حسنًا.. جاب لا يكترث على أي حال! ربما من الأفضل للمرء ألّا يكترث، ويظل فقيرًا وخانعًا ينتظر الجنة كما فعلت الخالة هاغر. لكنني لا أريد الجنة! أريد أن أعيش أولًا» فكّر ساندي. «أريد أن أعيش!».

فهِمَ إذًا لم يقول العديد من الزنوج العجائز: «خذوا هذا العالم بما فيه وأعطوني يسوع!» كان ذلك لأن لا نصيب لهم في العالم على أي حال، كان مُلكًا للبيض. كانوا وحدهم من يمتلكون القدرة على العطاء أو الامتناع عن ذلك عند أبواب منازلهم الخلفية. الأبواب الخلفية دائمًا، حتى بالنسبة إلى تيمبي أو الدكتور ميتشيل إن قرروا الذهاب إلى فندق رايت أو مطعم نيو ألبرت. ولا باب أمامي على الإطلاق بالنسبة إلى الزنوج إن أرادوا الذهاب إلى مسرح ريالتو، أو الانضمام إلى جمعية الشبّان المسيحيين في سانتون، أو العمل في شَيّ الطعام ضمن البنك الوطني.

أبواب الحياة.. لعنة الله على ذلك الكتاب الساذج الذي أعطته إياه تيمبي! ماذا يعرف كاهن أبيض عجوز عن أبواب الحياة بالنسبة له ولبانسيتا وجيمي لاين، بالنسبة لويلي ماي وباستر وجاب لوغان وجميع الشبّان السود والسّمر والخلاسيين الواقفين على عتبة الانطلاقة العظيمة في مدينة غربية تُدعى سانتون؟ ماذا عرف كاهن أبيض عجوز عن أبواب الحياة في أي مكان؟ و خاصةً عن الأبواب إلى حياة زنجي؟ الشبّان السود، الأيدي الداكنة تقرع الأبواب، تقرع الأبواب! يدا بانسيتا السمراوان الناعمتان تقرعان أبواب الحياة! يدا الفتاة التي تشبه الدمية، يدا الفتاة اللتان بلون أوراق الخريف الصغيرة! يا إلهي، بانسيتا! أبواب الحياة... الأبواب الكبيرة العظيمة... غفا ساندي... من الحياة.

«لن أسمح بذلك» قالت تيمبي، «لن أتحمل هذا، عليك تغيير مسالكك أيها الشاب! تُمضي أمسياتك في صالة ويندزور للبلياردو والتسكع في الشوارع رفقة ثلة مع الأولاد العوام الذين لم يتربوا، حتى أن جيمي لاين من بينهم. لن أتحمل ذلك وأنت تمكث في منزلي... لكن هذا ليس أسوأ ما في الأمر. أخبرني السيد برنتيس أنك تأخرت عن العمل بعد المدرسة ثلاث مرات هذا الأسبوع. وماذا كنت تفعل؟ لا تظنني لا أعلم! رأيتك بأمّ عيني البارحة وأنت تسير رفقة تلك الفتاة بانسيتا يونغ إلى منزلها!... حسنًا، أريدك أن تفهم أنني لن أقبل بذلك!».

قال ساندي: «لم أمشِ معها إلى المنزل، كل يوم أسير معها لجزء من الطريق فحسب، إنها زميلتي في الفصل في مدرستي الثانوية، وعلينا التحدث عن دروسنا. إنها الفتاة الملونة الوحيدة في صفّي التي يمكنني التحدث إليها».

قالت تيمبي بطريقة ساخرة: «دروس! نعم، أنا واثقة أنكما تتحدثان عن الدروس. لو كانت فتاة من مستوانا لما كانت لديّ مشكلة. لا أفهم لم لا تتقرب أكثر من شابّات الكنيسة. ماري ستيوارد وغريس ميتشل كلاهما فتاتان لطيفتان، وأنت لا تلاحظ وجودهما، إنما ترافق بانسيتا، تلك التي تعمل والدتها خارج المنزل طوال النهار، تاركةً ابنتها تفعل ما يحلو لها. حسنًا، لن أسمح لها بتدميرك، بعد كل ما فعلته لأحاول أن أصنع منك شخصًا له قيمة».

«حذار النساء يا بنيّ» قال السيد سيليز بطريقة أبوية وهو يجلس في كرسيه المريح. كانت إحدى الأمسيات القليلة التي يُمضيها في المنزل، وقد طلبت منه تيمبي التحدث إلى ابن أختها الذي خرج عن سيطرتها، لأن ساندي لم يعد يبقى ليلًا في المنزل عندما أمرته صراحة بذلك؛ ولم يعد يرتاد الكنيسة بانتظام، بل أصبح ينام في صباحات الأحد بدلًا من ذلك. استمرّ في أداء واجباته المدرسية، كان ذلك صحيحًا، لكن بدا أنه فقد كل اهتمامه بكسب السلوك القويم والمكانة المحترمة تجاه الحياة التي ظنّت تيمبي أن عليه تبنّيها. اشترت له ملابس أنيقة وبدأ يُمضي وقته مع أولئك المجرمين.

حكت لزوجها: «بعبارة أخرى، كان يتصرف وكأنه زنجي يا سيد سيليز! رافق فتاة ليست من الأفضل، على أقل تقدير، حتى لو كانت ترتاد المدرسة الثانوية. السيدة فرانسيس كانون التي تعيش بجوارها أخبرتني أن بانسيتا تلك تستقبل الشبّان في منزلها طوال الوقت، ووالدتها لا تحضر إلى المنزل إطلاقًا إلا بعد حلول الظلام، إنها طاهية في مكان ما أو شيء من هذا القبيل، أترى أنها فتاة ملائمة ليرتبط بها ابن أختي، ابنتها بانسي تلك!».

قال ساندي: «بانسيتا فتاة لطيفة، وهي متفوقة في المدرسة أيضًا، إنها تساعدني في اللغة اللاتينية كل يوم، وقد أرسب من دون مساعدتها».

«آها! أنت بحاجة إذن إلى بعض المساعدة في اللاتينية أيها الشاب! أحضرْ دروسك إلى هنا وسأساعدك، تعلّمت اللاتينية حينما كنتُ في المدرسة، ولستَ مضطرًا بالتأكيد إلى التسكع في الشوارع معها لتتعلم اللاتينية، أليس كذلك؟ فجأة سترى نفسك متورطًا معها وأنها ستنجب طفلًا، أرى أنني يجب أن أكون واضحة معك، وسواء كان طفلك أم لا فستقول إنه كذلك. ترغب الفتيات العوام من هذا النوع دائمًا في الزواج من شاب يعتقدن أنه سيصير صاحب مكانة، يذهب إلى الجامعة ويصبح له

شأن في هذا العالم، إضافة إلى ذلك أنت من عائلة ويليامز، ووسيم! لكنني سأضع حدًا لهذه العلاقة فورًا، من الآن فصاعدًا ستترك تلك الفتاة لحالها، أتفهم ما أقول؟ إنها خطيرة!».

همهم السيد سيليز: «أجل. إنها خطيرة».

غاضبًا ومرتبكًا غادر ساندي الغرفة وخلد إلى الفراش في الطابق العلوي، لكنه لم يستطع النوم. ما الذي يعطيهما الحق في التحدث عن أصدقائه بهذا الشكل؟ إضافة إلى ذلك، ماذا يقصدان بأنها خطيرة؟ وبأنه سيتورط معها؟ وبرغبتها في الزواج منه لأن أمها طاهية وهو سيرتاد الجامعة؟

شاب أبيض في فصل ساندي في المدرسة الثانوية «تورّط» مع فتاة إيطالية وذهبا إلى محكمة الأحداث لإصلاح الأمور، لكن سُوّي الأمر بهدوء. لم يستطع ساندي حتى الآن أن يفهم بدقة معنى التورّط مع فتاة. هل تنجب الفتاة طفلًا لمجرد أنّ أحد زملائها سار معها إلى المنزل من دون أن يدخل إليه حتى؟ كانت بانسيتا قد دعته إلى المنزل كثيرًا، لكنه اضطر دائمًا إلى العودة إلى أعلى المدينة للعمل. كان عمله في الساعة الرابعة، كما أنه كان يعلم أن ليس من الصحيح زيارة شابة إن لم تكن والدتها في المنزل. لكن ذلك لم يكن سيئًا بالضرورة، أليس كذلك؟ وكيف يمكن لفتاة أن تنجب طفلًا وتقول إنه منه إذا لم يكن كذلك؟ لم لا يستطع التكلم مع خالته تيمبي عن هذه الأمور والحصول على إجابة واضحة وبسيطة، بدلًا من أن تعطيه كتابًا قديمًا مثل (أبواب الحياة) الذي لا يفسر شيئًا على الإطلاق؟

لم تقل بانسيتا له كلمة عن الأطفال، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنها سمحت له بتقبيلها مرة، وأن يُجلسها في حضنه خلال حفلة عيد ميلاد سادي باتلر. يا إلهي! لكنها بارعة في التقبيل، كان ذلك منذ زمن

بعيد! لا يكترث إن جعلته يتزوجها، لكنه أراد السفر أولًا. إن أرسلت والدته في طلبه الآن، فسيودّ الذهاب إلى شيكاغو. كانت خالته تيمبي نزقة للغاية، وصارمة أكثر من اللازم. لم يعجبها أيّ من أصدقائه، وكرهت صالة البلياردو. لكن أين يستطيع الشاب اللعب في مكان آخر؟ مَن قد يرغب في الذهاب إلى منازل أولئك الناس المتعجرفين، مثل عائلة ميتشيل، ويبدو ضجرًا طوال الوقت بينما يشغّلون تسجيلات كاروسو الإيطالي على آلة الفيكتورولا الجديدة؟ حتى إن كانت أفضل فيكتورولا يملكها زنجي في سانتون، كما يخبرونك على الدوام، سئم ساندي الاستماعَ إلى تسجيلات بلغة لا يفهمها أيّ منهم.

«لكن هذه أوبرا!»، كانوا يقولون. حسنًا، ربما كانت كذلك، لكنه رأى أنّ والده وهاربيت كانا يغنيان بشكل أفضل. وكانا يؤديان أغانيَ أجمل. إحداها كانت:

الحب، أوه! الحب، أوه! الحب الذي لا يلوي على شيء...

يتسلل إلى رأسك مثل النبيذ!

فكّر ساندي: «وربما أنا حقًا واقع في حبّ بانسيتا... لكن إن ظنت أنها تستطيع أن تخدعني لأتزوجها قبل أن أسافر إلى جميع أنحاء العالم مثل والدي فهي مخطئة. لا يمكنها خداعي، ليست هذه الفتاة!»، ثم شعر بالأسف فورًا لأنه سمح لتلميحات تيمبي بالتأثير في أفكاره.

«بانسيتا الجميلة، ذات الوجه الطفولي! حسنًا، لن تحاول توريط أحد في أيّ شيء. لو أرادتني أن أحبها لسمحت لي، لكنها لن تحاول خداع شاب. لن تسمح لي بأن أحبها بتلك الطريقة على أيّ حال، كما قصدت تيمبي. يا إلهي! كان من البشع أن تقول الخالة تيمبي ذلك! لكن باستر قال إنها ستسمح لي بذلك.... أوه! إنه يتحدث عن الفتيات بهذه الطريقة دائمًا! قال إنه لا توجد امرأة طيبة، كما لو أنه يعرف ذلك! وقال جيمي

لاين إن النساء البيض أسوأ من الملوّنات، لكن كل الشبّان الذين عملوا في الفنادق قالوا ذلك».

دعهم يتحدثون! أحَبّ ساندي بانسيتا على أيّ حال، لكن ربما كانت خالته تيمبي على حق! ربما كان من الأفضل له التوقف عن المشي معها إلى المنزل. لا يريد أن «يتورّط» فلا يستطيع السفر إلى شيكاغو في وقت ما، حيث كانت والدته. إن استطاع ادّخار ماله من الآن، قد يستطيع الذهاب إلى شيكاغو في الصيف المقبل. أراد رؤية المدينة الكبيرة، حيث المباني مثل الأبراج، وتمرّ القطارات فوق الرؤوس، والبحيرة مثل البحر. لم يكن يريد أن «يتورّط» مع بانسيتا حتى لو كان يحبّها. إضافة إلى ذلك فقد كان عليه العيش مع تيمبي لفترة، وكرِه التشاجر مع خالته طوال الوقت. سيتوقف عن الذهاب إلى صالة البلياردو كثيرًا وسيبقى في المنزل ليلًا ويدرس... لكن، اللعنة! من الجميل جدًا البقاء خارج المنزل، خاصةً بعد حلول الربيع!

بينما كان مستلقيًا في السرير بعد تقريع تيمبي له بشأن الفتاة؛ أمكنه عبر نافذته المفتوحة رؤية النجوم، وقمم أشجار القيقب المتبرعمة. حرّك نسيم بارد محمّل برائحة الأرض الستائرَ البيضاء، ناثرًا أوراق الهندسة التي تركها ملقاةً على طاولة الدراسة. نهض من السرير لالتقاط الأوراق ووضعها في مكان آخر، ووقف للحظة مرتديًا بيجامة نومه ناظرًا من النافذة إلى أسطح المنازل وقمم الأشجار تحت كنف الليل.

قال ساندي في قرارة نفسه بينما وقف هناك: «أتمنى لو كان لديّ شقيق، ربما لاستطعت التحدث إليه عن الأمور من دون أن أضطر إلى التفكير كثيرًا. ليس من الممتع أن تكون الطفل الوحيد في العائلة، وألا يكون والدك في المنزل قَطّ أيضًا... حينما أتزوج، سأنجب الكثير من الأطفال؛ عندها لن يضطروا إلى أن يكبروا وحدهم».

في اليوم التالي بعد المدرسة، مشى مع بانسيتا كالمعتاد حتى المنزل تقريبًا، على الرغم من أن ما قالته تيمبي ظلّ في ذهنه، لكنه لم يكن قد قرّر أن يطيع خالته بعد. عند زاوية الحيّ الذي تقيم فيه الفتاة؛ أعطاها كتبها.

«عليّ العودة إلى المتجر الآن، سيقول العجوز برينتيس إن هناك الكثير من عمليات التوصيل لأقوم بها لمجرد أنني تأخرت».

قالت بانسيتا بصوتها الرقيق العذب: «حسنًا، يؤسفني أنك لا تستطيع الدخول إلى منزلي لبعض الوقت. حسنًا، لم لا تعمل في الفندق على أي حال؟ ألن تجني مزيدًا من المال هناك؟».

ردّ الولد: «أعتقد ذلك، لكن ترى خالتي أن العمل لدى برينتيس أفضل».

قالت بانسيتا: «أوه! حسنًا، رأيت جيمي لاين ليلة البارحة، وهو يجني الكثير من المال في الفندق، أراد مقابلتي بالقرب من المدرسة ظهر اليوم، لكنني رفضت، وقلت له إنك سترافقني إلى المنزل».

قال ساندي: «فعلت ذلك!».

ضحكت بانسيتا: «أجل، لكنني لم أقل له إنك لا تدخل إلى المنزل قَطّ».

خلال أسابيع الربيع المشمسة التالية، لم يعد ساندي يمشي معها إلى المنزل بعد المدرسة. تحجّج بأنه مضطر للذهاب إلى العمل مبكرًا، لكن بانسيتا بدت قلقة ومتحيرة في البداية. سألته إن كان غاضبًا منها، أو شيء من هذا القبيل، لكنه أخبرها أنه ليس غاضبًا. بعدها بوقت قصير، بدأ الشبّان يقابلونها عند الزاوية القريبة من المدرسة، ليشتروا لها أقماع الآيس كريم حينما تمرّ العربة، ويرافقوها إلى المنزل بعد الظهر. أغضَبَ ذلك ساندي، لكنه رأى أن ذلك كان خطؤه. وشعر بالوحدة لعدم وجود مَن يمشي معه بعد انتهاء الدروس.

كانت بانسيتا في المدرسة مسلّية كالسابق، لكن بطريقة غير شخصية، وكأنها لم تكن فتاته قَطّ. وبدأ ساندي يشعر بالقلق، لأنه كان من السهل فقدانها، لكن هل سيكون من السّهل استعادتها إن أراد ذلك؟ الشبّان الذين يعملون في الفندق يجنون المال، ورآها مرة أو مرتين تتكلم مع جيمي لاين. يا إلهي! لكنها بدت جميلة في فساتين الربيع الرقيقة وقبّعة القش العريضة.

لمَ أنصتَ إلى تيمبي أساسًا؟ فهي لم تكن تعرف بانسيتا، وأرادته أن يزدري الفتاة لمجرد أن والدتها تعمل في فندق. ما الذي قد يثير الخوف في عدم وجود والدتها في المنزل بعد المدرسة؟ حتى لو سمحت له بانسيتا بدخول المنزل وتطويقها بذراعيه، فلم لا يفعل ذلك؟ ألا يحقّ له أن يكون مع فتاة مثلها، مثلما يحقّ لبقية رفاقه؟ ألا يملك الحق في أن يكون حرًا مع النساء أيضًا، مثل بقية الشباب؟ لكن بانسيتا لم تكن فتاة من ذلك النوع! ما الذي جعله يجنح بأفكاره؟ هل بسبب ما قالته تيمبي! فلتذهب تيمبي إلى الجحيم!

«إنها مجرد زنجية تقليدية تتبع الكنيسة الأسقفية، هذه هي تيمبي! وأرادته أن يترك بانسيتا لأن والدتها لا تنتمي إلى نادي دونبار ويست. يا إلهي! أنا خجل من نفسي، أنا نذل ومتعجرف! هذه حقيقتي، وسأعتذر».

كان يعيش -من دون وعي- مشهدًا من رواية إنكليزية قد قرأها في محلّ الطباعة، حيث يتخلى الأمير عن ابنة سكوير من أجل سيدة عظيمة، قبل أن يعود لاحقًا إلى حبّه الأول. أبقى ساندي مفردتَي «نذل» و«متعجرف» ضمن مفرداته، لكنه لم يفكّر في الرواية وقتها. آمنَ حقًا، بعد ثلاثة أسابيع من رؤية بانسيتا تمشي مع شبّان آخرين؛ أنه ارتكب خطأ، وأن تيمبي هي الشريرة في هذه الحالة. أقلقَه الأمر كثيرًا، لذا قرّر أن يصالح بانسيتا إذا استطاع.

غادرت المدرسة حاملةً مجموعة كبيرة من الكتب بعد ظهر يوم جمعة. كان عليهم كتابة مقالة صغيرة بالإنكليزية ليوم الإثنين، وأخذت بعض المجلدات من مكتبة المدرسة كمَراجع. كان يستطيع أن يعرض عليها حملها عنها، لكنه لم يفعل ذلك. وذهب إلى العمل بدلًا من ذلك، ولم يكن هناك أولاد ملونون عند الزاوية ينتظرون خروجها. يستطيع معاقبة نفسه على إهماله، فكّرَ في ذلك بينما كان ينظف الغرفة الخلفية لمحل السيد برينتس لبطاقات الهدايا. أفلتَ المكنسة التي كان ينظف بها فجأة، أمسكَ قبعته وغادر المكان، لأن الرغبة في مصادقة بانسيتا قد تمكّنت منه أشدّ من أيّ وقت مضى، ولم يعد مكترثًا بشأن عمله.

قال في قرارة نفسه: «سأراها على الفور، قبل الذهاب إلى المنزل لتناول العشاء. يا إلهي! لكنني خجل من الطريقة التي عاملتها بها».

بدت المروج ناضرة وخضراء، وكانت بعض أزهار الزنبق تتفتح في طريقه إلى منزل بانسيتا. توهجت سماء بعد الظهر. كان الأولاد الصغار في الشوارع مع الدحل والبلابل، فيما كانت الفتيات على الأرصفة تقفزن فوق الحبل. كان العمال عائدين إلى منازلهم، حاملين أوعية الغداء المعدنية الفارغة، ومرّت مجموعة من العمّال الزنوج بساندي، وهم يغنّون معًا بلطف.

فكّر الولد: «عليّ الإسراع، سيحين وقت العشاء قريبًا». ركض حتى وصل إلى منزل بانسيتا، ثم شعرَ بالتردّد؛ أيجب أن يدخل؟ أم لا؟ خجل من معاملته لها وشعر بالإحراج. هل عليه متابعة طريقه كما لو أنه لم يقصد المجيء إليها؟ افترضَ أنها أغلقت الباب في وجهه! أو أسوأ من ذلك؛ افترضَ أنها طلبت منه البقاء معها قليلًا! هل يبقى؟ لم يعد ما قالته تيمبي مهمًا. أراد استعادة صداقة بانسيتا مجددًا. أرادها أن تعلم أنه لا يزال يحبها ويريد العودة إلى المنزل معها. لكن كيف يستطيع قول لك؟ هل رأته من النافذة؟ ربما يمكنه أن يستدير ويعود، ويراها يوم الإثنين في المدرسة.

أعلن في قرارة نفسه: «لا! لستُ جبانًا، هل أخاف من فتاة! سأمشي مباشرة إلى الشرفة الأمامية وأقرع الباب!». بدا المنزل الصغير هادئًا للغاية والستائر مشدودة بإحكام عند النوافذ، طرقَ الباب مرة أخرى، ربما لم يكن هناك أحد في المنزل... نعم، سمعَ شخصًا ما.

ألقت بانسيتا أخيرًا نظرة خاطفة عبر ستائر الزجاج في الباب الأمامي. ثم فتحت الباب ببسمة متفاجئة، كان شعرُها منفوشًا وبشرتها السمراء الكريمية بنية من تدفق الدم الدافئ تحتها. كانت عيناها داكنتين ومشرقتين، وشفتاها رطبتين وحمراوين.

«إنه ساندي!»، قالت وهي تستدير لتخاطب شخصًا ما في الغرفة الأمامية.

«أوه! ادخل أيها العجوز»، ناداه صوت فتى بنبرة ترحيب قسريّ، ورأى ساندي جيمي لاين جالسًا على الأريكة معدّلًا ياقته باستحياء «كيف الأحوال أيها الشاب؟».

تلعثمَ ساندي: «حسنًا. بانسي، أنا... أنا... أتعلمين... أقصد، ما الموضوع الذي من المفترض أن نكتب عنه لحصة اللغة الإنكليزية يوم الاثنين؟ نسيت تدوين ذلك».

«حسنًا، (رحلة إلى إنكلترا شكسبير). من السهل تذكّر ذلك أيها السخيف. لا بد أنك كنت نائمًا... ألن تجلس؟».

«لا، شكرًا، عليّ... أعتقد أن عليّ العودة لتناول العشاء».

صرخ جيمي قافزًا عن الأريكة: «يا يسوع! هل تأخر الوقت إلى هذا الحد؟ عليّ أن أبدأ عملي في الفندق عند السادسة، انتظرْ قليلًا يا ساندي، سأمشي معك حتى الفندق. يا فتى، لقد تأخرت!». التقطَ معطفه عن الأرضية، وحملته بانسيتا له بينما يدفع ذراعيه عبر الأكمام، وهو يبحث

بعينيه في الأرجاء عن قبّعته التي كانت محشورة بين وسائد الأريكة. ثم قبّل الفتاة بتلقائية على شفتيها وهو يلفّ خصرها بإحدى ذراعيه.

قال: «إلى اللقاء يا عزيزتي»، وخرج الصبيّان. أشعلَ جيمي سيجارة على الشرفة ومرّر العلبة إلى ساندي.

بدا جيمي لاين بتصرّفاته كما لو كان أكبر سنًا بكثير من رفيقه، لكن جيمي ترك المدرسة منذ عدة سنوات، وعلّمه حمل الأمتعة عن الحياة، وعن النساء أيضًا أكثر بكثير من الكتب. إضافة إلى ذلك أصبح يعيل نفسه الآن، مما منحه هالةً من الاستقلالية لم يتمتع بها الفتيان الذين ما زالوا يعيشون مع أُسرهم.

عندما عبرا الحيّ، قال حمّال الأمتعة بلا مبالاة: «بانسيتا بارعة في الجنس، أليست كذلك يا رجل؟».

قال ساندي: «لا أعلم».

ردّ عليه جيمي لاين: «أوه! بحقك يا فتى، أنت تكذب. لا تحاول أن تخدعني بهذه الردود الطفولية! كنت معها لمدّة عام، أليس كذلك؟».

أجابه ساندي ببطء: «أجل، لكن ليس بالمعنى الذي تقصده».

أصرّ جيمي: «كفاك مزاحًا».

قال الولد: «لا، بصدق، لم ألمسها على هذا النحو قَطّ. لم أدخل إلى منزلها من قبل».

فغرَ جيمي فمه مندهشًا. صاح: «ماذا! ووالدتها العجوز تعمل حتى الثامنة والتاسعة من كل ليلة! حسنًا يا ساندي، نحن أصدقاء، لكنك إما كاذب كبير، أو أحمق لعين!» رمى سيجارته بعيدًا ووضع كلتا يديه في جيبيه «بانسيتا سهلة المنال للغاية يا رجل!».

شيكاغو

شيكاغو، إلينوي

16 مايو 1918

عزيزي ساندي:

عدتُ للتو إلى المنزل من عملي، وأنا متعبة للغاية، لكنني فكرت في كتابة هذه الرسالة لك الآن بما أنني لديّ بعض الوقت ولست نعسة. أنت فتى كبير، وأعتقد أنك تستطيع مساعدتي. لا أريدك أن تبقى في سانتون بعد الآن كعبء على خالتك تيمبي. تقول في رسائلها إنك بدأت تظل خارج المنزل حتى وقت متأخر من الليل ولا تعيرها أي انتباه. يجب أن تكون مع والدتك لأنك كل ما أملكه الآن، بما أنني لا أعلم ما حدث لوالدك في فرنسا. الحرب مروّعة، ويُقتل العديد من الرجال. لم يصل إلي شيء من جيمبوي منذ سبعة أشهر، وأنا قلقة للغاية. سأحاول أن أرسل لك المبلغ الذي تحتاجه لثمن التذكرة قبل نهاية الشهر، حتى تتمكن من القدوم عند نهاية المدرسة في يونيو. أعلمْني كم ادّخرت من المال وسأرسل لك الباقي لتأتي إلى شيكاغو، لأن السيد هاريس عامل المصعد حيث أقيم يعمل في فندق كبير في لوب ويقول إنه يستطيع توفير عمل لك هناك في يوليو. ستكون وظيفة جيدة لك، وربما إن استطعت ادخار بعض المال تستطيع العودة إلى المدرسة في سبتمبر. سوف أساعدك إن استطعت، لكن سيتوجب عليك مساعدتي أيضًا، لأنني لست في أفضل الأحوال. أعمل لدى سيدة ملونة في صالون تصفيف الشعر، وأتعلم تصفيف الشعر بنفسي، غَسل الشعر بالشامبو وتمليسه وتدليك الوجه وما إلى ذلك. لكن يصعب العمل لدى الناس الملونين. مدام كينغ من مكان

ما في الجنوب، وتختلف أساليب هؤلاء الزنوج الجنوبيين عنا، لكن يبدو أنها تحبّني. السيد هاريس من مكان يُدعى باتون روج في الجنوب أيضًا. يأكلون الأرز طوال الوقت. حسنًا عليّ أن أختم رسالتي أملًا في رؤيتك عمّا قريب، فقد مرت خمس سنوات منذ رأيت طفلي. مع محبتي لك ولتيمبي، كن ولدًا طيبًا.

والدتك

أنجليكا روجرز.

تلقى ساندي رسالة أخرى من والدته بعدها بأسبوع. كانت هذه المرة عبارة عن رسالة بالبريد السريع المسجّل، قالت فيها: «إن جئت على الفور فيمكنك الحصول على وظيفتك حالًا. يقول السيد هاريس إن لديه وظيفة ستصبح شاغرة يوم السبت، لأن أحد الصبية الذين يعملون في المصعد سيترك الوظيفة». وهوَت العملات النقدية التي تكفي لتغطي ثمن تذكرة ساندي.

استمر هدير القطار المتجه إلى شيكاغو طوال الليل بصريره وطقطقة عجلاته المستمرة، وفي إحدى عرباته، سحب ساندي من جيبه رسالتَي أنجي وأعاد قراءتهما للمرة العاشرة منذ مغادرة سانتون. بالكاد استطاع تصديق أنه متّجه بنفسه إلى شيكاغو لحظتها!

تناثرت الأوراق على الأرض، وامتلأت العربة برائحة الموز والأقدام البشرية. كانت الأضواء خافتة، وقد نام معظم الركّاب في المقاعد مستقيمة الظهر المغطاة بالقطيفة الخضراء، إلا أن ساندي ظل مستيقظًا. انفعال رحلته الأولى التي ستدوم طوال الليل، وتوقعاته الحالمة بالمدينة العظيمة؛ كانت أكبر من أن تسمح لصبيّ يبلغ من العمر ستة عشر عامًا بالنوم بسلام، على الرغم من أن الرجل المجاور له كان يشخر منذ فترة طويلة.

وصلت رسالة أنجي عبر البريد المستعجل في ذلك الصباح. اكتشف ساندي ذلك عندما عاد إلى المنزل لتناول الغداء، وإبان عودته إلى المدرسة الثانوية ليحضر فصول بعد الظهر؛ ذهب إلى المدير على الفور للاستفسار عن إمكانية إعفائه من الأيام المتبقية للفصل الربيعي.

قال البروفيسور بيركنز وهو ينظر من فوق نظارته إلى الشاب الملون الواقف أمامه: «لنرَ! درجاتك جيدة جدًا، أليست كذلك يا روجرز؟ ستذهب إلى شيكاغو إذًا؟ حسنًا، أظن أننا نستطيع السماح لك بالتحويل وسنمنحك كل درجاتك لأعمال هذه السنة من دون الانتظار لإجراء الاختبارات، لم يتبق سوى حوالى عشرة أيام للفصل، أنت طالب متفوق وستجتاز كل امتحاناتك بشكل جيد. حسنًا، إن أرسلت لنا عنوانك حينما تصل إلى شيكاغو فسنرسل إليك تقريرك المدرسي... تنوي الالتحاق بمدرسة هناك، أليس كذلك؟... أجل! أحبّ رؤية جماعتكم يرتقون... حسنًا، حظًا سعيدًا لك يا جايمس». نهض العجوز المحترم ومدّ يده.

فكّر ساندي: «إنه عجوز طيب. كانت الآنسة فراي معلّمة جيدة أيضًا! بعض البيض لطيفون بالفعل! ليسوا لئيمين جميعًا... يا إلهي! كره العجوز برينتيس رؤيتي أغادر محلّه، قائلًا إنني كنت أفضل صبي عملَ لديه، حتى وإن كنت أتأخر من حين إلى آخر. يا إلهي! لا بدّ أن شيكاغو عظيمة! وأنا سعيد بالتأكيد لمغادرة منزل تيمبي. إنها صارمة جدًا!».

إلّا أن تيمبي لم تُسعد لرؤية ابن أختها يرحل، صارت مولعة بالصبي على الرغم من محاضراتها له كل ليلة تقريبًا بشأن سلوكه، وعلى الرغم من أنه لم يرتقِ إلى نموذجها المثالي للشاب أبدًا. لا يعني ذلك أنه كان سيئًا، لكن أمكن أن يكون أفضل بكثير! أرادت أن تُري جيرانها البيض فتى ملونًا مثاليًا، وفتى كهذا لن يستخدم بالتأكيد الألفاظ السوقية، أو يكون محبًا لصالات البلياردو أو يتبع كنيسة غير الأسقفية. منحت تيمبي ساندي

كل الفرص الممكنة لدخول مجتمع نخبة الملونين لكنه لم يستغلها. ومع ذلك، فقد بكت قليلًا وهي تحزم له وجبة عشاء ليأكلها في القطار. فعلت كل ما في وسعها، كان ولدًا حسنَ المظهر، وذكيًا جدًا. لا بأس إن أراد الذهاب إلى والدته، حسنًا، قالت له: «كلّ ما آمله هو ألا تفسدك شيكاغو. إنها مدينة شريرة! وداعًا يا جايمس. تذكّر كل ما حاولت تعليمك إياه. قف باستقامة وابدُ كأنك صاحب شأن!».

غابت سانتون، موطن ساندي في كانساس، في الظلمة خلفه، وانطلق القطار سريعًا نحو المركز العظيم الذي رغب كل أولاد البلدات الصغيرة في الغرب الأوسط في الذهاب إليه.

فكّر ساندي: «أنا ذاهب الآن! ذاهب إلى شيكاغو الآن!».

ذهب قبل بضعة أسابيع لرؤية الأخت جونسون، التي أعياها الروماتيزم كثيرًا. جلست في زاوية مطبخها تدخن بغليون مصنوع من كوز الذرة، ولم تعد قادرة على غسل الملابس، لكنها ظلت قادرة على مواكبة فيض الأخبار السريع، فأخبرته جميع الأنباء.

«توم، ما زال يتولّى المحرقة في البنك وهو مفيد نوعًا ما... ويلي ماي، أعتقد أنك تعلم هذا، قرّرت الزواج الشهر المقبل من موس جينكينز، وأنصحها بالبقاء عازبة، وشابة كما هي، لكنها لا تستمع إليّ. دعها تفعل ما تشاء! هل علمت أن ابنة الأخت وايتسايد أحضرت زوجها الثالث إلى المنزل ليقيم مع أمها، ويقيم معهم أطفالها الخمسة من زوجها الأول أيضًا؟ لا تحترم الفتيات الكبار. تقول الأخت وايتسايد إنها لو لم تكن مسيحية في الصميم، لم تكن لتتحمل ذلك!... أخبرت ويلي ماي أنه من الأفضل ألا تحضر أي رجل ليعيش معي هنا، إن فعلت ذلك سأطرده! يجب أن يخجل أولئك الرجال من أنفسهم لأنهم يعيشون على حساب نسائهم».

ومع حديث المرأة العجوز فكّر ساندي في جدّته، محدّقًا من النافذة إلى المنزل المجاور، حيث عاش مع الخالة هاغر. كان بعض الأطفال الصغار يلعبون في الفناء الخلفي، يركضون ويصيحون. كانوا أطفال العائلة الجنوبية الذين أجّرتهم تيمبي المكان... مدام دي كارتر التي ما تزال تملك البيت الثاني تم تعيينها كضابطة كبيرة في قسم النساء في المحفل، وعلّق العديد من أعضاء المحفل صورًا كبيرة لها على جدران منازلهم مرتدية بدلتها الخاصة الكاملة، وقد كُتب عليها: «لكم في نعمته»، وحملت توقيع (مدام فاني روزالي دي كارتر).

«كانت مجرد (العجوز روز كارتر) قبل أن تصبح مهمة جدًا»، قالت الأخت جونسون مفسّرة طول اسم جارتها: «كل تلك النساء اللواتي سمّتهنّ أمهاتهن جين وماري وكورا؛ قريبًا سيصبحن ذوات شأن، يغيّرن أسمائهنّ إلى جانيتا أو ماريانا أو كورينا أو إلى أسماء منمّقة أكثر من أسمائهن الحقيقية. تقول ويلي ماي إنها ستغير اسمها إلى ويليتا مايولا، وقد قلت لها إنني في حال فعلت ذلك فسأضربها مهما كان عمرها!».

أحَبّ ساندي الاستماع إلى أحاديث العجائز الملونين غير المترابطة. «أعتقد أنه لن يكون هناك الكثير منهم في شيكاغو»، قال في قرارة نفسه، بينما أرجع ساقيه الطويلتين أسفل المقعد ذي القطيفة الخضراء في العربة النهارية. «من الأفضل أن أنام، ما زال ينتظرني طريق طويل حتى الصباح».

على الرغم من أن يونيو لم يكن قد حلّ بعد، إلا أن الحرارة كانت هائلة وقتها، حاملًا الحقائب القديمة التي أعطته تيمبي إياها، ترجّل ساندي من القطار المغبر في شيكاغو وسار على امتداد السقائف إلى المحطة. لمح والدته تنتظر وسط الحشد، وهي أكثر بدانة وأكبر بكثير مما يتذكرها؛ ولم تعرفه بداية وسط فيضان الناس القادمين من القطار. ربما،

في لا وعيها، كانت تبحث عن الولد الصغير الذي تركته في سانتون؛ لكن ساندي صار أطول من أنجي الآن، وبدا شابًا في بدلته الزرقاء وبنطاله الطويل. لفّته والدته بذارعيها الممتلئتين وظلت تعانقه وتقبله لفترة طويلة.

توجّها إلى أعلى المدينة بالترام، وبدأت أنفاس أنجي تتقطع لمساعدته في حمل الحقائب، وكلاهما يتعرقان بغزارة بسبب الحر. ولم يكثرا الكلام أيضًا، عمّ بينهما صمت غريب وغير متوقع، ظلت أنجي بعيدة خمس سنوات عن ابنها الذي يكبر، ولم يعد ابنها طفلها الصغير المتشوق لقبلة. استطاعت أن ترى من الجروح البسيطة على وجهه أنه قد بدأ يحلق ذقنه. وقد صار صوته رجوليًا، عميقًا وموسيقيًا مثل صوت جيمبوي، لكنه لم يثبت على حاله بعد.

إلا أن ساندي لم يكن يفكر في أمه بينما كانا في الترام متوجّهين إلى أعلى المدينة. كان ينظر من النافذة إلى المستودعات الرمادية القذرة المصطفة على جانبي الشوارع التي يعبرونها. لم يكن يتوقع أن تكون المدينة العظيمة رتيبة وقبيحة هكذا، وشعر بخيبة أمل مبهمة. لا أبراج ولا أحلام تتحقق! أين كانت رؤى العظمة الساحرة التي حملها؟ مخبأة في الشوارع المتربة؟ مخبأة في الأزقة الطويلة الحارّة التي كان يستطيع من خلالها رؤية سكك القطارات المعلّقة عن بعد؟

«الترامات أبطأ، لكنني لم أعتد تلك القطارات المعلقة في الهواء بعد» قالت أنجي، بعد أن بحثت في عقلها عن شيء تقوله. «أفكر دائمًا في أن تلك العربات المعلّقة ستسقط في وقت ما، إنها تنطلق بسرعة كبيرة جدًا!».

«لكنني أعتقد أنني سأفضّل ركوبها» قال ساندي وهو ينظر إلى المساكن الرتيبة التي تشبه الصناديق والأزقة الكئيبة على مستوى الأرض. لا أشجار، لا حدائق، لا عشب مثلما اعتاد في دياره، ومع ذلك -من

ناحية أخرى- لم يكن هناك ضخامة أو جمال في تلك المستودعات القاتمة والمتاجر المثيرة للشفقة التي تعانق الرصيف. لكن سرعان ما بدأ الشارع يأخذ منحىً عِرقيًا وصار ينبض بالحياة أكثر بلون داكن. اتكأ كل الزنوج على النوافذ برؤوسهم الشعثاء، أو جلسوا يهوّون أنفسهم عند المداخل وقد باعدوا بين سيقانهم، يتحدثون مرتدين الكيمونو ويتسكعون في ملابس العمل، وشيئًا فشيئًا صاروا جزءًا من البانوراما العابرة.

قالت أنجي: «هذا شارع ستيت، يسمّونه الحزام الأسود، علينا النزول في غضون دقيقة، هل حقيبتك معك؟».

رنّت أنجي الجرس ومشيا في الشارع السابع والثلاثين باتجاه جادة واباش. كان الظل البارد للشرفة الصغيرة التي صعدت إليها أنجي أكثر من احتفاء، وبينما أخرجت مفتاحها لفتح الباب الأمامي؛ جلس ساندي على الدرج ومسح جبهته بمنديل قذر. في الداخل عمّت الردهة كآبة قاتمة، فاحت منها رائحة زيت الشعر وبخار الملفوف المتصاعد.

قالت أنجي: «أظنّ أن السيدة هاريس في المطبخ. هيا.. سنصعد إلى الأعلى وسأريك غرفتنا، أظن أننا نستطيع الإقامة معًا حتى يتحسّن حالنا، ما زلت صغيرًا بما يكفي لتنام مع والدتك، أليس كذلك؟».

دخلا الردهة المظلمة تمامًا في الطابق الثاني، وفتحت والدته بابًا يؤدي إلى غرفة خلفية فيها نافذتان تطلان على الزقاق، تطلان بقرب شديد على الأساس المرتفع الذي يمر عليه قطار وسط المدينة فجأة فيطلق هديرًا يصمّ الآذان ويجعل المنزل بأكمله ينتفض وإطارات النوافذ تقعقع. كانت هناك مغسلة مع وعاء أبيض وإبريق، صندوق ثياب أنجي، كرسي، وسرير نحاسي مغطى بملاءة جديدة وأغطية، وسائد منشاة على شرف وصول ساندي.

قالت أنجي: «انظر، هناك متسع كافٍ لكلينا، وسنوفر الإيجار. لا توجد خزانة، لكننا نستطيع وضع بعض المسامير الإضافية خلف الباب. ويمكن أن يدخل الكثير من الهواء عبر النافذتين في هذه الليالي الحارة».

«إنها جميلة يا أمي» قال ساندي، لكنه اضطر إلى تكرار ما قاله مرتين، بسبب مرور قطار معلّق آخر جعله لا يستطيع سماع كلماته وهو ينطق بها «إنها جميلة بشكل رهيب يا أمي!».

خلع معطفه وجلس على صندوق الثياب بين النافذتين. جاءت أنجي إليه وقبّلته، مداعبة شعره البنّي المجعّد بيدها.

«حسنًا، أنت ولد كبير الآن... طفل أمك، ترتدي سروالًا طويلًا. وأنت وسيم، مثل والدك تمامًا!». كانت قد علقت صورة جيمبوي في إحدى زوايا المغسلة، صورة بطاقة بريدية بزيّه العسكري، بدا فيها صبيانيًا وفخورًا بنفسه للغاية، تم إرسالها من معسكر التدريب قبل ذهاب سريّته إلى فرنسا. «لكن ليس لديّ وقت للبقاء هنا ورعايتك يا ساندي، حتى لو كنتَ قد جئت لتوك، عليّ العودة إلى صالون تصفيف الشعر لجني بعض المال».

لذا عادت أنجي إلى عملها، حيث غابت بما يكفي لتنتظر وصول القطار، واستلقى ساندي على السرير ونام هربًا من حرّ بعد الظهر. تناولا العشاء ليلتها في المطعم احتفالًا بساندي، حيث اختارت أنجي الأطعمة بحذر من قائمة الطعام الرخيصة حتى لا تكون فاتورتهما مرتفعة.

قالت له: «لكن لا تظن أن هذا أمر معتاد، لا يمكننا تحمّل هذه التكاليف. أُحضر الأغراض إلى المنزل وأطبخ على موقد زيت في الغرفة وأفرش الأوراق على صندوق الثياب لأستخدمه كطاولة. هذا العشاء في المطعم على شرفك فحسب».

حينما رجعا إلى المنزل في تلك الأمسية، تعرّف ساندي إلى السيدة هاريس صاحبة المكان، وزوجها عامل المصعد، الذي كان من المقرر أن يؤمّن له الوظيفة في الفندق.

قال لها، وهو يقدّر ساندي: «ولدك حسن المظهر يا سيدة روجرز. سيبلي بلاءً حسنًا في إحدى مصاعد البهو الرئيسة، بما أننا لا نستعين سوى بالأذكياء حيث أعمل، كما أخبرتك. ولا ينزل لدينا سوى نخبة البيض أيضًا... كن مستيقظًا في السادسة صباحًا يا رفيقي، وسأصحبك إلى وسط المدينة معي».

كانت أنجي متعبة، لذا صعدا إلى الغرفة الخلفية في الطابق العلوي وأشعلا مصباح الغاز فوق السرير، لكن الهدير المتكرر للقطارات المعلّقة قاطع محادثاتهما الهادئة وجعل ساندي يقفز كلما مرت سلسلة العربات الطويلة مدوّيةً. لم يكن قد اعتاد عليها بعد، أو على طنين المدينة الهائل، الذي كان غريبًا على أذنيه اللتين اعتادتا هدوء مدينته الصغيرة. وأراد الخروج والتسكع في الأرجاء قليلًا، السير في الشوارع ليلًا ورؤيتها.

قالت له والدته: «حسنًا، اذهب إن أردت، لكن لا تنسَ رقم هذا المنزل. سأستلقي، لكن أظن أنني سأكون مستيقظة حينما تعود. أو سيكون هناك أحد يجلس على الشرفة وسيكون الباب مفتوحًا».

توقّف ساندي عند الزاوية ونظر حوله للتأكد من اتجاهاته عندما يعود. أبقى في ذهنه لوحة شسترفيلدز الإعلانية والمنزل المقبّب بسلالمه المتداعية في الخارج. كان في الشارع بضعة أطفال يلعبون الحجلة تحت ضوء المصباح القوسي. توقّف أحدهم بجانبه.

قال رجل صغير أصفر البشرة بصوت أنثوي، وهو يبتسم لساندي: «أليست أمسية جميلة؟».

«بلى» أجابه الفتى وهو يعبر الشارع، لكن الغريب لحقَ به، عارضًا عليه سجائر (بال مول). فاحت منه رائحة العطر، وبدا وجهه كما لو كان مغطى ببودرة بيضاء وهو يشعل سيجارته مستخدمًا ولاعة صغيرة.

غمغم بصوت ناعم، وهو يشعل سيجارة ساندي: «أأنت غريب عن المدينة؟».

«أنا من سانتون»، أجابه، متمنيًا ألا يكون الرجل قد قرّر السير معه.

«آه كنتاكي»، صاح الشاب المعطّر «ذهبت إلى هناك من قبل، نساء تلك المدينة جميلات، ألسن كذلك؟».

اعترض ساندي: «لكنها ليست في كنتاكي. إنها في كانساس».

«في الغرب حيث تتوق الفتيات للذهاب! عرفتها! إنهن مثل الخيول البرية هناك، شهوانيات للغاية، ألسن كذلك؟».

«أعتقد ذلك»، غامر ساندي بالرد. كان صوت الرجل الذي وضع البودرة راسخًا بهدوء.

همس برقّة، وهو يلمس ذراع الولد: «حسنًا يا فتى، اسمع، لديّ بعض الصور الفرنسية الفاخرة في غرفتي، نساء عاريات وكل شيء! أتريد الصعود ورؤيتها؟».

«لا»، قالها ساندي مسرعًا في خطاه. «عليّ الذهاب إلى مكان».

أصرّ الصوت: «لكنني أقطن عند الزاوية تمامًا، تعال معي، أنت فتى جميل، أتعرف ذلك؟ اسمع، لا تمشِ بسرعة.. توقّفْ، دعني أتحدث إليك».

إلا أن ساندي كان قد بدأ يستوعب. انسابت قطرات عرق باردة على رقبته وجبينه. في بعض الأحيان، في صالة البلياردو في سانتون، سمع الرجال يتحدثون عن شبّان شاذين أوقفوا الأولاد في الشوارع وحاولوا إقناعهم بالذهاب إلى غرفهم.

فكّر ساندي: «يظنني أحمقَ، لكنني أعرف ما يريد!» إلّا أنه تساءل عمّا يفعله أولئك الرجال بالأولاد الذين يصحبونهم. غمره الفضول، أراد اكتشاف ذلك، لكنه كان خائفًا؛ لذا التفّ عند الزاوية التالية وانطلق مسرعًا باتجاه شارع ستايت، إلّا أن الشاب الشاذ ظل قريبًا منه، متوسّلًا إياه.

«..وسنقضي أوقاتًا ممتعة... لديّ نبيذ في الغرفة، إن كنت ترغب في احتساء القليل منه، ولديّ بيرة أيضًا...».

«هلّا ابتعدت عنّي!».

وصلا إلى شارع ستيت حيث كانت الأضواء مشعّة ويمر الناس طوال الوقت. تمكّن ساندي من رؤية وجه الشاب القلق بوضوح الآن.

«اسمع يا فتى... أنت...».

لكن فجأة لم يعد ساندي بجانب الرجل، لأنه شرع في الركض، استولى عليه الذعر في الشارع المضاء ببهاء، اضطر إلى الهرب من ذلك الوجه المغطّى بالبودرة الذي لم يفارقه، أصابه الصوت المتأوّه بالإعياء، ومن دون أن يدرك تقريبًا، بدأت ساقاه تزوغان بين الحشد على طول الرصيف. حينما توقف أمام مسرح مونوغرام، على بعد مربّعين سكنيّين، كان قد تحرّر من مُرافقه.

«يا إلهي! هذا جيد»، قالها ساندي لاهثًا، وهو ينظر مبتسمًا إلى الصور أمام دار عرض مسرحيات الفودفيل الهزلية، بينما كان مئات الأشخاص من ذوي البشرة الداكنة يمرون جيئة وذهابًا على الرصيف خلفه. كان العديد من الناس يدخلون إلى المسرح، وهم يضحكون ويتدافعون، لأن إحدى أعظم مغنيات البلوز التي تنتمي إلى فرقة عائلة سميث ستغني هناك. سار ساندي نحو كشك التذاكر ليرى ما الأسعار.

«هلّا اشتريت لي تذكرة؟» قال صوت أنثوي بجانبه. كانت هذه المرة فتاة، فتاة قبيحة للغاية، نحيلة، كشفت ابتسامتها عن صفّ من الأسنان المتسخة. انسلّت إلى الصبي المذهول الذي خاطبته وأمسكت يده.

قال ساندي باختصار: «لن أدخل»، بينما تراجع، ماسحًا كفّ يده بكمّ معطفه.

«حسنًا إذًا، يا لك من بخيل!» همهمت الفتاة، وهي تحرك ردفيها بينما تبحث في حقيبتها عن عملة لشراء تذكرة. «معي نقود».

ضحك بعض الرجال الواقفين على طرف الرصيف بينما صعد ساندي إلى أعلى الشارع. مشى طفل أسود صغير ببطء إلى الحشد، وقد بدا وحده، وهو يلعق مخروطًا كبيرًا من الآيس كريم بالشوكولاتة كان يقطر على الجزء الأمامي من ثوبه.

إذًا؛ هذه هي شيكاغو، حيث المباني مثل الأبراج والبحيرة مثل البحر... شارع ستيت، أعظم شوارع الزنوج في العالم، حيث الناس سعداء دومًا، والأضواء ساطعة إلى الأبد؛ وحيث تُوجد أجمل النساء السمراوات على وجه البسيطة. هذا ما قاله الرجال في سانتون.

قال ساندي في قرارة نفسه: «أعتقد أنني لم أسلك الطريق الصحيح، لكن ربما سأرى أشياء أخرى غدًا، منطقة لوب والبحيرة والمتحف والمكتبة، ربما ستكون أفضل». التفّ إلى شارع جانبيّ عائدًا باتجاه جادة واباش. كان المكان أكثر ظلمة هناك، ونادته امرأة متزينة بالقرب من الزقاق، خارجةً من بين الظلال.

«عزيزي، تعال إلى هنا!»، لكن الصبيّ تابع طريقه.

رعد قطار معلّق مرّ فوقه، وهو يومض بفيض الضوء الأصفر على الرصيف أمامه.

دخل ساندي إلى جادة واباش وعبر الشارع. وبينما اقترب من جمعية الشبّان المسيحيين الملونين؛ خرج ثلاثة شبّان واضعين ألبسة السباحة الخاصة بهم على أذرعهم، وقال أحدهم: «يا للهول! لكنها مثيرة!»، صعدوا إلى أعلى الشارع ضاحكين وهم يتحدّثون بنبرات ودودة، وحادوا عند الزاوية.

فكّر ساندي: «لا بد أنني قريب من المنزل»، بعدما وجد مجموعة من الأطفال ما زالوا يلعبون تحت ضوء الشارع. ومن بين المباني المتهالكة الأخرى ميّز المنزل المبنيّ من الطوب حيث يقيم. كانت الشرفة الأمامية لا تزال مكتظة بالنزلاء الذين يحاولون تبريد أجسامهم، وعندما وصل الصبي إلى أسفل الدرج تحرّك بعض الشبان الجالسين هناك للسماح له بالمرور.

نادته السيدة هاريس: «مساء الخير يا سيد روجرز»، وبما أن ساندي لم ينادِه أحد بالسيد روجرز من قبل قَطّ؛ أشعرَه ذلك بأنه رجل حقًا، وببعض الحَرج وهو يشق طريقه عبر مجموعة الناس على الشرفة.

وجد والدته في الطابق العلوي نائمة بعمق على أحد جانبي السرير. خلع ملابسه ليظل بملابسه الداخلية، وزحف إلى الجانب الآخر، لكنه ظل مستيقظًا لوقت طويل بسبب الحرّ الخانق وضيق غرفتهما. عضّ بعوضٌ صغير ساقيه. كلما أوشك على النوم مرّ قطار معلّق هادرًا، وهو يصيح خارج نافذتيهما المفتوحتين ليضيء الغرفة ويهزّ المنزل بأكمله. كلما جاء القطار وثبَ وارتجف كما لو كان تنينًا مباغتًا يندفع إلى السرير. لكن بعد ذلك، عقب منتصف الليل، حينما قلّ تردّد العربات المعلّقة، واعتاد أكثر على مرورها، غطّ في النوم.

مصعد

ذهب ساندي في اليوم التالي إلى عمله كصبيّ مصعد في الفندق الواقع في منطقة لوب، حيث كان السيد هاريس كبير حمّالي الأمتعة. وخلال أشهر الصيف الحارة التالية استقرت حياته في شيكاغو تدريجيًا على روتين الشغل والعمل المنزلي، واعتاد السكن في غرفة أنجي الصغيرة الخانقة قبالة السكك الحديدية المعلّقة، حيث تقرأ والدته أخبار الحرب ليلًا وتبكي لأنها لم تتلقّ رسالة من جيمبوي. أكان والد ساندي في بريست أو سان لازار مع كتائب العمّال؟ أو على الجبهة؟ لم تعرف ذلك. قالت جريدة شيكاغو ديفندر إن الجنود الملونين كانوا يقاتلون في مقاطعة شامبانيا بشرف كبير، لكن أنجي بكت مرة أخرى حينما قرأت ذلك.

ردّد ساندي كل ليلة ليهدّئ والدته: «عدم وجود أي نبأ هو نبأ جيد»، لأنه لم يستطع تخيّل جيمبوي ميتًا «بابا بخير!»، لكن أنجي ظلّت قلقة وشبه مريضة طوال الوقت، وتبكي عند قراءة قوائم الموت خوفًا من أن تجد اسم زوجها.

كانت حرارة ذلك الصيف لا تُحتمل، الهواء أعلى المدينة في الحزام الأسود مثل دثار خانق حول الرؤوس. السماء في (لوب) كأنها معدن أبيض ساخن. ولم يشعر أحد بالراحة حتى أمام البحيرة ما لم يهرع إلى المياه المكتظة بالناس. وكانت هناك مجالات كبيرة من الشاطئ لم يرغب البيض أن يسبح الزنوج فيها؛ لذا غالبًا ما كان من الخطر أن تسبح إن كنت ملوّنًا.

تصبب ساندي عرقًا وهو يقف عند باب المصعد الذي يشبه الصندوق وفيه مرآة. ارتدى زيًا أحمر بأزرار نحاسية، ومعطفًا ضيقًا يتحتم عليه ارتداؤه مهما كان الجو حارًا. لكنه شعر بالفخر لأنه شغل أول وظيفة بدوام كامل، ليساعد والدته في إيجار الغرفة، ويحاول ادّخار بعض المال من أجل العودة إلى المدرسة الثانوية في الخريف.

إلّا أن احتمالات العودة إلى المدرسة على أيّ حال لم تكن مبشّرة. لم يستطع ساندي في بعض الأسابيع ادّخار نصف دولار حتى. وقالت أنجي إنها تعتقد أن عليه ترك المدرسة والعمل ليتولى أموره بنفسه، بما أنه أصبح رجلًا كبيرًا ونال حصة من التعليم أكبر مما نالته حينما كانت في مثل سنّه. لكن لم تكن الخالة هاغر لتوافقها الرأي، فكّر ساندي، متذكّرًا أحلام جدّته الكبيرة له. لكن أنجي كانت مختلفة، تتمتع ببعد نظر أقلّ مما كانت عليه والدتها، وعلّقت آمالًا أقلّ على ابنها، من دون أيّ طموحات كبيرة، فهي لم تكترث سوى بالحرب وجيمبوي.

كانت ساعات عمل ساندي في الفندق طويلة، وآلمته ساقاه وظهره لوقوفه بشكل مستقيم في مكان واحد طوال الوقت، وهو يفتح ويغلق باب المصعد البرونزي. تم تكليفه بآخر مقصورة مصعد في صفّ من ستة مصاعد، يدير كل منها شابّ ملوّن يقف داخل صندوقه المعدني بزيه الأحمر، مشغّلًا الرافعة التي ترسل المقصورة إلى الأعلى من حرّ القبو إلى المطعم ضمن حديقة على السطح في الطابق الخامس عشر، ثم ترجع إلى الأسفل مجدّدًا. طوال النهار يتكرر الصعود والنزول من دون توقف، حاملًا الضيوف البيض.

بعد شهرين من العمل بدأ ساندي يشعر أحيانًا أنه لم يعد يستطيع تحمّل الأمر. السيل نفسه من الناس أسبوعًا تلو الآخر؛ نساء متأنقات، ضباط، رجال أعمال، هواء بئر المصعد النتن المثقل برائحة الأنفاس وعطور الأجساد،

تنفتح الأبواب نفسها على الطوابق نفسها التي لا تتبدل مئات المرات لأيام رتيبة، لا تعدّ ولا تُحصى. يركب القطار المعلّق في الصباح؛ يركب القطار المعلّق مرة أخرى في المساء. يخرج إلى الشارع أو الشرفة بحثًا عن الهواء لبضعة دقائق، ثم يخلد إلى السرير. والشيء نفسه في اليوم التالي.

فكّر ساندي: «عليّ ترك هذا العمل، إنها وظيفة مريعة». لكن بعض الزملاء عملوا هناك منذ سنوات، ثلاثة من عمال المصعد في وردية ساندي أمضوا هناك أكثر من أربعين عامًا، ولم يتقدموا في حياتهم مطلقًا. كان السيد هاريس حمّال أمتعة منذ صباه، مكررًا الأمر نفسه يومًا تلو الآخر، وصار الآن فخورًا جدًا لأنه كبير حمّالي الأمتعة في شيكاغو.

«عليّ ترك هذا العمل»، ظلّ ساندي يكرر.

«أو ربما سأعلَق هنا أيضًا مثلهم ولن أخرج أبدًا، عليّ العودة إلى المدرسة».

لكنه أدرك أن أمّه تجني القليل جدًا من المال، حيث تعمل كمتمرنة بشكل أو بآخر في محلّ تصفيف الشعر، لتحاول تعلّم المهنة. وإن ترك عمله كيف سيعيش؟ لم تؤيّد أنجي عودته إلى المدرسة، وكيف له أن يدرس إن كان جائعًا؟ هل يستطيع أن يدرس إن كان قلقًا من أنه مفلس؟ قلقًا من استياء أنجي؟

قال: «أجل! أستطيع! سأتابع دراستي!» فكّر في بوكر واشنطن نائمًا تحت الأرصفة الخشبية في ريتشموند، لأنه لم يكن لديه مكان يُؤويه في طريقه إلى هامبتون بحثًا عن التعليم. فكّر في فريدريك دوغلاس، العبد الهارب الذي لم يملك نفسه حتى، ومع ذلك كان طالبًا. «إن استطاعا الدراسة، فأنا أستطيع أيضًا! حينما تفتح المدرسة أبوابها، سأترك هذه الوظيفة. ربما يمكنني الحصول على وظيفة ليلية أو بعد الظهر، لكن هذا لا يهم، سأعود إلى فصولي في سبتمبر... طويت صفحة المصاعد».

جيمبوي! جيمبوي! مثل جيمبوي! شيء ما في داخله حذّره، تترك العمل بلا مال، ومن دون اكتراث.

عارض ساندي نفسه: «لستُ مثل جيمبوي. لستُ مثل أبي الذي يرغب دائمًا في الذهاب إلى مكان ما. كنتُ لأسأم من السفر طوال الوقت، كما سئمت من تشغيل هذا المصعد صعودًا ونزولًا يوم تلو الآخر، أنا أشبه هاريت، لا أريد أن أكون خادمًا تحت رحمة البيض إلى الأبد، أريد أن أصنع من نفسي شيئًا، أريد أن أكون حرًا، أريد منزلًا أعيش فيه أيضًا حينما أكبر، مثل منزل تيمبي والسيد سيليز، لكنني لن أصير مثل أصدقاء تيمبي أو زوجها، بليدًا وبلا لون، يضع كل أمواله في بنك أبيض، يخجل من الناس الملوّنين».

قال السيد سيليز ذات مرة: «حفنة من مؤدّي عروض المنسترل، هذه حقيقة الزنوج! مهرّجون، مغنّو جاز، وفرقة من الراقصين، لهذا السبب لم يكن لديهم شيء قَطّ، لم يكونوا إلا خدمًا للبيض».

مهرّجون! مغنّو جاز! فرقة من الراقصين!... هاريت! جيمبوي! الخالة هاغر!... فرقة راقصين!... تذكّر ساندي جدّته وهي تلتف أمام المذبح في اجتماعات الإحياء في وسط الأخوات الأخريات، ووجهها يشعّ بالنور، وذراعاها ممدودتان كما لو أن كل هموم العالم طُردت؛ هاريت في الفناء الخلفي تحت شجرة التفاح، ترقص في أمسيات الصيف على أنغام الغيتار؛ جيمبوي يغني... لكن ألذلك السبب كان الزنوج فقراء، لأنهم كانوا راقصين، مغنّي جاز، ومهرجين؟... العكس هو الأصح: راقصون بسبب فقرهم؛ مغنّون بسبب معاناتهم؛ يضحكون طوال الوقت لأن لا بديل عن النسيان... هذا أقرب إلى الحقيقة، فكّر ساندي.

فرقة من الراقصين... راقصون سود مأسورون في عالم أبيض... وهم يراقصون الروح أيضًا. كل حالم أسود راقص أسير للروح... حلمت الخالة هاغر لساندي بأن يرقص خارجًا إلى ما وراء حدود فقرهم، مكانتهم المتواضعة في الحياة، وبشرتهم الداكنة.

«أريدك أن تصير رجلًا عظيمًا يا بنيّ»، كثيرًا ما قالتها له وهي تجلس على الشرفة في الظلمة، تغني، تحلم، تستذكر الماضي البعيد، وتخلق أحلامًا داخل الطفل «أريدك أن تصير رجلًا عظيمًا».

«وأنا لن أخيب أملك!» قالها ساندي في صيف شيكاغو الحار ذاك، كما لو أن هاغر لا تزال هنا تخطط له، «لن أخيب أملك!»، قالها وهو يقف باستقامة في بدلته الحمراء التي تجعله يتصبّب عرقًا في قفص مصعد الفندق. «لن أخيب أملك أيتها الخالة هاغر»، وهو يحلم ليلتها في تلك الغرفة الصغيرة الخانقة في حزام شيكاغو الأسود العظيم. «لن أخيب أملك الآن»، وهو يفتح عينيه عند الفجر عندما هزّته أنجي لينهض ويذهب إلى العمل مجدّدًا.

أميرة البلوز

في أحد أيام الاثنين الحارة في شهر أغسطس افتتحت هاريتا ويليامز -التي وُصفت بـ«أميرة البلوز»- عرضَها في مسرح مونوغرام في شارع ستيت. كانت اللافتة قد أبرزت جزءًا من عرضها الأسبوع الماضي، لذا عرف ساندي أنها ستحضر إلى هناك، وكان ووالدته ينتظران ظهورها بفارغ الصبر. لم يستطيعا معرفة أين ستمكث قبل العرض. أسرع ساندي في العودة من عمله في وقت مبكر من أمسية ذاك الاثنين، وتمكن وأنجي من الحصول على مقاعد في المسرح، امتلأت القاعة ووقف الناس في الممرات على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا على بدء العرض.

كان جمهورًا تقليديًا من الحزام الأسود، يضحك بصخب، يدقّ بقدميه على إيقاع الموسيقى، يمازح الممثلين، ويشارك في العرض أيضًا. صفوف من الوجوه السوداء المشرقة، أسنان بيضاء لامعة، رؤوس متمايلة. يُمضون جميعًا وقتًا رائعًا في الفودفيل، خاطفًا ومسلّيًا. قام راقص صغير بتأدية الرقص النقري بقدميه بشكل إيقاعي على المسرح، وابتسامته ممتدة من أذن إلى أخرى، مؤديًا خطواته على الموسيقى العذبة، مختتمًا رقصته بسلسلة من الالتواءات المعقدة والرائعة التي جعلت الجمهور يهزّ المسرح بتصفيقه. ثم حانت فقرة المغنيات، مع مجموعة من الأناشيد العاطفية التي قدمتها بطريقة تنتمي بكاملها إلى الجاز. حتى أنهم غنوا أغنية الأم الكئيبة جدًا محرّكين أردافهم بمرح على كل إيقاع.

أوه! ماذا عساي أفعل

من دونك يا عزيزة،

يا أمي الحلوة؟

تنهّدن بوقار، وأفخاذهن ترتجف.

«أوه! ارقصن أيتها الفتيات الجميلات!»، صاح الرجال والفتيان من الجمهور باستحسان. «سنكون أمّك وأباك أيضًا! ارقصن أيتها الفتيات الجميلات!».

وطأ ثنائي من الكوميديين ذوي الوجه الأسود خشبةَ المسرح حينما خرجت الفتيات، وبدأت السلسلة المعتادة من النكات القديمة والكوميديا اللاذعة.

قال ساندي بينما كان هو وأنجي يضحكان باضطراب على الكوميديين: «يا إلهي! أتمنى أن يأتي دور فقرة الخالة هاربيت».

بدأ الشابان اللذان سوّدا لونهما بأغنية تُدعى تمشية الكلب، محرّكَين أحذيتهما المدببة، ملتفّين بوسطيهما مثل خفّاقة البيض، وخرجا تحت هدير من الضحك والتصفيق. ثم ارتفعت الخلفية القماشية التي عليها مشهد شارع، لتكشف عن خلفية رائعة من المخمل الأزرق، مع بيانو وأباجورة طويلة في وسط المسرح.

«جاء دور فقرة هاربيت»، همس ساندي بحماس حينما ظهر شاب طويل فاتح البشرة وأملس الشعر وشرع في العزف على البيانو. «هذا بيلي ساندرلي يا أمي!».

قالت أنجي: «عرفته بالطبع!».

خُفتت أضواء المسرح وأُنير ضوء كاشف فجأة، وقد ثُبّت على يمين المسرح. ثم -خارجةً من بين الستائر الزرقاء- دخلت هاربيت في ثوب برتقاليّ متوهّج، بدا كالنيران فوق بشرتها التي يشبه لونها خشب الأبنوس، بدت بربريّة، لكن جميلة وكأنها أميرة غابة. تمايلت باتجاه أضواء المسرح، بينما داعب بيلي مفاتيح البيانو عازفًا موسيقى جاز رقيقة حائرة. ثم بدأت

تدندن أغنية جديدة، نسخة مشهورة من لحن زنجيّ قديم، أُعيد تشكيلها بكلمات من برودواي.

صاح ساندي لوالدته: «يا إلهي! الخالة هاري أجمل من أيّ وقت مضى!».

قالت أنجي: «إنها هاريت القديمة نفسها، لكن صوتها أصبح أجش قليلًا».

«لكنها تغني بشكل جيد»، صرخ ساندي عندما بدأت هاريت تطقطق بأصابعها، لتضفي حيوية هادئة وراقصة على الكورس، ومحركةً عينيها اللامعتين على نغم الألحان، بينما كان البيانو يموج ويبكي تحت أصابع بيلي ساندرلي الناعمة.

غمغمت أنجي: «إنها هاريت نفسها».

حينما ظهرت مرة أخرى مرتدية مريلة من قماش كاليكو الأزرق، وقد عقدت منديل حول رأسها، مشت ببطء شديد. بدأ الرجل على البيانو بعزف البلوز، موسيقى البلوز الشعبية القديمة والمألوفة، وغرق الجمهور في صمت حسيّ لم يخترقه سوى «يا ربي!... يا ربي! يا رباه!» من بعض شفاه الجنوبيين في مؤخرة القاعة، بينما غنت هاريت:

أيتها الشمس الحمراء، الشمس الحمراء، لم لا تشرقين اليوم؟

أيتها الشمس الحمراء، أوه أيتها الشمس! لم لا تشرقين اليوم؟

قلبي ينفطر، فقد رحل حبيبي.

صرخت امرأة تبعد بضعة صفوف خلف أنجي: «حقًا يا رب!» وتمايلت بجسدها.

أيتها الطيور الصغيرة، الطيور الصغيرة، ألن تغني هذه الصباح؟

أخبريني، أيتها الطيور الصغيرة المزقزقة، ألن تغني هذا الصباح؟

لا أستطيع النوم، فقد رحل محبوبي.

«وييبي!... الرحمة!... لا تتوقفي أيتها الفتاة!»، تعالت الهتافات والصيحات بين الجماهير المتفاعلة.

قال ساندي: «مثلما كانت تغني حين كان أبي يعزف لها». إلّا أن أنجي كانت تبكي، وهي تتذكر جيمبوي، وتتحسّس داخل حقيبتها بحثًا عن منديل. غرق صوت المغنية على المسرح، كما لو أنها تغني لنفسها في أنين مرّ، بينما كان المستمعون يترنحون ويتمايلون.

الصباح كئيب للغاية حين يغادر حبيبك السرير.

صباح كئيب، كئيب جدًا حين يغادر حبيبك السرير.

لأنك لو خسرت محبوبك، فستكون ميتًا أيضًا!

كانت أغنيتها الأخيرة راقصة، أدّتها بفستان لامع مع (الخرز) الأبيض، مختتمةً الفقرة بسلسلة من الخطوات المجنونة ودوران رشيق مفاجئ عبر المسرح بأكمله، بينما انضمت الأوركسترا إلى بيانو بيلي في قوس مبتهج من الجاز.

صاح الجمهور وصفقوا وصفروا طلبًا للمزيد، ضربوا الأرض بأقدامهم والتفتوا بعضُهم إلى بعض صارخين بتعليقات مستمتعة.

قال ساندي: «يا إلهي! إنها عظيمة!» حينما بدأت فقرة أخرى على المسرح بعد ختام فقرة هاربيت، كان متلهفًا للذهاب إلى غرفة الملابس لرؤيتها.

اعترضت أنجي بخوف: «ربما لن يسمحوا لنا بالدخول».

«دعينا نحاول» أصرّ ساندي ساحبًا والدته. «لا نريد سماع هذه المرأة البدينة تغني هناك رافعةً العلم. ستبدئين في البكاء على أيّ حال. تعالي يا أمي».

حينما دخلا إلى الكواليس، وجدا هاربيت واقفة عند باب غرفة الملابس تضحك مع أحد الكوميديين ذوي الوجه الأسود، وقد وضعت فروًا صيفيًا فوق كتفيها استعدادًا للخروج إلى الشارع. كان بيلي ساندرلي والفتى مؤدّي الرقص النقري يشربان الجن من زجاجة حملها بيلي، وكانت هاربيت تمسك كأسها حينما رأت ساندي قادمًا.

انزلق فراؤها على الأرضية، صرخت: «يا ربي!»، وهي تغمرهما بالقبلات «ماذا تفعلين في شيكاغو يا أنجي! يا إلهي، أنا سعيدة جدًا لرؤيتك يا ساندي!... أنا متفاجئة بالتأكيد، وسعيدة إلى حدّ البكاء... هل حضرتما فقرتنا الليلة؟ ألا يجيد بيلي العزف على البيانو؟... أيتها السموات العظيمة! ساندي، صرت أطول مني بمرتين! متى رحلتما عن الديار؟ كيف حال أختي ذات الوجه المكفهرّ تلك، تيمبي؟».

تم تعريف الجميع على القادمَين الجديدَين بعد العناق المتكرر. لاحظ ساندي خشونةً في صوت خالته. «أدخّن كثيرًا»، وضّحت الأمر لاحقًا «وأشرب كثيرًا أيضًا على ما أظن، لكن مغني البلوز يجب أن يغني بصوت عميق وأجش، لذا لا بأس».

استطاع ساندي سماع الجمهور يضحك خلف الستارة المسدلة، وصراخ أحدهم بين الفينة والأخرى على المؤدّين.

«هيا! فلنذهب ونأكل لقمة»، اقترحت عليهما أنجي بعدما هدؤوا أخيرًا بما يكفي ليقرّروا المضي قدمًا «أنا وبيلي جائعان على الدوام... أين جيمبوي يا أنجي؟ أظن أنه ذهب إلى الحرب! أظن أن ذلك الأسود الكبير ذهب والتحق بالتجنيد، سواء اضطر إلى ذلك أم لا. كان من المقرّر أن يذهب بيلي أيضًا، لكن الكحول أبعدته. حرب البيض هذه من أجل الديمقراطية ليست حامية الوطيس على أيّ حال!... ما رأيكما أن نتناول بعض الـ(شوب سوي) بدلًا من الذهاب إلى مطعم عادي؟».

ووجدوا في مقهى صيني مائدة هادئة، حيث تحدّثت الشقيقتان حتى بعد منتصف الليل، مع صمت ساندي وبيلي معظم الوقت. حدّثت هاربيت أنجي عن موت الخالة هاغر والجنازة التي كانت في يوم بارد وممطر، وكيف تصرفت تيمبي ببرود شديد عندما انتهى كل شيء.

قالت هاربيت: «رحلتُ عن سانتون بعدها بأسبوع، ولم أعد منذ ذلك الحين. مررتُ بأوقات عصيبة أيضًا، لكننا محظوظان الآن، أنا وبيلي لدينا حفلات في مسرح أورفيوم عمّا قريب، قد نؤدي عرضنا في مسرح بالاس في برودواي ذات يوم. لا أعرف! الأمور تسير بشكل جيد بالنسبة إلى عروض السود، لأن اليهود ليسوا مثل بقية البيض. لن يعاملوكِ بطريقة سيئة إن حقّقتِ لهم الأرباح، سواءً كنتِ ملوّنة أم لا. واليهود هم المسيطرون على المسارح».

لكن عاد بهم الحديث إلى سانتون، إلى زمن عاش فيه هاغر وجيمبوي وجميعهم معًا، يضحكون ويتشاجرون ويعزفون على الغيتار، بينما برد الشاي وتصلّبَ الـ(شوب سوي) متحولًا إلى خليط لزج مع بكاء الأختين. انهمك بيلي في تلك الأثناء بالكتابة بقلم رصاص قصير على مفرش المائدة، وهو يوضح لساندي نظامًا جديدًا ومعقدًا اكتشفه للمراهنة على أرقام اللوتو.

قال له: «أنا وهاري نلعب كل يوم، كسبنا الأسبوع الماضي في كليفلاند مائة وأربعون دولارًا».

صاح ساندي: «يا إلهي! يجب أن أبدأ اللعب، بكم تراهن على كل رقم؟».

«حسنًا، مقابل خمس سنتات يمكنك كسب...».

«لا، لن تلعب» وبّخته هاربيت عندما أدركت محادثة بيلي فجأة، وتوجّهت إلى ساندي وهي تمسح عينيها بمنديل «لا تقع في شرك تلك

الأرقام يا عزيزي!... ما الذي تحاول فعله يا بيلي، تريدُ أن تحرف الصبي إلى دربك؟... عليك متابعة تعليمك يا ساندي، وأن تحقق شيئًا ما... أظن أنك في المدرسة الثانوية، أليس كذلك يا فتى؟».

«في السنة الثالثة» قالها ساندي ببطء، فزعًا من جدال جديد مع والدته.

أضافت أنجي: «وهو عازم على متابعة الدراسة في الخريف، على الرغم من قولي له إنني لا أعرف كيف يُمكن ذلك. جيمبوي في مكان بعيد، الربّ أعلم أين، وبالتأكيد لا يمكنني الاعتناء بساندي وإرساله إلى المدرسة أيضًا. لا أرى داعيًا لذلك، لأنه كبير بما يكفي وفي سنّ مناسبة ليشغل وظيفة ويكسب رزقه. يجب أن يرغب في مساعدتي على أي حال. لكنه بدلًا من ذلك مصمّم على العودة إلى المدرسة».

«يكسب رزقه!» صاحت هاريت، وهي تنظر إلى أنجي في ذهول. «تقصدين أنك تريدين أن يترك ساندي المدرسة ليساعدك؟ ما فائدة المال القليل الذي يجنيه لك؟».

قالت والدته: «حسنًا، إنه يساعد في سداد إيجار الغرفة، ويتناول وجباته في مكان عمله، هذا أفضل من ذهابه إلى المدرسة والاعتماد عليّ لتدبّر الأمور».

«ماذا تقصدين بأفضل؟» صرخت هاريت، وهي تحدّق إلى شقيقتها بانفعال، متناسيةً بكاءهما معًا منذ خمس دقائق. «يا للعجب، أفضل؟ حسنًا، كانت الخالة هاغر لتتقلّب في قبرها إن سمعتك تتحدّثين بهذا الهدوء عن ترك ساندي للمدرسة، فقد أرادت أن تصنع شيئًا من هذا الفتى.. كم تكسب أسبوعيًا؟» سألت هاريت فجأة، وهي تنظر إلى ابن أختها عبر الطاولة.

«أربعةَ عشر دولارًا».

قالت هاربيت: «أفّ! أهذا كل ما تتقاضاه؟ يمكنني أن أعطيك هذا المبلغ، لدينا حفلات مستمرة حتى عيد الميلاد، كما أن العمل في الملاهي جيد هنا، يمكنني وبيل تولّي أمر النقود، ولتذهب أنت إلى المدرسة».

قال ساندي، وقد شعر بالرضا فجأة: «أريد ذلك يا خالتي هاري».

«نعم، أيها الشاب» أضاف بيلي «وسأعطيك بعض الفكة، لتراهن على الأرقام» أضاف غامزًا إياه.

بدأت أنجي في الكلام: «حسنًا، ماذا عن...».

إلّا أنّ هاربيت تجاهلت مداخلة بيلي وفم أختها المفتوح «تشغّل مصعدًا مقابل أربعة عشر دولارًا في الأسبوع وتترك تعليمك!» صاحت «يا رباه! أنجي، يجب أن تشعري بالخجل من نفسك لأنك أردت منه الاستمرار في ذلك. يجب أن يتقدّم هذا الصبي، نحن الزنوج جميعًا متخلّفون كثيرًا في بلد البيض هذا لندعَ أيّ عقول لمّاحة تذهب سدى! ألا تدركين هذا؟... أنا وأنتِ كنا حمقاوين، فطرنا قلب أمي، تركنا المدرسة، لكن ساندي لا يستطيع أن يكون مثلنا، يجب أن يصير كما أرادت له جدّته هاغر، ليستطيع مساعدة العِرق الأسود يا أنجي! هل تسمعين ما أقول؟ مساعدة العِرق بأكمله!».

قال ساندي: «أريد ذلك».

«إذًا ستبقى في المدرسة!» أكّدت هاربيت وهي ما تزال تنظر إلى أنجي. «أنت بالتأكيد لا تريدين له أن يعلق في ذاك المصعد إلى الأبد لمجرّد أن يعينك، أليس كذلك يا أختي؟».

غمغمت أنجي وهي تهز رأسها: «أعتقد أنني لا أريد ذلك».

اختتمت هاربيت كلامها: «تعلمين جيدًا أنك لن تريدي ذلك».

وقبل أن يفترقوا وضعت عملة نقدية من فئة العشرة دولارات في يد ابن أختها.

«هذه من أجل كتبك» قالت له.

حينما مضى ساندي ووالدته في طريقهما إلى المنزل، كان الوقت متأخرًا جدًا، لكن في كنيسة جنوبية صغيرة ضمن شارع جانبي؛ كان بعض المصلين السود العجائز لا يزالون يعقدون اجتماعهم الليليّ، وكانوا يغنون بصوتٍ عالٍ وبحماسة:

وشيئًا فشيئًا حينما يحل الصباح،

سيجتمع القدّيسون والخطاة جميعهم في الديار...

مع تدفق الصوت العميق عبر الباب المفتوح، توقّفت أنجي وابنها للاستماع.

قال ساندي: «هذا مثل ما كان يحدث في سانتون، ومثل الخيمة في غابات هيكوري».

«بالطبع!» صاحت والدته «أولئك العجائز ما زالوا يغنون، حتى في شيكاغو!... من المضحك كيف يحبّ الكبار في السنّ الغناء بهذه الطريقة، أليس كذلك؟».

صاح ساندي: «هذا جميل!». مع تخييم أغنيتهم النابضة بالحياة والراسخة كدفق من الإيمان الحيّ؛ على الليل بأكمله:

وشيئًا فشيئًا سنفهمها بشكل أفضل!

مكتبة
t.me/soramnqraa

حياة لا تخلو من ضحك

إنه لأمر خطير أن تصدّقوا تصريحًا جَدّيًا إن لم يكن المصرِّح يتمتع بحسّ الفكاهة. في الواقع، إنِ استدعى المتحدّث إلى الأذهان الصورة الكئيبة للجبين المُسنَد إلى كفّ، وقَوام جسد أحنَته ويلات العالم؛ فإنني سأبذل قصارى جهدي لأستبدل البيئة المحبطة بأجواء أكثر إشراقًا، حيث يضحك الناس الجدّيون فعلًا، يقهقهون في محاولاتهم للبقاء في هذا العالم القديم اللئيم و إحداث فَرق فيه ربما.

عرف لانغستون هيوز أنّ الحياة التي تُعاش في شوارع واسعة تصطفّ على جانبيها الأشجار؛ لا بدّ أن تُعاش بروح الدّعابة؛ فما بالكم بحياة الناس الكثيرين الذين يعيشون حياتهم متمسّكين بشكل متزعزع بالحافة الصخرية للفقر والرفض. عرف هيوز أنه إذا كان الناس الذين يسيرون في طرق الامتيازات الفسيحة يبتسمون بودّ؛ فإنّ الناس في شوارع التمييز الممزقة بحاجة إلى أن يضحكوا من أعماقهم من أجل النجاة.

مايا أنجلو

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING